

تاريخ الأنبياء

بين الحقيقة والافتراء

تأليف الدكتور

محمد عبد العال محمد حسن

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد بجامعة الأزهر

مراجعة

أ.د/ محمد محمد عبد القادر الخطيب

أ.د/ محمد محمود بكار السيوطي

دار الإيمان للمعرفة

١ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ / ٢٠١٩م

رقم الايداع
٢٠١٩/١٧٢٧٩



دار الإيمان للمعرفة
١ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

تليفون/٠١٠٠٥٧٦٠٦٦٣ - ٠١١١٨٩٣٣٦٢٤
بريد الكتروني/ elhibmohamed@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضللَّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣).

أما بعد^(٤)،،

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان ٧٠، ٧١.

(٤) هذه هي خطبة الحاجة التي كان النبي ﷺ يستهل بها خطبه، أخرجها: أبو داود: السنن، (كتاب النكاح، باب خطبة النكاح)، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، جـ ٢، ص ٣٩٨، ح ٢١٢٠، الترمذي: السنن، (كتاب النكاح، باب ما جاء في خطبة النكاح)، تحقيق/ أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، جـ ٣، ص ٤١٢، ح ١١٠٥.

فإن خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُّ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ بدعة ضلالة^(١)، "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"^(٢)، اللهم فقهنا في الدين، وعلمنا التأويل يا ربَّ العالمين.

وبعد،،،

فإنَّ قسمَ التاريخ والحضارة في جامعة الأزهر يفتتح دراسته بمادة "تاريخ الأنبياء"؛ لتنبية الطلاب المتخصّصين وعموم المسلمين إلى أنَّ التاريخ الإسلامي لا يبدأ ببعثة النبي ﷺ في أوائل القرن السابع الميلاديّ، وإنّما يبدأ بأبي البشر آدم ﷺ؛ لأنَّ "الأنبياء إخوة لعلات"^(٣)، أمّهاتهم شتّى، ودينهم واحدٌ"^(٤)، وكلَّ نبيّ دعا قومه إلى توحيد الله ﷻ وعبادته، فلم يأت أحدٌ منهم بعبادة حجر أو شجر أو بشر.

(١) مسلم: الصحيح، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، (كتاب الجمع، باب تخفيف الصلاة والخطبة)، ج١، ص٥٩٢، ح٨٦٧. وهذا الحديث كان يقوله النبي ﷺ عند خطبة الحاجة أيضاً.

(٢) البخاري: الصحيح، تحقيق/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، (كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)، ج١، ص٢٨٥، ح٧١، مسلم: الصحيح، (كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه)، ج٣، ص١٥٢، ح١٠٣٧.

(٣) إخوة لعلات: أولاد العلات بفتح العين وتشديد اللام، هم الأخوة لأب من أمهات شتى، وأما الأخوة من الأبوين فيقال لهم: أولاد الأعيان. النووي: شرح النووي على صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ج١٥، ص١٢٠.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ ج٣، ص١٢٧٠، ح٣٢٥٩، مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى ﷺ)، ج٤، ص١٨٣٧، ح٢٣٦٥.

وقد نصّ القرآن الكريم على أنّ جميع الأنبياء مسلمون لله ربّ العالمين، وإن اختلفت شرائعهم بما يتناسب مع الأمم التي بعثهم الله إليها. ولمّا كان تاريخ الأنبياء هو تاريخ الدّعوة إلى الإسلام، فقد تعرّضت مادّته لكثير من التشويه على يد اليهود قتلة الأنبياء، فالنّاظر في صحفهم المحرّفة يجدها لا تتورّع عن إلصاق القبائح والفواحش التي يخل منها أفسق الفسّاق بأنبياء الله -عليهم السّلام- حيث تحكى عن نبيّ الله لوط عليه السلام أنّه شرب الخمر وزنى بابنتيه^(١)، وعن نبيّ الله يعقوب أنّه اغتصب النّبوة من أخيه "عيسو" عن طريق الخديعة والاحتتيال^(٢)، وعن نبيّ الله داود أنّه أرسل قائد جيشه للحرب حتّى هلك ليقتنص زوجته^(٣)، وهكذا ... !

ولولا نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله ما عرفنا قصص الأنبياء -عليهم السّلام- كما وقعت حقاً؛ وذلك لأنّ قصص الأنبياء تعرّضت قبل بعثته صلى الله عليه وآله لتحريف وتبديل وعبث لم يسلم منه نبيّ! حتّى جاءت قصص بعض الأنبياء في صورة لا تحفظ لهم كرامتهم وعصمتهم.

وبالرّغم من صيانة القرآن الكريم والسّنة النّبويّة الصّحيحة لأنبياء الله تعالى وتنزيههم عمّا لا يليق بهم، فقد امتلأت المصادر الإسلاميّة بكثير من الأباطيل والأساطير؛ لأنّ كثيراً من المفسّرين كانوا يترخّصون في النّقل عن أهل الكتاب، إضافة إلى ما دسّه الوضّاعون، وما حشده النّقال ورواة الأخبار الذين لم يميّزوا لنا الصّحيح من السّقيم.

(١) سفر التكوين، إصحاح ١٩، فقرات ٣٠ - ٣٨.

(٢) سفر التكوين، إصحاح ٢٧.

(٣) سفر صموئيل، إصحاح ٢٢، فقرات ١ - ٢٣.

وقد قام بعض العلماء القدامى بمحاولات لتنقية قصص الأنبياء مما علق بها من أباطيل، فكان ابن كثير (ت: ٧٤٧هـ) وهو الحافظ العالم، والمفسر البصير، والمؤرخ الناقد، من أبرز العلماء الذين تناولوا أخبار قصص الأنبياء بالنقد والتّحيص في كتابيه: "تفسير القرآن العظيم"، و "البداية والنهاية".

ويقوم علماء الأزهر المحدثون بكثير من الدراسات لتنقية المصادر من الإسرائيليات والموضوعات، ومنها على سبيل المثال: "الإسرائيليات والموضوعات"، للدكتور/ محمد محمد أبو شعبة، الذي يعدّ من أمّهات الكتب في هذا الباب، ويستحقّ أن يكتب بماء الذهب. وتقوم أقسام التفسير والحديث في جامعة الأزهر بجهود كبيرة لتنقية المصادر مما لحق بها من أباطيل وأسمار، غير أنّ أكثر الأعمال حبيسة الأدرج، لا يتيسر لها الصّدر والانتشار.

ولقد كانت نفسي تتوق لدراسة تاريخ الأنبياء منذ مرحلة الدّراسة الجامعيّة، ثمّ زاد اهتمامي بذلك عندما وفّقني الله ﷻ لاختيار موضوع رسالة الماجستير عن المرويات التّاريخيّة في المستدرك على الصّحّاحين للحاكم النّيسابوريّ، "تاريخ الأنبياء والسيرة النّبويّة"، وفوجئت بالحشد الكبير للروايات الموضوعّة في هذا السّفر الضّخم من كتب السنّة النّبويّة بعد ما كنت أظنّه في مرتبة متقدّمة من الصّحة، والذي يغترّ به كثير من الباحثين، ناهيك عن غيرهم من القراء العاديين، إضافة إلى وجود الموضوعات والإسرائيليات في غيره من كتب السنّة، وشيوعها في كتب المفسّرين والمؤرّخين.

وإنِّي لا أفتأ أذكر بالفضل والثناء أستاذي الدكتور/ محمد محمود أحمد بكّار، أستاذ الحديث وعلومه بكلّيّة أصول الدّين والدّعوة بأسيوط، فلقد أشرف عليّ في رسالتي للماجستير، وتعلّمت على يديه كيفيّة التعامل مع الروايات التاريخيّة في كتب الحديث، ولا زلت أتعلّم منه حتّى الآن. وفي الصّفات القادمة عرض لما تيسّر من قصص الأنبياء، اعتمدت فيه أساساً على كتاب الله "القرآن"، فهو المصدر الرّئيس في هذا الشّان، وراعى فيه -قدر الإمكان- صحّة الروايات الحديثيّة، وأقوال الأئمة الثّقات، ونبّهت على الأباطيل والأساطير التي يكثر ذكرها في المصادر والمراجع، ولذا سمّيت الكتاب "تاريخ الأنبياء بين الحقيقة والافتراء".

وأسأل الله تعالى أن ينفع بما سطرت طلاب العلم والمسلمين، وأن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن يرجّح حسناتي يوم الدّين.

كتبه الدكتور

محمد عبد العال محمد حسن

مدينة أسيوط

١٥ شعبان ١٤٣٤ هـ - ٢٤/٦/٢٠١٣ م

مطور ما قبل آدم

لقد قصَّ الله ﷻ على نبيِّه ﷺ خبر ما مضى من خلق المخلوقات، وذكر الأمم الماضين، وكيف فعل الله بأوليائه، وماذا أحلَّ بأعدائه، وبين ذلك رسول الله ﷺ بيانا شافيا، فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك، وترك ما لا فائدة فيه^(١)، وسمع الصحابة تلك الأخبار من رسول الله ﷺ فقال عمر رضي الله عنه: "قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ مَقَامًا، فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ، حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ، حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ"^(٢)، وقال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: "لَقَدْ تَرَكْنَا مُحَمَّدًا ﷺ وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحِيهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا أَذْكَرْنَا مِنْهُ عِلْمًا"^(٣).

ولذا فلا حاجة لنا بما يخوض فيه أهل الكتاب ومن يحذو حذوهم، من الأخبار التي لا يؤيدها كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ^(٤).

❏ خالق الخلق:

نتعلم من المنهج الإسلامي الذي جاء به الأنبياء جميعا أن الله ﷻ هو خالق الكون، وأنه لم يوجد مصادفة عبر العصور السحيقة، كما يقول بذلك اللادينيون؛ فـ ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^(٥).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، بدون تاريخ طبع، ج ١، ص ٦.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه)، ج ٣، ص ١١٦٦، ح ٣٠٢٠.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ج ٣٥، ص ٢٩٠، ح ٢١٣٦١.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٦.

(٥) سورة الزمر: الآية ٦٢.

فقد "كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ" (١).

❏ خلق السماوات والأرض:

لقد قدر الله مقادير الخلق قبل خلق السماوات والأرض، وسمع عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه رسول الله ﷺ، يقول: "كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ" (٢). وحدثنا رب العالمين عن خلق السماوات والأرض بقوله: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنْزِلَ فِيهَا مِنْ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣).

وقد أفاض القرآن في ذكر ما سخره الله للإنسان في السماء والأرض، من نجوم (٤)، وجبال (٥)، وبحار (٦)، وسهول (٧)، وأنهار، وثمار (٨)، وغير ذلك.

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، ج ٣، ص ١١٦٦، ح ٣٠١٩.

(٢) مسلم: الصحيح، (كتاب القدر، باب ابتداء الخلق وخلق آدم)، ج ٤، ص ٢٠٤٤، ح ٢٦٥٣.

(٣) سورة فصلت: الآيات ٩ - ١٢.

(٤) سورة النحل: الآية ١٦.

(٥) سورة النبأ: الآية ٧.

(٦) سورة النحل: الآية ١٤.

(٧) سورة الأعراف: الآية ٥٤.

(٨) سورة الرعد: الآية ٣.

❏ خلق الملائكة:

تكثر الآيات التي تذكر الملائكة الكرام، ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثَلَاثَ وَرَبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

وقد أخبر الله ﷻ ملائكته الكرام بعزمه على خلق آدم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣)، ولما خلق آدم أمرهم بالسجود له، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَآءٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٤).

❏ خلق الجن:

خلق الله الجن قبل خلق آدم، وأخبرنا القرآن الكريم عن خلق الله للجن قبل آدم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَآءٍ مَّسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾^(٥). ولئن خلق الجن من النار، فهم كبنى آدم، يأكلون، ويشربون، ويتناسلون، ومنهم المؤمنون، ومنهم الكافرون^(٦).

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٢٦ - ٢٨.

(٢) سورة فاطر: من الآية ١.

(٣) سورة البقرة: من الآية ٣٠.

(٤) سورة الحجر:، الآيتان ٢٨، ٢٩.

(٥) سورة الحجر: الآيتان ٢٦، ٢٧.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص ٥٦.

وقد أخبر تعالى عن المؤمنين في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾^(١).

وأما كافرو الجن فمنهم الشياطين، ومقدمهم الأكبر إبليس -عدو آدم أبي البشر- وقد سلط هو وذريته على آدم وذريته، وتكفل الله ﷻ بعصمة من آمن به، وصدق رسله، وأتبع شرعه منهم^(٢)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾^(٤).

وقد أنظر الله إبليس إلى يوم القيامة -كما سيأتي في قصة آدم- وجعل له عرشا على الماء؛ محنة لعباده، واختبارا منه لهم^(٥)، كما روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنَزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدَهُمْ، فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ: وَيَجِيءُ أَحَدَهُمْ،

(١) سورة الجن: الآيات ١ - ٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص ٥٦.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٦٥.

(٤) سورة سبأ: الآيتان ٢٠، ٢١.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص ٥٨.

فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ -أَوْ قَالَ: فَيَلْتَزِمُهُ- وَيَقُولُ: نِعَمَ أَنْتَ أَنْتَ^(١).

ومن مزايا القرآن الكريم أنه يخاطبنا بما يعيننا من أمور ديننا ودنيانا وآخرتنا، ولا يكلفنا بالبحث عن أمور غيبية، لا علاقة لها بمصالحنا ومنافعنا، ولا فائدة من وراء البحث فيها^(٢)، كالذي روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في خلق الجن قبل آدم بألفي عام، وأنهم أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء، فبعث الله عليهم جنوداً من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور^(٣).

فمثل هذه الأشياء لم ترد في نص من كتاب الله، ولا في خبر عن رسول الله ﷺ.

(١) مسلم: الصحيح، (كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس)، ج٤، ص٢١٦٧، ح٢٨١٣، أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٢، ص٢٧٥، ح١٤٣٧٧.

(٢) محمد سيد طنطاوي: القصّة في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق المصرية، مجمع مطابع الأزهر الشريف، سلسلة البحوث الإسلامية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ج١، ص١٤.

(٣) الحاكم: المستدرک علی الصحیحین، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج٢، ص٣٧٩، ح٣٠٨٥.

محمد الأنبياء والمرسلين

لم يرد في القرآن الكريم بيانٌ بعدد الأنبياء أو المرسلين؛ لأنَّ الله ﷻ أخبرنا أنه أرسل رسلاً كثيرين قبل نبينا محمد ﷺ قصَّ علينا خبر بعضهم، وسكت عن البعض الآخر، فقال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾^(١)، وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾^(٢)، وأجمل لنا الحديث عن كثرتهم بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(٣).

ومن رحمة الله ﷻ أنه ما كلّفنا الإيمان بالأنبياء والرسل على سبيل التفصيل، بل كلّفنا بأن نؤمن بأنهم كثرة، وأنه تعالى أرسلهم لهداية البشر إلى طريقه القويم^(٤).

وأما كتب السنة النبوية فقد اشتملت على عدّة روايات عن عدد الأنبياء والمرسلين^(٥)، أشهرها ما روى عن أبي ذر ﷺ في حديث طويل أنه سأل النبي ﷺ فقال: "يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمْ الْأَنْبِيَاءُ؟ قَالَ: مِائَةٌ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ

(١) سورة النساء، من الآية ١٦٤.

(٢) سورة غافر، من الآية ٧٨.

(٣) سورة فاطر: من الآية ٢٤.

(٤) عبد العزيز الدردير موسى: التفسير الموضوعي للآيات القرآنية المتعلقة بوجوب الإيمان بالأنبياء والرسل، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ١٢٠.

(٥) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستند لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري (الأنبياء والسيرة النبوية)، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية بأسبوط، جامعة الأزهر، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج ١، ص ١٣٥-١٣٦.

وَعَشْرُونَ أَلْفًا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَمْ الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: ثَلَاثُ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ، جَمًّا غَيْرًا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ كَانَ أَوَّلُهُمْ؟ قَالَ: آدَمُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْبِيَّ مُرْسَلٌ؟ قَالَ نَعَمْ^(١)، ولكن هذا الحديث ضعيف^(٢)، ولا يحتج به، كغيره من الروايات الواردة في هذا الباب؛ ولهذا قال الحافظ ابن عساكر^(٣): "من زعم أنه يعرف عدتهم وأسماءهم فقد كذب؛ لأن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، والأمثل بنا أن نسكت عن محاولة معرفة عددهم. والواجب علينا أن نؤمن تفصيلاً بمن سمى الله في كتابه منهم، وهم خمسة وعشرون، ذكرهم الشاعر في قوله^(٤):

(١) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٣٥، ص ٤٣١، ٤٣٢، ح ٢١٥٤٦؛ ابن حبان: الصحيح، (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان)، ترتيب/ الأمير علاء الدين بن بلبان، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، جـ ٢، ص ٧٧، الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق/ حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، جـ ٨، ص ٢١٧، الحاكم: المستدرک على الصحيحين، جـ ٣، ص ١٩٩، ح ٤٢١٨.

(٢) الذهبي: تلخيص المستدرک، (مطبوع بهامش المستدرک على الصحيحين)، جـ ٣، ص ١٩٩، ح ٤٢١٨، السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، جـ ٢، ص ٧٤٦، الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، جـ ١، ص ١٥٩.

(٣) تاريخ دمشق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، جـ ١، ص ٣٠.

(٤) البجيرمي: حاشية البجيرمي (التجريد لنفع العبيد)، المكتبة الإسلامية، تركيا، بدون تاريخ، جـ ٤، ص ٢٠٦، محمد شطا الدمياطي: إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، جـ ١، ص ١٣.

حَتَمَ عَلَى كُلِّ ذِي التَّكْلِيفِ مَعْرِفَةً * * * بِأَنْبِيَاءٍ عَلَى التَّفْصِيلِ قَدْ عَلِمُوا
فِي "تِلْكَ حُجَّتَنَا" مِنْهُمْ ثَمَانِيَةٌ * * * مِنْ بَعْدِ عَشْرِ وَيَبْقَى سَبْعَةٌ وَهُمْ
إِدْرِيسُ هُودُ شُعَيْبُ صَالِحٌ وَكَذَا * * * ذُو الْكِفْلِ آدَمُ بِالْمُخْتَارِ قَدْ خُتِمُوا

ويشير الناظم بقوله: "تلك حجتنا" إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا

آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ
دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ *
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١).

آدم عليه السلام

❏ خلق آدم عليه السلام:

عندما أراد الله ﷻ أن يخلق آدم ويستعمره هو وذريته في الأرض أخبر ملائكته بذلك، وأمرهم بالسجود له تحية وتكريماً إذا تم خلقه ونُفخت فيه الروح، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١)، وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٢)، فسألت الملائكة ربها عن الحكمة من خلق آدم وذريته، وقالوا مستعلمين لا معترضين^(٣): ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤).

❏ مراحل خلق آدم عليه السلام:

لقد ثبت "أنَّ الله ﷻ خلقَ آدمَ من قَبْضَةٍ قَبْضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ"^(٥).

لكن المتتبع لآيات القرآن الكريم في حديثها عن المادّة التي خُلِقَ منها آدم، يرى اختلافاً واضحاً في ألفاظها، فأية تبيّن أنه خلق من تراب،

(١) سورة البقرة: من الآية ٣٠.

(٢) سورة الحجر: الآيتان ٢٨، ٢٩.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٧٠.

(٤) سورة البقرة: من الآية ٣٠.

(٥) أبو داود: السنن، (كتاب السنة، باب في القدر)، ج ٤، ص ٢٢٢، ح ٤٦٩٣، الترمذي:

السنن، وقال: "حديث حسن صحيح"، (كتاب التفسير، باب ومن سورة البقرة)، ج ٥،

ص ٢٠٤، ح ٢٩٥٥، أحمد بن حنبل: المسند، ج ٣٢، ص ٣٥٣، ح ١٩٥٨٢. وصحح

المحققون إسناده.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١)، وثانية تذكر خلقه من طين، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾^(٢)، وثالثة تحكي خلقه من صلصال من حمأ مسنون، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَآ مَّسْنُونٍ﴾^(٣)، ورابعة تبين خلقه من صلصال كالفخار، ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾^(٤).

ولا تعارض بين هذه الآيات التي تحكي خلق آدم؛ لأن كل آية تتحدث عن مرحلة من مراحل خلقه، وذلك أن الله ﷻ ابتداء خلقه من تراب متفرق الأجزاء، ثم بلّ بالماء فصار طيناً، ثم ترك حتى اسودّ فصار حمأ مسنوناً، ثم يبس فصار صلصالاً كالفخار^(٥)، وبهذا يتبين أن الآيات السابقات يؤيد بعضها بعضاً وهي تحكي أطوار ذلك التراب^(٦)، ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: "إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جَعَلَهُ طِينًا، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ حَمَآ مَّسْنُونًا، خَلَقَهُ وَصُورَهُ، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ صَلْصَالًا كَالْفَخَّارِ..."^(٧).

(١) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

(٢) سورة السجدة: الآية ٧.

(٣) سورة الحجر: الآية ٢٦.

(٤) سورة الرحمن: الآية ١٤.

(٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ، جـ ١٠، ص ٢١.

(٦) محمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، جـ ٧، ص ٤٩٩.

(٧) أبو يعلى: المسند، تحقيق/ حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، جـ ١١، ص ٤٥٣، والحديث حسن بمجموع طرقه. ينظر ابن حجر: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، تحقيق/ أحمد محمد عبد الله حميد، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، جـ ١٤، ص ٢٣٠-٢٣٢.

ثم إن الله خلق آدم خلقاً سوياً مستقيماً، وركبته في أحسن الهيئات والأشكال^(١)، كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ)^(٢)، وقوله أيضاً: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)^(٣).

وإن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم ﷺ وفي نشأة الجنس البشري، تؤكد أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة، كان مصاحباً لخلقه، وأن التّرقّي في تاريخ الإنسان كان ترقياً في بروز هذه الخصائص ونموّها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية، ولم يكن ترقياً في "وجود" الإنسان، من تطوّر الأنواع حتّى انتهت إلى الإنسان، كما يزعم "دارون" بتطوّر الإنسان عن القرد^(٤).

وقد انتقد أحد العلماء الألمان نظرية دارون، وقال: إن القرد إنسانٌ متفهم، وليس الإنسان قرداً مرتقياً، ودلّ على صحّة نظريّته بنفس أدلة دارون وبراهينه^(٥).

ولم يخلق الإنسان في ضوء تلك النظريّة إلا لغاية الحيوان، التي تتمثّل في الحصول على الطّعام والشّراب، والتّناسل والتّكاثر، وبالتالي

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (التفسير)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، جـ ٤، ص ٥١٣، ٤٨٢.

(٢) سورة الانفطار: الآيات ٦ - ٨.

(٣) سورة التين: الآية ٤.

(٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الحادية عشرة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، جـ ٣، ص ١٢٧٢.

(٥) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ٣٢.

يصبح الصِّراع بين بني آدم على احتياجات الحياة الماديّة التي تصير حقاً لمن يحصل عليها بأية وسيلة وإن كانت غير مشروعة^(١).

وتعدّ نظريّة "التطوّر الدّاروينيّة" من أكبر المؤامرات الإرهابيّة العالميّة ذات النّتائج الكارثيّة؛ لأنّ أهل الأديان كانوا لا يشكّون أنّ البشر هم خلق الله، ويجب عليهم أن يعيشوا وفقاً للمبادئ الأخلاقيّة التي علّمهم إياها، فلمّا انتشرت الدّاروينيّة والفلسفة الماديّة التي تدعمها، بدأ كثير منهم يعتقدون أنّ الإنسان قد أتى إلى حيّز الوجود بمحض الصدفة، وأنّه عبارة عن حيوان تطوّر بفعل الصِّراع من أجل البقاء، فكان لهذه الخدعة الخطيرة ثمن باهظ على عموم النّاس؛ لأنّ الأيديولوجيّات العنيفة -مثل العنصريّة، والفاشيّة، والشيوعيّة، والمذاهب الهمجيّة الكثيرة التي تقوم على النّزاع - قد استمدّت القوّة من هذه الخدعة^(٢).

ولا شكّ أنّ الأصابع اليهوديّة هي السّبب في ذبوع تلك النظريّة الباطلة وانتشارها^(٣)، فهم يقولون: "إنّ دارون ليس يهوديّاً، ولكنّا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع، ونستغلّها في تحطيم الدّين"^(٤).

(١) جمال عبد الهادي، وفاء محمد رفعت: تاريخ الأمّة المسلمة الواحدة منذ أقدم عصورها وحتى القرن السّابع قبل الهجرة في مصر والعراق، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، ص ٨، الإسلام دين الله في الأرض وفي السماء، طبعة دار الوفاء، ص ١٦.

(٢) هارون يحيى: خديعة التطوّر، الانهيار العلمي لنظريّة التطوّر وخلفياتها الأيديولوجيّة، ترجمة/ سليمان بابيارا، مراجعة أحمد ممتاز سلطان، أورخان محمد علي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص ٣، ٤.

(٣) حسين عبد الواحد: بروتوكولات حكماء صهيون، دار أخبار اليوم، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١١٣.

(٤) سيد أحمد الكيلاني: في مواكب النّبیین، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ج ١، ص ١١١.

📖 الوقت الذي خلق فيه آدم ﷺ:

لقد حددت السنة النبوية اليوم الذي خلق فيه آدم، والساعة التي خلق فيها أيضاً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: "خلق الله ﷻ التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم ﷺ بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل"^(١).

وقد أنكر جماعة من العلماء^(٢) هذا الحديث على الإمام مسلم^(٣)، وصوبوا ما رواه الطبري^(٤)، عن ابن عباس رضي الله عنه: "أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألت عن خلق السماوات والأرض فقال: "خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الله الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، فهذه أربعة، فقال ﷻ: ﴿أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ

(١) مسلم: الصحيح، (كتاب صفات المنافقين، باب ابتداء الخلق وخلق آدم)، جـ ٤، ص ٢١٤٩، ح ٢٧٨٩.

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمن محمد قاسم، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، جـ ١٧، ص ٢٣٦، ابن القيم: المنار المنيف في الصحيح والضعيف، تحقيق/ عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الثالثة، حلب، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٨٤، ٨٥، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، جـ ١، ص ٧٠.

(٣) ينظر د/ عمر نجار علي عبد الحافظ: عرض السنة على القرآن، دار طيبة، أسبوط، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص ١١٦-١٤٥.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م. جـ ١، ص ٣٨.

أَنذَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنْفِئَهُمْ فِي يَوْمٍ أُخْتُرَ السَّمَاءُ، وَخَلَقَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ النُّجُومَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْمَلَائِكَةَ إِلَى ثَلَاثِ سَاعَاتٍ بَقِيْنَ مِنْهُ، فَخَلَقَ فِي أَوَّلِ سَاعَةٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ السَّاعَاتِ الْآجَالَ حِينَ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ، وَفِي الثَّانِيَةِ أَلْقَى الْأَفْءَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِّمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ، وَفِي الثَّلَاثَةِ آدَمَ أَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ، وَأَمَرَ إِبْلِيسَ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا فِي آخِرِ سَاعَةٍ. ثُمَّ قَالَتِ الْيَهُودُ: ثُمَّ مَاذَا يَا مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ. قَالُوا: قَدْ أَصَبْتَ لَوْ أَتَمَمْتَ، قَالُوا: ثُمَّ اسْتَرَّاحَ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ غَضَبًا شَدِيدًا، فَنَزَلَتْ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ (١).

وهذا الذي اختاره ابن جرير الطبري وصوبه لم ينقل إلينا بسند صحيح (٢)، وأمّا متنه فمأخوذ من الإسرائيليات؛ لأنّ تحديد بدء الخليقة بيوم الأحد، وانتهائها بيوم الجمعة، ليس سوى إيجاز لقصة الخليقة الواردة في سفر التكوين (٤).

وليس من الإنصاف في شيء أن تقدّم الإسرائيليات على رواية في صحيح الإمام مسلم! وقد لاحظ ذلك العلامة السهيلي (٥) وأنكره، وتعجّب

(١) سورة فصلت: الآيتان ٩، ١٠.

(٢) سورة ق: الآيتان ٣٨، ٣٩، والحديث رواه الحاكم في المستدرک، ج ٣، ص ١٤٦، ح ٤٠٤٨، وأبو الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة، تحقيق/ رضاء الله محمد إدريس، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ج ٤، ص ١٣٦٢، ١٣٦٣.

(٣) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرک، ج ١، ص ٥٠.

(٤) آمال ربيع: الإسرائيليات في تفسير الطبري، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص ٢٧٨.

(٥) الروض الأنف، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ج ٢، ص ١٩٨.

من مخالفة الطبري لمقتضى الحديث الصحيح، وميله إلى قول اليهود في أن الأحد هو الأول.

وحديث الإمام مسلم لا يتعارض مع القرآن بوجه من الوجوه، خلافاً لما توهمه بعض العلماء، لأنه يفصل كيفية الخلق على الأرض وحدها، وأن ذلك كان في سبعة أيام، ونص القرآن على أن خلق السموات والأرض كان في ستة أيام، والأرض في يومين لا يعارض ذلك، لاحتمال أن هذه الأيام الستة غير الأيام السبعة المذكورة في الحديث، وأنه تحدث عن مرحلة من مراحل تطور الخلق على وجه الأرض حتى صارت صالحة للسكنى، ويؤيده أن القرآن يذكر أن بعض الأيام عند الله كآلف سنة، وبعضها مقداره خمسون ألف سنة، ولا مانع أن تكون الأيام الستة من هذا القبيل، والأيام السبعة من أيامنا هذه، كما هو صريح الحديث^(١).

❏ وصف طول آدم عليه السلام:

لقد تظاهرت الأخبار بأن آدم عليه السلام كان رجلاً طويلاً، وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلَئِكَ، وَهُمْ نَفَرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ، فَاسْتَمِعَ مَا يُحْيُونَكَ فَإِنَّهَا تَحْيِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلْ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ"^(٢).

(١) من تعليقات الألباني على مشكاة المصابيح للتبريزي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، ج ٣، ص ١٢١، ح ٥٧٣٥.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الاستئذان، باب بدء السلام)، ج ٥، ص ٢٢٩٩، ح ٥٨٧٣.

ولا شك أن الهاء في "صُورَتِهِ" ترجع إلى آدم لا إلى رب العزة، لأنه «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»، والفائدة من رجوعها إلى آدم دون إضافتها إلى الباري ﷻ بيان فضل آدم على سائر ذريته، بأنه لم يكن نقطة فعلة، ولا علة فمضغة، ولا مضغة فريضاً، ولا رضيعاً ففطيماً، ولا فطيماً فشاباً، كما كانت هذه حالة غيره من ذريته^(١).

سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس:

لما خلق الله آدم ﷺ ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة الكرام بالسجود له، «فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ»^(٢)، سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة^(٣).

وأما إبليس فإنه قد أضمر الشر لآدم قبل نفخ الروح فيه؛ فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكُهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرَكُهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ»^(٤)، فلما أمره الله بالسجود لآدم «أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ»^(٥)، واحتج لربه في عدم السجود لآدم بحجة داحضة «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ»^(٦)، فعاقبه الله ﷻ بطرده

(١) ابن حبان: الصحيح، جـ ١٤، ص ٣٣، ٣٤.

(٢) سورة الحجر: الآية ٣٠.

(٣) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، جـ ١٤، ص ٣١.

(٤) مسلم: الصحيح، (كتاب البر والصلة والآداب، باب خلق الإنسان خلقاً لا يتمالك)، جـ ٤، ص ٢٠١٦، ح ٢٦١١. ومعنى لا يتمالك، أي لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات. وقيل: لا يملك دفع الوسواس عنه. وقيل: لا يملك نفسه عند الغضب. النووي: شرح النووي على صحيح مسلم، جـ ١٦، ص ١٦٤.

(٥) سورة البقرة: من الآية ٣٤.

(٦) سورة ص: الآية ٧٦.

من رحمته، وإخراجه من جنته، ولعنه إلى يوم الدين، ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾^(١)، وجعله من الصّاغرين الحقيّرين؛ معاملة له بنقيض قصده، ومكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين، وسأل النظرة إلى يوم الدين، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(٢)، فأجابه الله تعالى إلى ما سأل، ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾^(٣)، لما لله ﷻ في ذلك من الحكمة والإرادة والمشينة التي لا تخالف ولا تمنع^(٤).

وقد كشف إبليس اللعين عن حسده لآدم وذريّته فأقسم بعزة الله على إغوائهم وإضلالهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٥)، ولكن من رحمة الله تعالى لبني آدم أنه لم يجعل للشيطان سلطة على أهل الإيمان، ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾^(٦).

وقد طمأن الله عباده المؤمنين بأنّ الشيطان مهما اجتهد في إغوائهم فليس له عليهم من سبيل فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أُوْحِتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً *

(١) سورة ص: الآيتان ٧٧، ٧٨.

(٢) سورة ص: الآية ٧٩.

(٣) سورة ص: الآيتان ٨٠، ٨١.

(٤) ابن كثير: التفسير، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٥) سورة الحجر: الآية ٣٩.

(٦) سورة النحل: الآيتان ٩٩، ١٠٠.

قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا^(١).

❏ أصل إبليس:

اختلف العلماء في أصل إبليس هل هو من الملائكة أم من الجن؟ فذهب جمهور المفسرين^(٢) إلى أنه من الملائكة؛ لاستثنائه منهم في غير ما موضع من القرآن الكريم.

ويرى آخرون^(٣) أنه من الجن لصريح القرآن بذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(٤)، ولأن الملائكة مخلوقون للطاعة ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٥)، كما أنهم ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾^(٦)، ولأن إبليس لم يخلق من نور كالملائكة، كما

(١) سورة الإسراء: الآيات ٦١ - ٦٥.

(٢) الطبري: التفسير، ج ١، ص ٢٢٧، البغوي: معالم التنزيل في التفسير، تحقيق/ خالد عبد الرحمن، دار المعرفة، بيروت، ج ١، ص ٦٣، السمعاني: تفسير القرآن، تحقيق/ ياسر إبراهيم، وغنيم عباس، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ج ١، ص ٦٧، القرطبي: التفسير، ج ١، ص ٢٩٤.

(٣) ابن جزي الغرناطي: التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج ٢، ص ١٩٠، ابن كثير: التفسير، ج ١، ص ٧٨، ج ٣، ص ٨٩، ج ٤، ص ٤٤، الشقيطي: أضواء البيان، ج ٣، ص ٢٩١، محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ١٢٠.

(٤) سورة الكهف: من الآية ٥٠.

(٥) سورة التحريم: من الآية ٦.

(٦) سورة الأنبياء: من الآية ٢٧.

صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: "خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ"^(١).

وهذا الرأي هو المقبول؛ لأنَّ التَّأْوِيلَ في تصريح القرآن الكريم بأنَّ إبليس كان من الجنَّ أبعد إلى القبول^(٢).

❏ خلق حواء:

بعدما خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه خلق منه زوجه حواء^(٣) ليسكن إليها، يقول الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾^(٤)، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٥).

وقد خلق الله حواء من ضلع آدم كما صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: "اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيمُهُ كَسَرَتْهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا"^(٦)، ويحدد المفسرون الضِّلْع الذي خلقت منه حواء بأنه الأقصر الأيسر^(٧).

(١) مسلم: الصحيح، (كتاب الزهد، باب في أحاديث متفرقة)، جـ ٤، ص ٢٢٩٤، ح ٢٩٩٦.

(٢) محمد متولي الشعراوي: قصص الأنبياء، جمع وتحقيق/ منشأوي غانم جابر، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، جـ ١، ص ١٣١.

(٣) جاء ذكر اسمها "حواء" في الصحيحين. البخاري: الصحيح، جـ ٣، ص ١٢١٢، ح ٣١٥٢، مسلم: الصحيح، جـ ٢، ص ١٠٩٢، ح ١٤٧٠.

(٤) سورة الأعراف: من الآية ١٨٩.

(٥) سورة النساء: الآية ١.

(٦) البخاري: الصحيح، (كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء)، جـ ٥، ص ١٩٨٧، ح ٤٨٩٠.

مسلم: الصحيح، (كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء)، جـ ٢، ص ١٠٩١، ح ١٤٦٨.

(٧) ابن كثير: التفسير، جـ ٣، ص ٤٣٠.

ويختلف المفسرون في توقيت خلق حواء فيرى بعضهم أنها خلقت قبل دخول آدم الجنة؛ لتوجه الأمر بالسكنى إليها مع آدم في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١)، لكن أكثر أئمة التفسير على أنها خلقت بعد دخول آدم الجنة، وأنه استوحش فنام، فلما استيقظ وجدها عند رأسه، قد خلقها الله من ضلعه الأيسر^(٢).

❏ الجنة التي سكنها آدم وزوجه:

اختلف العلماء في الجنة التي سكنها آدم عليه السلام هل كانت في الأرض أو في السماء^(٣)؟ فيرى جمهور علماء السلف أنها دار الثواب التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة، وأشهر أدلتهم أن الألف واللام في لفظ الجنة لا يفيدان العموم، لأن سكنى جميع الجنان محال، فلا بد من صرفها إلى المعهود السابق، والجنة التي هي المعهودة المعلومة بين المسلمين هي دار الثواب، فوجب صرف اللفظ إليها.

ويرى آخرون أنها جنة أخرى غير دار الثواب أعدّها الله لابتلاء الأبرار، على خلاف في الرأي نفسه بين رفعها إلى السماء أو جعلها في الأرض.

(١) سورة البقرة: الآية ٣٥.

(٢) أبو حيان: البحر المحيط، تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ج١، ص ٣٠٧.

(٣) الفخر الرازي: التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ج٣، ص ٤، ٥، ابن القيم: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، دار المنار، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ٣٠، ٣١.

ويرى فريق ثالث وجوب التوقف في تعيين تلك الجنة وترك القطع بها؛ لضعف الأدلة النقلية وتعارضها، وأسلم الأقوال وأحوطها هو الكف عن تعيين الجنة، وهو قول الإمام أبي حنيفة وأبي منصور الماتريدي؛ لأنه ليس لهذه المسألة تأثير في العقيدة^(١).

❏ إغواء إبليس لآدم وحواء وعقوبتهما وتوبتهما:

لقد أخبرنا الله تعالى بأنه أباح لآدم وحواء الأكل من جميع أشجار الجنة إلا واحدة، نهامها عن القرب منها بقوله: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢)، ولكن الشيطان وسوس لهما بالأكل منها، وأغواهما بأنواع المغريات، ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(٣)، ولم يزل بهما حتى نسيا عهد الله وأكلا من الشجرة، "وكان آدم يظن أنه لا يحلف أحد بالله كاذباً"^(٤)، ولذلك اغترَّ بيمين الشيطان^(٥).

وكانت حواء أسرع من آدم في الاستجابة لإغواء إبليس؛ بل إنها زينت لآدم عليه السلام الأكل من الشجرة بالإضافة إلى تزيين الشيطان لهما معاً^(٦)، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لَوْ لَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ

(١) محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط، القاهرة، ١٣٩٦هـ/١٩٨٣م، جـ ٥، ص ٢٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٥.

(٣) سورة الأعراف: الآيتان ٢٠، ٢١.

(٤) هذا القول لعبد الله بن عباس.

(٥) القرطبي: التفسير، جـ ٧، ص ١٨٠.

(٦) ابن حجر: فتح الباري، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة،

بيروت، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م، جـ ٦، ص ٣٦٨، البدر العيني: عمدة القاري شرح صحيح

البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ طبع، جـ ١٥ ص ٢١١.

يَخْبُثُ الطَّعَامُ، وَلَمْ يَخْنَزْ^(١) اللَّحْمُ، وَلَوْ لَا حَوَاءَ لَمْ تَخُنْ أَنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرَ^(٢)، وَمَنْ يَحَاوِلْ تَبْرئةَ حَوَاءَ مِنَ الْمَسْئُولِيَّةِ^(٣) فَلَا يَصِحَّ كَلَامُهُ مَعَ هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الصَّرِيحِ^(٤).

وقد أسند الله تعالى الشقاء إلى آدم وحده دون حواء مع اشتراكهما في الفعل كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(٥)، لَأَنَّ فِي ضَمْنِ شِقَاءِ الرَّجُلِ - وَهُوَ قِيمٌ أَهْلُهُ وَأَمِيرُهُمْ - شِقَاءَهُمْ، كَمَا أَنَّ فِي ضَمْنِ سَعَادَتِهِ سَعَادَتَهُمْ، فَاخْتَصَّ الْكَلَامُ بِإِسْنَادِهِ إِلَيْهِ دُونَهَا، وَإِنْ أُرِيدَ بِالشَّقَاءِ التَّعَبُ فِي طَلَبِ الْقُوَّةِ، فَذَلِكَ عَلَى الرَّجُلِ دُونَ الْمَرْأَةِ^(٦).

وَأَمَّا مَا يُرَوَى مِنْ مَعَاقِبَةِ اللَّهِ لِحَوَاءَ عَلَى تَزْيِينِهَا لِآدَمَ بِاتِّعَابِهَا هِيَ وَبَنَاتِهَا بِآلَامِ الْحَمْلِ، وَبِالْحِيضِ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ شَهْرٍ^(٧)، فَفِي مَتْنِهِ نَكَارَةٌ، وَمُخَالَفَةٌ لِلْعَقْلِ وَلَمَّا جَبَلَتْ عَلَيْهِ الْمَرْأَةُ؛ فَإِنَّهَا لَا تَحِيضُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً فِي الشَّهْرِ، كَمَا أَنَّ فِيهِ عِقَابًا جَمَاعِيًّا لِحَوَاءَ وَلِجَمِيعِ بَنَاتِهَا^(٨)، وَاللَّهُ تَعَالَى

(١) خنز: فسد وأنتن. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ، ج ٥، ص ٣٤٦.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب خلق آدم وذريته)، ج ٣، ص ١٢١٢، ح ٣١٥٢، مسلم: الصحيح، (كتاب النكاح، باب لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر)، ج ٢، ص ١٠٩٢، ح ١٤٧٠.

(٣) محمد متولي الشعراوي: قصص الأنبياء، ج ١ ص ١٠٤.

(٤) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرك، ج ١، ص ٥٥.

(٥) سورة الأعراف: الآيتان ٢٠، ٢١.

(٦) الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٢، ص ١٠٦.

(٧) الطبري: التفسير، ج ١ ص ٢٣٧، الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ج ٢، ص ٤٨٨، ح ٣٤٨٧، الديلمي: الفردوس بمأثور الخطاب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ج ٣، ص ١٢٥.

(٨) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرك، ج ١، ص ٥٤.

يقول: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»^(١)، والأثر مأخوذ عن أهل الكتاب، فعقاب حواء المتمثل في أتعاب الحمل والولادة، يوجد في النصّ العبريّ الذي جاء فيه: "وقال للمرأة تكثيراً، أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً"^(٢).

ولا يضير حواء أن تكون البائدة بالخطيئة؛ لأنّ العبرة بالخواتيم، فإنّها وزوجها قد أعلنّا التوبة لله، وطلبا المغفرة، «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ»^(٣).

وكان آدم ﷺ لا يرى عورته قبل أكله من الشجرة، فلما ركب الخطيئة بدت له عورته، فندم ندماً شديداً، حتّى ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وانطلق هارباً، «فَلَقَيْنَاهُ شَجَرَةً، فَأَخَذَتْ بِنَاصِيَّتِهِ، فَناداهُ رَبُّهُ: يَا آدَمُ أَمْنِي تَفَرُّ؟ قَالَ: بَلْ حَيَاءٌ مِنْكَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مِمَّا جِئْتُ بِهِ»^(٤).

وقد قبل الله توبة الأبوين، ولقن آدم ﷺ كيفية الرجوع إلى ساحة الرحمن، «فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ»^(٥)، وانتهى أمر تلك الخطيئة الأولى، ولم يبق منها إلا رصيد التجربة الذي يعين الجنس البشريّ في صراعه الطويل مع الشيطان الرجيم^(٦).

(١) سورة فاطر: الآية ١٨.

(٢) آمال ربيع: الإسرائيليات في تفسير الطبري، ص ٢٤٦.

(٣) الأعراف: الآية ٢٣.

(٤) الخرائطي: مكارم الأخلاق، تحقيق/ أيمن عبد الجابر البحيري، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ١١١، الحاكم: المستدرک على الصحيحين، ج ٢، ص ٣٧٩، ٣٨٠، وصحح الحاكم إسناده، وأقرّه الذهبي. وقد روي هذا الحديث من عدة طرق مرفوعاً وموقوفاً عن أبي بن كعب، والموقوف أصحّ. ابن كثير. التفسير، ج ٢، ص ١٩١.

(٥) سورة البقرة: الآية: ٣٧.

(٦) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٣، ص ١٢٧٢.

وقد أمر الله ﷻ عباده المؤمنين بالاستعاذة من عدوهم الشيطانيّ وعدم مصانعته، لأنّ طبعه الخبيث لا يتغيّر، وهو لا يقبلُ مصانعةً ولا إحساناً، ولا يبتغي غيرَ هلاكِ ابنِ آدم؛ لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل، كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾^(١)، وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٢)، وقال: ﴿افْتَحِذُوهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾^(٣)، وعلى الإنسان ألا يغفل عن وساوس الشيطان وخطواته؛ لأنّه قد أقسم للوالد إنّهُ لمن النّاصحين، وكذب، ثمّ كشف بني آدم بالعداوة الصّريحة وأقسم لربّ العزّة بإغوائهم وإضلالهم قائلاً: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا غَوِيَّ لَهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^(٤)، ولهذا فلا ينتظر منه إلا أسوأ المعاملة^(٥)، فنعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم.

وينبغي على ابن آدم عندما يستزلّه الشيطان أن يسارع من فوره إلى التوبة والإنابة إلى الله ﷻ ويطلب المغفرة، كما فعل أبوه آدم عليه السلام^(٦). ويستفاد من قصّة إغواء الشيطان للأبوين أنّ الإنسان قابل للوقوع في الخطيئة، وذلك لما جبله الله ﷻ عليه من ميول وغرائز ورغبات،

(١) الأعراف: الآية ٢٧.

(٢) سورة فاطر: الآية ٦.

(٣) سورة الكهف: الآية ٥٠.

(٤) سورة ص: الآيتان ٨٢، ٨٣.

(٥) ابن كثير: التفسير، ج ١، ص ١٢.

(٦) عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج ١، ص ٣٠.

كحبّه للملك وطمعه في الخلود، ولذا كان تمكّن الإنسان من ضبط ميوله وغرائزه ورغباته بأحكام الشرع دليلاً على قوّة إيمانه^(١).

❏ الأرض التي أهبط إليها آدم وحواء:

لقد ذكر الرواة أقوالاً في الأماكن التي هبط فيها الأبوان، فقيل أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وقيل غير ذلك، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها، ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ^(٢)، ولذا فالسكوت عن تعيين المكان أولى.

❏ شبهة حول عصمة آدم عليه السلام:

يُروى مرفوعاً أنّ حواء لما حملت كان لا يعيش لها ولد، فأوحى لها إبليس أن تسميه عبد الحارث، فنذرت لئن عاش لها ولد تسميه عبد الحارث، فعاش لها ولد فسمته عبد الحارث عن وحي الشيطان^(٣).

ويربط الرواة بين هذا الكلام وبين قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيّاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحاً لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٤).

(١) عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، جـ ١، ص ٢٨.

(٢) ابن كثير: التفسير، جـ ٢، ص ١٩٢.

(٣) الطبري: التفسير، جـ ٩، ص ١٤٦، ابن أبي حاتم: التفسير، تحقيق/ أسعد محمد الطيب،

مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩م، جـ ٥، ص ١٦٣١،

الترمذي: السنن، (كتاب التفسير، باب ومن سورة الأعراف)، جـ ٥، ص ٢٦٧، ح ٣٠٧٧،

السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جـ ٣، ص ٦٢٣.

(٤) سورة الأعراف: الآيتان ١٨٩، ١٩٠.

وإذا كان بعض العلماء قد بالغ في تصحيح هذا الخبر^(١)، فإنّ سنده لم يصحّ عند المحقّقين^(٢)، وأمّا منته فهو منكر^(٣) موضوع^(٤)، لأنّ آدم عليه السلام كان أشدّ الناس معرفة إبليس، وكان عالماً بجميع الأسماء كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ومع العداوة الشديدة التي بينه وبين إبليس، ومع علمه بأنّ اسمه هو الحارث، لم يكن ليُسمي ولد نفسه بعبد الحارث^(٥)، والحسن البصريّ الذي يُروى الأثر من طريقه لم يقرن الآية بآدم وحواء، وإنّما فسرها بذريّة آدم ومن أشرك منهم بعده، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن النبي ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدلّ على أنّه موقوف على الصحابيّ سمرة بن جندب رضي الله عنه^(٦)، والظاهر أنّه تلقّاه من إسرائيليات أهل الكتاب^(٧).

📖 نبوة آدم عليه السلام ورسالته:

يختلف العلماء في نبوة آدم ورسالته؛ لعدم التّصريح بما يدلّ على نبوّته أو رسالته في القرآن الكريم^(٨)، فيرى جمهور العلماء^(٩) أنّ آدم

(١) الحاكم: المستدرک على الصحيحين، ج٣ ص١٤٨، ح٤٠٥٤.

(٢) ابن كثير: التفسير، ج٢، ص٢٧٥.

(٣) الذهبي: تلخيص المستدرک، ج٥، ص٢١٦.

(٤) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، الرياض،

الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ج٤، ص١١.

(٥) الرازي: التفسير الكبير، ج١٥، ص٨٦.

(٦) ابن كثير: التفسير، ج٢، ص٢٧٦.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص٩٦.

(٨) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ص٢٧.

(٩) الحاكم: المستدرک، ج٣، ص١٤٥، الماوردي: أعلام النبوة، تحقيق/ محمد المعتصم بالله،

دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص٥٤، ابن تيمية:

مجموع الفتاوى، ج١٥، ص٢٣٨، السيوطي: الدر المنثور، ج١، ص١٢٦.

عليه السلام من الأنبياء، وقد ابتدأ به شيخ المحدثين الإمام البخاري "كتاب الأنبياء" من الصحيح^(١).

والأدلة على نبوة آدم عليه السلام كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية^(٢)، ولكن الأدلة القرآنية لم تكن صريحة، فلم يذكر لفظ النبوة بإزاء آدم كما ذكر مع غيره من الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، ولكن ذكر أن الله ﷻ خاطبه بلا واسطة، وشرع له في ذلك الخطاب، فأمره ونهاه، وأحلّ له وحرّم عليه بدون أن يرسل إليه رسولا، وهذا هو كل معاني النبوة^(٣).

الآيات الدالة على نبوة آدم:

أولاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٤)، والظاهر أن المراد الاصطفاء، بالنبوة والرسالة.
ثانياً: قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٥)، ففي هذه الآية وعد من الله تعالى بالهدى، وإشعار بالرسالة.
ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾^(٦)، والظاهر أن اجتباء الله له وتوبته عليه، إنما هو اصطفاء الله إياه بالنبوة والرسالة^(٧).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب خلق آدم)، ج ٣، ص ١٢٠٩.

(٢) عز الدين بليق: نبوة آدم ورسالته بين الظن واليقين، دار الفتح، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ص ٢٧٩ وما بعدها.

(٣) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ص ٢٧.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٣٣.

(٥) سورة البقرة: الآية ٣٨.

(٦) سورة طه: الآية ١٢٢.

(٧) محمد على الصابوني: النبوة والأنبياء، ص ٢٥.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(١).
خامساً: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾^(٢).

سادساً: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(٣).
سابعاً: قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٤).
ثامناً: آيات قصّة ابني آدم في سورة المائدة^(٥).
الأحاديث الدالة على نبوة آدم:

اشتملت السنّة النبويّة على عدّة أحاديث مرفوعة للنبيّ ﷺ تدلّ على نبوة آدم صراحة، ومنها حديثان صحيحان:
الأول: روى أبو سعيد الخدريّ ﷺ أن النبيّ ﷺ قال: "أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لَوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمُنْذِ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لَوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ"^(٦).
الآخر: روى أبو أمامة ﷺ أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْبِيَّ كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: نَعَمْ مُكَلَّمٌ، قَالَ: فَكَمْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: عَشْرَةُ قُرُونٍ^(٧).

(١) سورة فاطر: الآية ٢٤.

(٢) سورة طه: الآية ١١٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٣١.

(٤) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٥) سورة المائدة: الآيات من ٢٧ - ٣١.

(٦) الترمذي: السنن، وقال: "حسن صحيح"، (كتاب التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل)،

ج ٥، ص ٣٠٨، ح ٣١٤٨.

(٧) ابن حبان: الصحيح، ج ١، ص ٦٩، ح ٦١٩٠، وعلق عليه ابن كثير فقال: "صحيح على

شرط مسلم ولم يخرج له". البداية والنهاية ج ١، ص ١٠١.

وأما النافون لنبوة آدم فيتكنون على أن القرآن الكريم لم يذكر لفظ النبوة بإزاء آدم كما ذكر مع غيره من الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ.

وإذا وقع الخلاف في نبوة آدم عليه السلام فإنه يقع في رسالته من باب أولى، ولذا يرى بعض العلماء أنه لم يكن رسولاً، وإنما كان نبياً، ويستدلون بحديث الشفاعة الطويل، وفيه يقول آدم للناس: "اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ"^(١)، فلو كان آدم رسولاً لما ساغ هذا القول، والقائلون برسالة آدم يؤولون ذلك بأنه أول رسول بعد الطوفان^(٢).

ومن العلماء من يقول بأن آدم من الرسل^(٣)، وأنه كان رسول الأسوة والقوة لأبنائه، لأن الله تعالى قال لآدم وحواء: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكَ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤)، وما دام الله أنزل هدىً، فهناك منهج يبلغ للناس^(٥).

وقد انتقد الشيخ الشعراوي المنكرين لرسالة آدم، وتساءل: هل يترك الله خلقه من عهد آدم إلى عهد نوح بدون رسول؟ وبدون منهج؟ ولماذا يبعث الله لخلقه بعد نوح رسولاً؟ ولا يبعث لهم منذ عهد آدم إلى

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾، جـ ٣، ص ١٢١٥، ح ٣١٦٢، مسلم: الصحيح، (كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة)، جـ ١، ص ١٨٥، ح ١٩٤.

(٢) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ص ٢٧.

(٣) محمد على الصابوني: النبوة والأنبياء، ص ١٢٥.

(٤) البقرة: الآية ٣٨.

(٥) محمد متولي الشعراوي: قصص الأنبياء، جـ ١، ص ١٩٦، ١٩٧.

عهد نوح منهجاً ورسولاً؟ وهو القائل جلّ جلاله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(١)، فما دام هناك خلق فلا بدّ أن يكون هناك نذير، والذين قالوا إنّ آدم ليس نبياً وليس رسولاً، إنّما فكّروا تفكيراً سطحياً، وفهموا أنّ الرسول لابد أن يأتي إلى المرسل إليهم بعد شيوع الظلم والفساد بينهم، ونسي هؤلاء أنّ آدم وإن كان أباً للبشر فسيكون له أبناء يحتاجون إلى رسول يعلمهم المنهج الذي يقلّدونه^(٢).

❏ وفاة آدم عليه السلام:

تروي كتب السنّة النبويّة طرفاً ممّا حدث في وفاة آدم عليه السلام فعن أبي بن كعب رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: "لَمَّا حُضِرَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِبَنِيهِ: أَنْطَلِقُوا فَاجْتُمِعُوا لِي مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، فَخَرَجَ بَنُوهُ فَاسْتَقْبَلَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ فَقَالُوا: أَيْنَ تُرِيدُونَ يَا بَنِي آدَمَ؟ قَالُوا: بَعَثْنَا أَبُونَا لِنَجْنِي لَهُ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، قَالَ: ارْجِعُوا فَقَدْ كُفِّتُمْ، فَارْجِعُوا مَعَهُمْ حَتَّى دَخَلُوا عَلَى آدَمَ، فَلَمَّا رَأَتْهُمْ حَوَاءُ دُعِرَتْ مِنْهُمْ، وَجَعَلَتْ تَدْنُو إِلَى آدَمَ وَتَلْتَصِقُ بِهِ، فَقَالَ لَهَا آدَمُ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَمِنْ قَبْلِكَ أُتَيْتُ، خَلَّ بَيْنِي وَبَيْنَ مَلَائِكَةِ رَبِّي، فَقَبَضُوا رُوحَهُ، ثُمَّ غَسَلُوهُ، وَحَنَطُوهُ^(٣)، وَكَفَنُوهُ، ثُمَّ صَلَّوْا عَلَيْهِ، ثُمَّ حَفَرُوا لَهُ، ثُمَّ دَفَنُوهُ، ثُمَّ قَالُوا: يَا بَنِي آدَمَ هَذِهِ سُنَّتُكُمْ فِي مَوْتَاكُمْ، فَكَذَاكُمْ فافْعَلُوا"^(٤).

(١) فاطر: الآية ٢٤.

(٢) قصص الأنبياء، ج١، ص ١٩٦، ١٩٧.

(٣) حنطوه: الحنوط: كل ما يطيب به الميت. ابن منظور: لسان العرب، ج٧، ص ٢٧٩.

(٤) الطيالسي: مسند أبي داود الطيالسي، تحقيق/ محمد عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ج١، ص ٤٤٣، ح ٥٥١. ورواه الحاكم واللفظ له، وصحح إسناده. المستدرک على الصحيحين، ج١، ص ٤٥٦، ح ١٣٠٦. وأقره الألباني. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ على الأمة، دار المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ج٦، ص ٤٠٦.

وثبت عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "لَمَّا تُوفِّيَ آدَمُ غَسَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالْمَاءِ وَتَرَأَوْا، وَأَلْحَدُوا لَهُ^(١)، وَقَالُوا: هَذِهِ سُنَّةُ آدَمَ فِي وَلَدِهِ"^(٢).
مقدار عمر آدم:

لقد جاء في السنة ما يدل على مقدار عمر آدم عليه السلام فصَحَّ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيَّ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبٍّ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبَيْصٌ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّ رَبٍّ مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدَ، فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَيُّ رَبٍّ زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ، جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَقَالَ: قَدْ عَجَلْتَ، قَدْ كُتِبَتْ لِي أَلْفُ سَنَةٍ! أَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْ لَمْ تُعْطِهَا ابْنُكَ دَاوُدَ؟ قَالَ: فَجَدَدَ آدَمَ، فَجَدَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنُسِيَ آدَمَ، فَنُسِيتَ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِيئَ آدَمَ، فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ^(٣).

(١) ألحدوا له: اللحد واللحد: الشق الذي يكون في جانب القبر لموضع الميت لأنه قد أميل عن وسط القبر إلى جانبه. ابن منظور: لسان العرب، ج٣، ص ٣٨٨.

(٢) الطبراني: المعجم الأوسط، تحقيق/ طارق عوض الله محمد، وعبد المحسن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ، ج٨، ص ١٥٧، ح ٨٢٦١، الحاكم: المستدرک على الصحيحين، ج٣، ص ١٤٨، وصحح الحاكم إسناده، ووافقه الذهبي، والألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة، ج٦، ص ٤٠٦.

(٣) الترمذي: السنن، وقال: "حديث حسن صحيح"، (كتاب التفسير، باب ومن سورة الأعراف)، ج٥، ص ٢٦٧، ح ٣٠٧٦، واستدرکه الحاكم على الصحيحين، وصحح إسناده، وأقره الذهبي. المستدرک على الصحيحين، ج٣، ص ١٨٩، ح ٤١٨٤.

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن آدم قال لربه: "هَذَا ابْنُكَ داوودَ قَدْ كَتَبْتُ لَهُ عُمْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، يَا رَبِّ زِدْهُ فِي عُمْرِهِ، قَالَ: ذَاكَ الَّذِي كُتِبَ لَهُ، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَهُ مِنْ عُمْرِي سِتِّينَ سَنَةً"^(١). وعلى أيٍّ من الروايتين فإنَّ الله تعالى قد علم نسيان آدم وخطأه فأكمل له الألف سنة، فعن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً: "قَابَرَزَ اللَّهُ الْكِتَابَ، وَشَهِدَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ، وَأَكْمَلَ لآدَمَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَأَكْمَلَ لِدَاوودَ مِائَةَ سَنَةٍ"^(٢).

وعند أهل التَّوراة أنَّ آدم عاش تسعمائة وثلاثين سنة^(٣)، ورأى ابن كثير أنَّ قولهم هذا مطعون فيه مردود، إذا خالف الحقَّ الذي بأيدينا ممَّا هو المحفوظ عن المعصوم عليه السلام^(٤). والفارق بين حديث السَّنة النَّبَوِيَّة والخبر التَّوراتيَّ عن عمر آدم عليه السلام ليس كبيراً، ويمكن أن يكون التَّقويم فيهما مختلفاً؛ لأنَّ تسعمائة وثلاثين سنة شمسيَّة تساوي تسعمائة وسبع وخمسين سنة قمرية، ولا ينقصها سوى إضافة مدَّة إقامة آدم في الجنَّة التي أهبط منها، والتي ذكرها بعض العلماء بثلاثة وأربعين سنة^(٥).

(١) الترمذي: السنن، وقال: "حديث حسن غريب"، (كتاب التفسير، باب)، ج ٥، ص ٤٥٤، ح ٣٣٦٨، ابن حبان: الصحيح، ج ١٤، ص ٤١، ح ٦١٦٧. وقال الأرنؤوط: "إسناده قوي على شرط مسلم". واستدركه الحاكم على الصحيحين، وقال على شرط مسلم، وأقره الذهبي. المستدرك، ج ١، ص ١٦٢، ١٦٣، ح ٢١٤.

(٢) أبو يعلى: المسند، ج ٥، ص ١٠٠، ح ٢٧١٠، وضعف إسناده الدكتور حسين سليم أسد.

(٣) سفر التكوين، إصحاح ٥، فقرة ٥.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٩٩.

(٥) ينظر د. رشدي البدراوي: قصص الأنبياء والتاريخ، القاهرة، ١٩٩٦م، ج ١، ص ٣١.

قصة ابني آدم

تستمد المعلومات الصحيحة عن ابني آدم من القرآن الكريم الذي لم يصرح باسم أي منهما، ولكن التوراة ذكرتهما باسم "قابيل وهابيل"، فأخذ علماء المسلمين اسميهما عن التوراة.

وقد ذكر غير واحد من السلف والخلف أن الله تعالى قد شرع لآدم عليه السلام أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال، وكان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمة، وأخت قابيل وضيئة، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قربانا، فمن تقبل منه فهي له، فقربا فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل، فكان من أمرهما ما قص الله في كتابه^(١).

يقول الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لئن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لَنَفْتُلَنَّكَ مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ * مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٣٩.

النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ^(١).

وقد جاءت هذه الآيات الكريمات في أعقاب حديث طويل عن رذائل قوم موسى، الذين خالفوا نبيهم، وامتنعوا عن طاعته، وأساءوا الأدب مع نبيهم، بل مع الخالق ﷻ بقولهم لنبي الله موسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾^(٢)، لتخفف عن النبي ﷺ ما أصابه من قومه، وتبين أن الذين عصوا أنبياءهم واعتدوا عليهم، قد اقتفوا الطريق الذي سلكه قابيل في عدوانه على أخيه هابيل^(٣).

وكان جزاء ابن آدم المعتدي على أخيه أنه يتحمل من أوزار من يفعل فعلته السيئة إلى يوم القيامة، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْماً، إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها، لأنه أولٌ من سنَّ القتل"^(٤).

وقد تبين من قصة ابني آدم أن الحسد داءٌ عضال يخرج المرء من دينه، ويفضي به إلى الهلاك، ولا سيما إذا تعلّق بالنساء؛ فإن قابيل قد حسد أخاه، وعقّ لذلك أباه، ولم يرض بما قضاه الله، وباع دينه بدنياه، فحاق به ما جنت يداه، وحلّ عليه سخط مولاه.

(١) سورة المائدة: الآيات ٢٧ - ٣٢.

(٢) سورة المائدة: من الآية ٢٤.

(٣) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، ج١، ص ٤١، ٤٢.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي

الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ج٣، ص ١٢١٣، ح ٣١٥٧، مسلم: الصحيح، (كتاب القسامة والمحاربين

والقصاص والديات، باب بيان إثم من سنّ القتل)، ج٣، ص ١٣٠٣، ح ١٦٧٧.

إدريس عليه السلام

اختلف العلماء في تقديم إدريس عليه السلام على نوح أو تأخير عنه^(١)، وقد كذب الحافظ ابن كثير من زعم أن إدريس كان في زمان بني إسرائيل، ولم يكن قبل نوح^(٢)، وهذا يجعلنا لا نستطيع الجزم بالفترة التي بعث فيها، غير أن جمهور المؤرخين على تأريخه قبل نوح. ولم يرد نص في كتاب الله تعالى أو في السنة النبوية الصحيحة عن حياة إدريس عليه السلام أو القوم الذين أرسل إليهم، ولا عن كيفية دعوته، ولكن أهل الأخبار ذكروا أنه ولد ببابل من أرض العراق، وأن الله أرسله إلى أهلها، ثم هاجر إلى مصر، ودعا أهلها إلى عبادة الله ﷻ فأطاعه قوم، وأعرض عنه آخرون، واستمر في دعوته إلى الله حتى لقي ربه^(٣)، وذكروا أنه كان أول بني آدم أعطي النبوة، وخط بالقلم، وهو الذي يقال له خنوخ^(٤)، أو أخنوخ^(٥).

(١) الحاكم: المستدرک على الصحيحین، ج٣، ص١٤٨.

(٢) البداية والنهاية، ج١، ص١٠٠.

(٣) الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، ج١٦، ص١٠٥، عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ص٤٧، ٤٨، محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، ج١، ص٤٧، ٤٨.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م، ج١، ص٣٨، ٤٠، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص١٠٦، أبو عروبة الحراني: الأوائل، تحقيق/ مشعل الجبرين، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٥١، ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، ج١، ص٢٣٣، ٢٠، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق/ عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ، ج١، ص٥٠.

(٥) القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق/ عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م، ج٣، ص٣٧٧.

ويكتنف الغموض قصّة نبيّ الله إدريس عليه السلام لأنّ القرآن الكريم أجمل الحديث عنه، فذكر أنّ الله ﷻ اصطفاه للنّبوة، ورفع مكاناً عليّاً في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾^(١)، وفي موضع آخر ذكر أنّه كان صابراً ومن الصّالحين، فقال: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢).

وقد اختلفت أقوال العلماء في المكان العليّ الذي رفع إليه إدريس، فقيل: إنّ الله رفعه إلى السّماء الرّابعة، وقيل: السّادسة، وقيل: الثّانية، والصّحيح أنّه في السّماء الرّابعة كما رواه مسلم^(٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ وقيل: المراد بالمكان العليّ ما أعطيه من شرف النّبوة، وقيل: إنّهُ رفع إلى الجنّة^(٤).

وما ذكره الله ﷻ عن رفع إدريس لا يتعارض مع كون غيره من الأنبياء أرفع مكاناً منه؛ لأنّ الله لم يذكر أنّ إدريس أعلى من كلّ أحد^(٥).

(١) سورة مريم: الآيتان ٥٦، ٥٧.

(٢) سورة الأنبياء: الآيتان ٨٥، ٨٦.

(٣) الصحيح، (كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات)، ج١، ص١٤٦، ح١٦٢.

(٤) الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج٣، ص٣٣٩.

(٥) البدر العيني: عمدة القاري، مج ٨، ج١٥، ص٢٢٤.

نوح عليه السلام

مدة الزمان بين آدم ونوح عليهما السلام:

لقد ورد في السنة الصحيحة بعض الروايات عن مدة ما بين آدم ونوح عليهما السلام، فروى أبو أمامة رضي الله عنه مرفوعاً^(١): أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْبِيَا كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: "نَعَمْ، مُعَلَّمٌ مُكَلَّمٌ". قَالَ: كَمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: "عَشْرَةُ قُرُونٍ"^(٢)، وثبت عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشْرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ"^(٣)، لكن هذه الفترة لا يمكن معرفة مقدارها بالسنين؛ لاختلاف أهل اللغة في المراد بالقرن، كما

(١) الحاكم: المستدرک، ج٢، ص٣٨٠، ح٣٠٨٩، ابن حبان: الصحيح، ج١٤، ص٦٩.

(٢) القرون: جمع قرن، والقرن من الناس أهل زمان واحد، والقرن هو الوقت من الزمان؛ يقال: هو أربعون سنة، أو ثمانون سنة، أو مائة سنة؛ ويرى الأزهري: أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبي أو كان فيها طبقة من أهل العلم قُلت السنين أو كثرت. ابن منظور: لسان العرب، ج١٣، ص٣٣٤.

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية، تحقيق/ محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، ج٥، ص٢٥٧، ابن كثير: التفسير، ج٢، ص٣٧٤. ويُخرج قول ابن عباس المذكور في البداية والنهاية، ج١، ص١٠١، ١٠٥، من صحيح البخاري، وليس كذلك؛ وقد قُتشت في الصحيح كثيراً فلم أجده، كما أن المحدثين السابقين على الحافظ ابن كثير والمتأخرين عنه لم يخرجوه من صحيح البخاري ألبتة. وأمّا الباحثون المحدثون غير المتخصصين في الحديث فأكثرهم يعزو الأثر للبخاري اعتماداً على البداية والنهاية، وهذا خطأ كبير عند أهل الحديث. وفي لفظ آخر عن ابن عباس أنه قال: "كان الناس أمة واحدة على الإسلام كلهم". أبو يعلى: المسند، ج٤، ص٤٧٣، ح٢٦٠٦، الطبراني: المعجم الكبير، ج١١، ص٣٠٩، ح١١٨٣٠، وعلق عليه الهيثمي فقال: "رواه أبو يعلى والطبراني باختصار، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح". مجمع الزوائد، ج٦، ص٣٤٨، وقد صحح السيوطي إسناده عن ابن عباس. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج١، ص٥٨٢، كما وثق البوصيري رجال إسناده. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، دار الوطن، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج٦، ص٥٨، وصحح إسناده محقق مسند أبي يعلى.

أنَّ القرون العشرة ليست كلَّ الفترة التي كانت بين آدم ونوح؛ لأنَّ نوحاً عليه السلام لم يبعثه الله إلا بعد أن اجتالت الشياطين قومه، فعبدوا الأصنام والطواغيت مدة لا يعلمها إلا الله^(١)، كما يدلُّ عليه ظاهر القرآن الكريم، ويؤيِّد هذا أن ابن عباس قال: "كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشْرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، فَلَمَّا اخْتَلَفُوا بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ فَكَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً"^(٢).

▣ عبادة قوم نوح للأصنام:

يحدِّثنا القرآن الكريم بأنَّ قوم نوح كانوا يعبدون الأصنام، وذلك في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾^(٣)، فهذه خمسة من أسماء آلهتهم التي كانوا يتعبدون لها من دون الله ﷻ.

وقد روى ابن عباس كيفية انتشار الوثنيَّة في قوم نوح وعبادتهم للأصنام، فذكر أنَّ هذه الخمسة "أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ أَنْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ، ففَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أَوْلَئِكَ وَتَنَسَخَ تَقَادِمُ - الْعِلْمُ عُبِدَتْ"^(٤).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص ١٠١.

(٢) الحاكم: المستدرک، ج٣، ص ٤٩، ح ٣٤٠٥، وصححه الحاكم على شرط البخاري، وأقره الذهبي، وعلق عليه الهيثمي فقال: "رواه البزار"، وفيه عبد الصمد بن النعمان وثقه ابن معين، وقال غيره ليس بالقوى". مجمع الزوائد، ج٦، ص ٣١٨.

(٣) سورة نوح: الآية ٢٣.

(٤) الصحيح، (كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، ج٤، ص ١٨٧٣، ح ٤٦٣٦.

ويؤيد قول ابن عباس ما روته عائشة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَأَمَّ سَلْمَةُ وَأُمُّ حَبِيبَةَ لَمَّا ذَكَرْتَا لَهُ مَا رَأَتَا فِي كَنِيسَةِ الْحَبْشَةِ مِنْ تَصَاوِيرٍ جَمِيلَةٍ: "إِنَّ أَوْلَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ، أَوْلَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"^(١).

❏ بعثة نوح عليه السلام:

لَمَّا ابْتَعَدَ النَّاسُ عَنْ مَنَهِجِ اللَّهِ ﷻ وَشَرَعُوا فِي الضَّلَالَةِ وَالْكَفْرِ، وَعَبَدُوا الْأَصْنَامَ وَالطَّوَاعِيتَ، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نُوحًا بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَكَانَ أَوَّلَ رَسَلِ اللَّهِ إِلَى الْأَرْضِ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ، وَفِيهِ: أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ نُوحًا بَعْدَ آدَمَ، "فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي ﷻ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي ... الْحَدِيثُ"^(٢).

❏ دعوة نوح قومه:

لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ ﷻ نُوحًا قَامَ فِي قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَتْرَكُوا عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، وَيُفَرِّدُوا اللَّهَ

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة الحبشة)، ج ٣، ص ١٤٠٦، ح ٣٦٦٠، مسلم: الصحيح، (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها)، ج ١، ص ٣٧٥، ح ٥٢٨.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب التفسير، باب ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا)، ج ٤، ص ١٧٤٥، ١٧٤٦، ح ٤٤٣٥، مسلم: الصحيح، (كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة)، ج ١، ص ١٨٥، ح ١٩٤.

وحده بالعبادة، ويطيعوا رسوله فيما جاءهم به، ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾^(١)، كما نبههم بأنّه لا يطلب على دعوته مالا، ليخفّوا إلى إجابته، ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾^(٢).

وقد اتّبع نوح عليه السلام في دعوة قومه منهجاً رصيناً، فنوّع عليهم الدّعوة؛ لتكون أنجح فيهم، وتدرّج معهم في وسائل الإقناع، حرصاً على إخراجهم من الظلمات إلى النور، فبدأهم بالقول اللين، ورغبهم فيما عند الله، طالباً منهم أن يرجعوا عما هم عليه، ويتوبوا إلى الله من قريب، فإنّه من تاب إليه تاب عليه مهما عظمت ذنوبه في الكفر والشرك، وأعلمهم أنّهم إن تابوا إلى الله وأطاعوه زاد في رزقهم، وسقاهم من بركات السماء، وأنبت لهم الزّرع، وأدرّ لهم الضّرع، وأمدهم بالأموال والبنين، إضافة إلى الجنّات المليئة بالثمار التي تجري من تحتها الأنهار^(٣)، ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾^(٤).

وعندما أحسّ نوح عليه السلام أنّ القول اللين والدّعوة بالترغيب لا تجدي مع قومه عدل بهم إلى الدّعوة بالترهيب، فخوّفهم من عذاب الله وحذرهم نقمته، مراراً وتكراراً، ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾^(٥)، ﴿إِنِّي أَخَافُ

(١) سورة نوح: الآيتان ٢، ٣.

(٢) سورة هود: من الآية ٢٩.

(٣) ابن كثير: التفسير، ج ٤، ص ٤٢٦.

(٤) سورة نوح: الآيات ١٠ - ١٢.

(٥) سورة نوح: الآية ١٣.

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ»^(١)، «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»^(٢)، غير أن الترهيب لم يكن لهم بأجدي من الترغيب.

لم يبأس نوح من دعوة قومه إلى الله فدعاهم بعد الترهيب - إلى التفكير العقلي في الكون الشاسع الذي لم يوجد بالصدفة، ونبّههم على قدرة الله وعظمته في خلق السماوات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرّازق، جعل السماء بناء، والأرض مهاداً، وأوسع على خلقه من رزقه، ومن يقدر على هذا فهو الذي يجب أن يعبد ويوحّد دون سواه^(٣)، «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطًا * لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا»^(٤).

وبالجملة فإنّ نوحاً عليه السلام قد اجتهد في دعوة قومه بكل أنواع الدّعوة ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، في مدّة بلغت «ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً»^(٥)، فلم يزدادوا إلا عناداً وإعراضاً، كأنهم حمرٌ مستنفرة، فلم تنفعهم تذكرة.

❏ موقف قوم نوح من نبيهم وردّه عليهم:

كانت مواجهة قوم نوح لنبيهم قاسية، فقابلوا لينه بالشدة، وإحسانه بأنواع من الإساءات، ففروا منه، وأعرضوا عن سماع دعوته، استهزاء

(١) سورة هود: من الآية ٢٦.

(٢) سورة الأعراف: من الآية ٥٩.

(٣) ابن كثير: التفسير، ج٤، ص٤٢٧.

(٤) سورة نوح: الآيات ١٥ - ٢٠.

(٥) سورة العنكبوت: من الآية ١٤.

به، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾^(١)، وأنكروا بعثته إليهم، واتهموه بالضلال، ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، وكذبوه ورموه بالجنون، ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا﴾^(٣)، واتهموه بكثرة الجدل والافتراء، ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٤).

ولم يقتصر إيذاؤهم على نوح عليه السلام، بل آذوا أتباعه المؤمنين، ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾^(٥)، وعملوا على المبادعة بينه وبين أصحابه المؤمنين، ﴿قَالُوا أَنْوْمُنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾^(٦)، ولكنه كان على بيّنة من مكرهم وخداعهم، ﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٧)، فلمّا لم يفلحوا في إبعاد أصحابه، وطال مقامه بين أظهرهم يدعوهم إلى

(١) سورة نوح: الآيات ٥ - ٧.

(٢) سورة الأعراف: الآيات ٦٠ - ٦٢.

(٣) سورة القمر: من الآية ٩.

(٤) سورة هود: الآيتان ٣٢.

(٥) سورة هود: من الآية ٢٧.

(٦) سورة الشعراء: الآية ١١١.

(٧) سورة الشعراء: الآيات ١١٢ - ١١٤.

الله ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وهم مصممون على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، هددوه في آخر الأمر بالرجم^(١)، ﴿لَنْ لَمْ تَنْتَه يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾^(٢).

❏ دعوة نوح على قومه:

حصل اليأس لنوح عليه السلام من فلاح قومه عندما خوفوه بأن يقتل بالحجارة^(٣)، وتحقق ذلك عنده لما أخبره الله بإقامتهم على كفرهم، ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٤)، فعند ذلك دعا عليهم، وسأل الله أن يريحه منهم، ومن كل الكافرين على وجه الأرض، ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥)، وألح على ربه في الدعاء، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾^(٦)، فاستجاب الله ﷻ دعاءه، وأعلمه بأن قومه سيغرقون بالطوفان، فقال نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^(٧)، فأمره الله بعدم مراجعته في هلاك الظالمين، ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾^(٨)، لأن الله جل شأنه ﴿لَا يُرَدُّ

(١) ابن كثير: التفسير، جـ ٣، ص ٣٤٢.

(٢) سورة الشعراء: من الآية ١١٦.

(٣) الرازي: التفسير الكبير، جـ ٢٤، ص ١٣٤.

(٤) سورة هود: الآية ٣٦.

(٥) سورة الشعراء: الآيتان ١١٧، ١١٨.

(٦) سورة القمر: الآية ١٠.

(٧) سورة نوح: الآيتان ٢٦، ٢٧.

(٨) سورة هود: من الآية ٣٧.

بِأَسْئُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ»^(١)، ولعلّ نوحاً قد تدركه رقّة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم؛ فإنه ليس الخبر كالمعاينة^(٢).

سفينه نوح ﷺ:

لَمَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى دَعَاءَ نُوحٍ ﷺ وَأَعْلَمَهُ بِهَلَاكِ قَوْمِهِ بِالطُّوفَانِ أَمَرَهُ بِصَنْعِ سَفِينَةٍ عَظِيمَةٍ، لِيَنْجُو فِيهَا بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَحْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، وَعَلَّمَهُ كَيْفِيَّةَ صَنْعِهَا، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾^(٣).

وقام نوح بصناعة السفينة التي أمره الله بها، فجعل قومه كلّما مرّوا عليه يتضاخكون منه، ويهزءون به؛ لأنّه كان يعملها في بريّة بعيدة عن الماء^(٤)، فيعتقدون أنّه يشقي نفسه فيما لا نفع فيه ولا فائدة من ورائه^(٥)، فيجيبهم نوح: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾^(٦)، وذلك حتّى أكمل السفينة بالألواح، وأحكمها بالمسامير، وأخرجها في بناء عظيم بعون الله ورعايته، ويكفي في بيان اتّساعها ما حمل فيها من كلّ

(١) سورة الأنعام: من الآية ١٤٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٠٩.

(٣) سورة المؤمنون: من الآية ٢٧.

(٤) الزمخشري: الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق/ عبد الرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ج ٢، ص ٣٧٢.

(٥) محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء، نشر ابن الطيب، طبعة خاصة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص ٧٢.

(٦) سورة هود: الآيتان ٣٨، ٣٩.

زوجين اثنين، وفي بيان عظمتها قول الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾^(١)، ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾^(٢).

وقد أكثر المفسرون والمؤرخون من ذكر الأقوال المختلفة في طول السفينة وعرضها، وعدد طبقاتها، ومن أي شيء كان خشبها؟ وغير ذلك مما لا فائدة فيه^(٣)، وقد أضربت عن ذكره صفحاً، وتركت إيراد قصداً، اكتفاء بما قصه الله علينا في القرآن العظيم، فلو كان فيه فائدة لذكره الله تعالى في كتابه، أو بيّنه لنا النبي ﷺ في سنته.

📖 نجاة المؤمنين وهلاك الظالمين:

لما انتهى نوح من صنع السفينة وظهرت له علامة الطوفان، وفار وجه الأرض من سائر أرجائها بالماء، حمل في السفينة من كل زوجين اثنين، ثم ركب فيها مع أتباعه المؤمنين، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾^(٤)، وحلّ العقاب بالغرق على الكافرين، كما أخبر الله ﷻ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِّرَ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا﴾^(٥).

وقد غرق ابن لنوح مع الهالكين، ولما ناشد نوح ربه فيه ظناً منه أنه من أهله الناجين، عاتبه ربه، ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ

(١) سورة المؤمنون: من الآية ٢٧.

(٢) سورة هود: من الآية ٤٢.

(٣) الشنقيطي: أضواء البيان، ج ٣، ص ٢٢٦.

(٤) سورة المؤمنون: من الآية ٢٧.

(٥) سورة القمر: الآيات ١١ - ١٤.

عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ»^(١)، وإن المتأمل في القرآن الكريم يرى أن ابن نوح قد هلك بدعوات أبيه؛ لأنّ نوحاً عليه السلام لما سأل ربّه إهلاك الكافرين والظالمين لم يستثنه منهم، ولما دعا للمؤمنين لم يضمّه معهم^(٢).

ولما أغرق الله تعالى أهل الأرض جميعاً إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها، وأمر السماء أن تفلح عن المطر، فاستوت السفينة على جبل الجودي^(٣) بأمر الله، «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»^(٤)، ثم نزل نوح ومن معه على الأرض بسلام من الله وبركات.

مكان الطوفان وزمائه:

لقد اختلفت الأقوال قبل ظهور علم الآثار في المكان الذي حدث فيه الطوفان، وفي عمومته لجميع الأرض، أو انحساره في مكان معين. فقالت طائفة من الفرس والهنود: إنّ الطوفان لم يشمل جميع البلاد، وإنما وقع على أرض بابل العراقية، ونقل ابن كثير إجماع

(١) سورة هود: الآية ٤٦.

(٢) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ص ٧٥.

(٣) يذكر الجغرافيون القدامى أنّ جبل الجودي في أرض الجزيرة الفراتية التي تقع في شمال العراق، وقد عثر علماء الآثار حديثاً على جسم سفينة أثرية تحت ذلك الجبل في أراضي دولة تركيا بالقرب من حدودها مع إيران، ويتوقع بعض علماء الآثار بأنها سفينة نوح عليه السلام التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. سامي عبد الله المغلوث: أطلس تاريخ الأنبياء والرسال عليهم السلام، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة السادسة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ٨٠، ٨١.

(٤) سورة هود: الآية ٤٤.

المسلمين وأهل الكتاب على أنّ الطوفان عمّ جميع البلاد، ولم يبق الله أحداً من كفرة العباد^(١).

وأما المشتغلون بالآثار والحفر والتنقيب فينكرون عموم الطوفان لجميع البلاد، ويقولون: إنه كان بأرض العراق، وقد قاموا بعمليات تنقيبية متتالية في العراق منذ عام ١٨٥٤م، بهدف تحديد مكان حدوث الطوفان وزمانه، وتمّ في البداية الكشف عن مدينة (أور) التي كانت مزدهرة في عصر الكلدانيين، والتي ولد فيها الخليل إبراهيم عليه السلام خلال القرن العشرين قبل الميلاد، كما قامت بعثة من المتحف البريطاني وجامعة بنسلفانيا الأمريكية للتنقيب والبحث في الفترة من ١٩٢٢-١٩٣٤م، وانتهت البعثة إلى أنّ الطوفان الذي حدث أيام نوح عليه السلام كان حوالي عام ٣٤٠٠ ق. م، وأنه كان في العراق، ولم يشمل الكرة الأرضية كلها، بل كان سيلاً فياضاً طغى على وادي دجلة والفرات، وأغرق كلّ المنطقة المأهولة بين الجبال والصحراء، وأنّ هذه المنطقة كانت بالنسبة لسكانها هي الدنيا بأسرها^(٢).

والرّاجح أنّ الطوفان قد اقتصر على الأراضي العراقية التي عاش عليها قوم نوح، وذلك لأدلة كثيرة، منها^(٣):

أولاً: لم يرد في القرآن الكريم نصّ قاطع على عموم الطوفان، فلفظ "الأرض" في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ

(١) البداية والنهاية، ج١، ص ١١٨.

(٢) عادل طه يونس: حياة الأنبياء بين حقائق التاريخ والمكتشفات الأثرية، مكتبة القرآن، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٢٧، ٢٨.

(٣) رشدي البدرائي: قصص القرآن والتاريخ، ج١، ص ١١١ - ١١٦.

الكَافِرِينَ دِيَارًا»^(١)، لا يعني بالضرورة عموم الكرة الأرضية، لأن الله تعالى أطلق ذلك على مصر في نحو قوله: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ»^(٢)، وقوله: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ»^(٣)، كما أطلق لفظ "الأرض" على مكة فقط في قوله تعالى: «وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا»^(٤).

أولاً: أَنَّ الآيات القرآنية تنصّ على أَنَّ نوحاً عليه السلام بعث إلى قومه خاصة، ولم يبعث إلى الناس عامة، والحقّ تعالى يقول: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا»^(٥).

ثالثاً: أَنَّ الرَّأْيَ القَائِلَ بِأَنَّ قوم نوح هم أهل الأرض آنئذ ليس عليه دليل.

❏ عمر نوح عليه السلام:

اختلف في مقدار عمر نوح عليه السلام فقد سكّ القرآن وكذلك السنّة النبويّة عن بيان مقدار عمره، وقول الله ﷻ: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا»^(٦)، لا يدلّ على مقدار

(١) سورة نوح: الآية ٢٦.

(٢) سورة يوسف: من الآية ٢١.

(٣) سورة القصص: الآيتان ٤، ٥.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٧٦.

(٥) سورة الإسراء: من الآية ١٥.

(٦) سورة العنكبوت: من الآية ١٤.

عمره، فليس في الآية إلا أنه لبث فيهم هذه المدة، ولا شك أنه قد لبث في غيرهم قبل اللبث فيهم، وقد لبث في الأرض بعد هلاكهم بالطوفان^(١).

وأما ما ورد من أقوال تحدّد عمر نوح قبل بعثته وبعد وقوع الطوفان فلا فائدة منها؛ لأنها لا تستند إلى مصدر وثيق.

❏ أولاد نوح عليه السلام:

لقد تبين لنا من كتاب الله ﷻ أن أحد أولاد نوح قد انحاز لجانب الكافرين، ورفض دعوة أبيه لركوب السفينة، ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَانْجِبَالٍ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾^(٢)، وهذا الولد هو الذي يسمّى "كنعان" في قول أكثر المفسرين، أو "يام" كما روي عن ابن عباس^(٣).

وقد كتب الله تعالى البقاء لذرية نوح الذين نجوا معه في السفينة بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾^(٤)، ولم يجعل لأحد ممّن كان مع نوح من المؤمنين نسلًا ولا عقبًا^(٥)، وأخبر الله ﷻ نوحا عليه السلام بأن ولده سينتشرون في الأرض، وتكثر منهم القرون والأمم^(٦)، وذلك قوله: ﴿قِيلَ

(١) الشوكاني: فتح القدير، جـ٤، ص ١٩٦.

(٢) سورة هود: الآيتان ٤٢، ٤٣.

(٣) ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة،

١٤٠٤هـ، جـ٤، ص ١٠٩.

(٤) سورة الصافات: الآية ٧٧.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١، ص ١١٥.

(٦) الطبري: التفسير، جـ١٥، ص ٣٥٣.

يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ
سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١).

وقد وردت عدّة روايات في كتب السّنة النبويّة تحدّد أسماء أولاد
نوح عليه السلام، أشهرها: ما رواه سمرّة بن جندب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "وَلَدُ
نُوحٍ ثَلَاثَةٌ: سَامٌ، وَحَامٌ، وَيَافِثُ أَبُو الرُّومِ"^(٢)، وفي رواية أخرى عن
سمرّة مرفوعاً: "سَامٌ أَبُو الْعَرَبِ، وَحَامٌ أَبُو الْحَبَشِ، وَيَافِثُ أَبُو الرُّومِ"^(٣)،
وهذه الأسماء الثلاثة لأبناء نوح عليه السلام مأخوذة عن أهل الكتاب^(٤).

وقد قام اليهود بوضع بعض الفقرات في التّوراة المزيّقة لتفضيل
سام بن نوح على أخيه حام؛ ليقولوا أنّهم شعب مختار على من سواهم،
وقد انتقلت تلك الأقوال إلى المصادر الإسلاميّة، ومنها ما روي عن ابن
مسعود رضي الله عنه أنه تلا قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾^(٥)، فذكر:
"أَنَّ نُوحًا اغْتَسَلَ فَرَأَى ابْنَهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: تَنْظُرُ إِلَيَّ وَأَنَا أَغْتَسِلُ، خَارَ
اللَّهُ لَوْنُكَ"^(٦)، قال: فَاسْوَدَّ، فَهُوَ أَبُو السُّودَانِ^(٧).

(١) سورة هود: الآية ٤٨.

(٢) الحاكم: المستدرک، ج٣، ص١٤٩، ح٤٠٥٧، وهي رواية ضعيفة، لم يتصل سندها للنبي ﷺ. محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرک، ج١، ص٨١.

(٣) الترمذي: السنن، (كتاب المناقب، باب مناقب في فضل العرب)، ج٥، ص٣٦٥، ح٣٢٣١، أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٣، ص٢٩٢، ح٢٠٠٩٩. وضعف الأرنؤوط إسناده.

(٤) سفر التكوين، إصحاح ٧، فقرة ١٣، آمل ربيع: الإسرائيليات في تفسير الطبري، ص١١٠.
(٥) سورة نوح: الآية ١.

(٦) خار الله لونك: أي اختار لك. الرازي: مختار الصحاح، تحقيق/ محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ص١٩٦.

(٧) الحاكم: المستدرک، ج٣، ص١٤٩، ح٤٠٥٩. وقد تعقب الذهبي الحاكم على تصحيحه لهذه الرواية وضعفها.

ومردّ هذا الأثر إلى الإسرائيليات، فقد جاء في الباب التاسع من سفر التكوين: "فلما نظر حامُ أبو كنعان ذلك، أي عورة أبيه أنها مكتشفة أخبر إخوته خارجاً"^(١)، وفي فقرة أخرى: "فقال ملعون كنعان، فيكون عبد العبيد لإخوته"^(٢).

(١) سفر التكوين، إصحاح ٩، فقرة ٢٢.

(٢) سفر التكوين، إصحاح ٩، فقرة ٢٥.

يهود عليه السلام

تجاهل اليهود والنصارى لسيرة هود وقومه:

حرص بعض المستشرقين^(١) ومن سار على نهجهم^(٢)، وهم يعرضون تاريخ بني آدم، على تجاهل سيرة النبيين هود وصالح -عليهما السلام- واعتبروهما من التاريخ الأسطوري الذي يسبق التاريخ الحقيقي للجزيرة العربية، وهم بذلك يتبنون المنهج التوراتي اليهودي -المزيف- الذي يتجاهل سيرة النبيين الكريمين، وانطلاقاً من هذا المبدأ فقد ذهب بعض الكتاب إلى التشكيك في كون (عاد وثمود) قد وجدوا أصلاً في الجزيرة العربية، متجاهلين بذلك ما ورد عن عاد وثمود في المصادر الإسلامية، وخاصة في القرآن الكريم^(٣).

ولا شك أن إنكار هؤلاء المستشرقين لأخبار تلك الأمم والرسل الذين بعثوا فيهم يقوم على منهج معاد للإسلام، يهدف إلى تشكيك الأمة المسلمة في دينها وقرآنها^(٤).

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة، القاهرة، ١٩٦١م، جـ ٢، م ١، ٣، دائرة المعارف الإسلامية، تعريب/ إبراهيم خورشيد، وآخرين، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، جـ ١٥، ص ٤٥٢-٤٥٤، سيدو: تاريخ العرب العام، تعريب/ عادل زعيتر، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٩/١٩٦٩م، ص ٣١.

(٢) جورج زيدان: تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الهلال، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦م، ص ٧٤-٧٩، محمد مبروك نافع: تاريخ العرب، عصر ما قبل الإسلام، القاهرة، ١٩٥٢م، ص ٣٠، ٣١.

(٣) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ "جزيرة العرب"، الطبعة الأولى، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، جـ ١، ص ١٨.

(٤) المرجع السابق، جـ ١، ص ٢١.

وأمر عاد وثمود عند العرب في الشهرة في الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم عليه السلام وقومه^(١)، وفي القرآن الكريم ما يدل على أن أهل التوراة كانوا يعرفون أخبار عاد وثمود، وأن موسى عليه السلام أخبر عنهما كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِ اتَّكَفَرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾^(٢)، فالظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كانت هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً، ولا اعتنوا بحفظه، بالرغم من شهرة خبرهما في زمان موسى عليه السلام^(٣).

❏ قوم هود عليه السلام ومساكنهم:

كان هود عليه السلام من قبيلة يقال لهم عاد بن عوض بن سام بن نوح^(٤)، وقد حدّد القرآن الكريم موطن قوم هود في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾^(٥)، وهي أرض رملية ببلاد اليمن تقع بين عمان وحضرموت بأرض مطلّة على البحر يقال لها الشحر، واسم واديهام مغيث^(٦)، وتقع تلك المنطقة الآن بأرض الربع الخالي بين السعودية واليمن^(٧).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ١، ص ١٤١.

(٢) سورة إبراهيم: الآيتان ٨، ٩.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٣٢.

(٤) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٢٠.

(٥) سورة الأحقاف: من الآية ٢١.

(٦) ياقوت: معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، جـ ٥، ص ٤٤٢، ابن كثير: البداية

والنهاية، جـ ١، ص ١٢٠.

(٧) سامي عبد الله المغلوث: أطلس تاريخ الأنبياء والرسول، ص ٩٥.

وقد نقل الدكتور جواد علي^(١) عن بطليموس الجغرافي أن الأحقاف في منطقة "حسمى" بالأراضي الشماليّة الغربيّة من جزيرة العرب، بين أيلة وتيه بني إسرائيل، وهو ما يقوله الأثريّون حديثاً^(٢)، ولكن أكثر الرواة العرب على القول الأوّل^(٣)، وهو أولى بالقبول؛ لأنّ الله ﷻ خاطب العرب بقوله: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسَاكِنِهِمْ﴾^(٤)، والقرآن الكريم وهو يحدث العرب بلغتهم ويذكر لهم أخبار السّابقين الذين عاشوا في الجزيرة العربيّة، لا يخاطب بهذا الأمر أقواماً قد خلت أذهانهم عن هؤلاء السّابقين، ولكن لا بدّ وأنّه كان لديهم علم عنهم بما في ذلك مواقع إقامتهم؛ وبالتالي فإنّ ما قاله المؤرّخون العرب والجغرافيون عن مواطن هذه القبيلة العربيّة صحيح إلى حدّ كبير^(٥).

وفي المناطق اليمنيّة التي حدّتها المصادر العربيّة لمواطن العاديّين آثار مدن بائدة، وقرى جاهليّة، وكهوف ومغاور، وكتابات وصور منقوشة على الصّخور، تدلّ كلّها على أنّها كانت من المناطق المأهولة، وأنّها تركت لسبب آفات وكوارث نزلت بهذه الديار^(٦).

ولئن ساغ لنا أن نعتمد على ما روي عن سمرة بن جندب مرفوعاً إلى النّبي ﷺ أنّه قال: "سَامَ أَبُو الْعَرَبِ، وَيَافِثُ أَبُو الرُّومِ، وَحَامَ أَبُو

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م، ج١، ص٣٠١، ٣٠٥.

(٢) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم، (بلاد العرب)، ص٢٤٣ - ٢٤٩.

(٣) روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي الدرداء ؓ أنّه خطب الناس في دمشق فكان ممّا قال: "ألا إنّ عاداً ملكت ما بين عدن و عمان خيلاً وركاباً". تفسير ابن أبي حاتم، ج٩، ص٢٧٩٩، وروى الحاكم في مستدرّكه، ج٣، ص١٦٦، أنّ علياً ؓ ذكر قبر هود بحضرموت، كما ذكر وهب بن منبه أنّ هوداً كان باليمن.

(٤) سورة العنكبوت: من الآية ٣٨.

(٥) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (جزيرة العرب) ج١، ص٤٥، ٤٦.

(٦) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص٣١٢.

الْحَبَشِ"^(١)، فيكون سام قد نزع بعد الطوفان إلى جزيرة العرب "اليمن"، قادمًا ومن معه من أرض السّود والجزيرة^(٢).

❏ حضارة العاديين:

لقد ذكر الله ﷻ في قرآنه أنه زاد العاديين بسطة وقوة في الجسم حتى اغتروا بتلك النعمة، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾^(٣)، وأمدّهم كذلك ﴿بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾^(٤)، وهي مقومات الحياة المادية في كل عصر ومكان، فأتاحت لهم هذه النعم أن يشيّدوا مدينة عظيمة كانت أعظم مدن الدنيا آنذاك، وهي التي تعرف بـ ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾^(٥)، وكانوا كثيرًا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام^(٦)، كما أمعنوا في إقامة البروج المشيّدة، والمباني الضخمة ذات المعالم البارزة على الأماكن المرتفعة، أملًا في الخلود، ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾^(٧)، ممّا يدلّ على أنّ هذه الحضارة وتلك العمارة التي لم يخلق مثلها في البلاد قد فاقت حضارة مصر القديمة وبلاد العراق وغيرهما من الحضارات^(٨).

(١) الترمذي: السنن، وقال: "هذا حديث حسن"، (كتاب المناقب، باب مناقب في فضل العرب)، ج٥، ص٧٢٥، ح ٣٩٣١، أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٣، ص٢٩٢، ح ٢٠٠٩٩، وضعفه محققو المسند.

(٢) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (جزيرة العرب)، ج١، ص٢٤.

(٣) سورة فصلت: من الآية ١٥.

(٤) سورة الشعراء: الآيتان ١٣٣، ١٣٤.

(٥) سورة الفجر: الآيتان ٧، ٨.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص١٢٠.

(٧) سورة الشعراء: الآيتان ١٢٨، ١٢٩.

(٨) محمد متولي الشعراوي: قصص الأنبياء، ج١، ص٣٨٩.

ولقد اندثرت حضارة العاديين، ولم يعثر لها على أثر، لأنهم استكبروا بها في الأرض بغير الحق، وتعاضموا على الناس، ونازعوا بذلك صفات الألوهية^(١)، وقد حدث مثل ذلك لصرح فرعون مصر الذي أراد أن يطلع به إلى رب العالمين، وذلك بخلاف "الأهرامات" التي تشير إلى إيمان أصحابها بالبعث بعد الموت، وإن كانت عقيدتهم محرّفة.

❏ عبادة قوم هود عليه السلام:

أقام العاديون أحفاد سام بن نوح على الإسلام مدة لا يعلمها إلا الله، وظلّوا على ذلك حتى اجتالتهم الشياطين عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، فاستجابوا لاستغواء الشياطين، وبدّلوا نعمة الله كفراً، فكانوا أوّل من عبد الأصنام بعد الطوفان^(٢).

وقد أشار القرآن الكريم إلى عبادة العاديين للأصنام على لسان نبيهم هود عليه السلام إذ يقول لهم: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾^(٣)، ومن الأصنام التي عبدها العاديون وقربوا لها القرابين، وذكرها الرواة: صداء، وصمود، والهباء، والهتار^(٤).

❏ دعوة هود لقومه ومنهجه في الدعوة:

لمّا بعث الله هوداً إلى قومه دعاهم إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، واتّبع معهم أسلوباً لطيفاً في دعوته لهم فبدأهم بالترغيب، ﴿يَا

(١) محمد متولي الشعراوي: قصص الأنبياء، جـ ١، ص ٣٩٣.

(٢) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (جزيرة العرب)، جـ ١، ص ٢٤.

(٣) سورة الأعراف: من الآية ٧١.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ١، ص ١٣٧، ابن أبي حاتم: التفسير، جـ ٥، ص ١٥٠٨.

قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ»^(١)، «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا»^(٢)، وذكرهم بالنعم التي غمرهم الله بها، «وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ»^(٣)، وطلب منهم أن يستغفروا الله ويتوبوا إليه ليزيدهم من النعم التي وهبها لهم، «وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ»^(٤)، كما أخبرهم بأنه لا يطلب منهم أجراً على دعوته لهم، «يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ»^(٥).

ولم ينس هود أن يرشدهم إلى الخير في السلوك والمعاملات، فحذّره من عاقبة قطع الطرق، والعبث بالمارة والسطو عليهم، والتفاجر بأبنيتهم على الناس، والبطش بهم^(٦)، «اتَّبِعُونِ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا»^(٧).

ثم انتقل بهم إلى الترهيب والإنذار، فخوّفهم من عذاب الله ونقمته إن خالفوا أمره، «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

(١) سورة الأعراف: من الآية ٦٥.

(٢) سورة الشعراء: الآيتان ١٢٥، ١٢٦.

(٣) سورة الشعراء: الآيات ١٣٢ - ١٣٤.

(٤) سورة هود: الآية ٥٢.

(٥) سورة هود: الآية ٥١.

(٦) البغوي: التفسير، ج ٣، ص ٣٩٤، أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،

دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، ج ٦، ص ٢٥٧.

(٧) سورة الشعراء: الآيات ١٢٨ - ١٣١.

عَظِيمٌ»^(١)، ونوّه لهم بذكر ما حدث لقوم نوح فاستبدلهم الله بهم، وحذّرهم من التّولي عنه مجرمين، «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ»^(٢)، غير أنّ دعوة هود عليه السلام لم تجد من قومه وخاصة الملائ منهم - آذانا صاغية، ولم يعتبروا بمآل قوم نوح قبلهم، فلم يؤمن معه إلا قليل، كما يفهم من القرآن العظيم.

❏ موقف قوم هود من دعوته وردة عليهم:

لما أعلم هود قومه بأنّ الله ﷻ أرسله إليهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور، رموه بالسّفاهة، واتّهموه بالكذب، «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ»^(٣)، فردّ عليهم زعمهم وكذب ظنّهم، «قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ»^(٤)، فتعجّب قوم هود من إرسال واحد منهم إليهم كما هي عادة المكذّبين الجاحدين، «أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ»^(٥)، ولكنهم تماردوا في غيهم، و«قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ»^(٦)،

(١) سورة الأحقاف: من الآية ٢١.

(٢) سورة هود: الآية ٥٧.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٦٦.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٦٧، ٦٨.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٦٩.

(٦) سورة هود: من الآية ٥٣.

وزعموا أَنَّ آلِهَتَهُمْ تَنْفَعُ وَتَضُرُّ، وَأَنَّهَا أَصَابَتْ هُودًا بِالْجَنُونِ، ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾^(١).

وعندما رأوا نبيَّهم لا ينتهي عن دعوتهم قالوا له: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾^(٢)، وظنَّوا أَنَّ قُوَّتَهُمْ سَتَمْنَعُهُمْ مِنْ وَقُوعِ الْعَذَابِ بِهِمْ، وراحوا يرددون: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾^(٣)، بل وصل بهم حدَّ الغرور والاستكبار أن قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾^(٤)، ثمَّ استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم لوقوعه^(٥)، بقولهم لنبيَّهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٦)، فاجتمع عليهم مع استعجالهم العذاب، جحودهم بآيات ربِّهم، وعصيانهم لرسله، واتِّباعهم لأمر كلِّ جَبَّارٍ عنيد، واستكبارهم في الأرض بغير الحقِّ، فاستدرجهم الله من حيث لا يعلمون.

❏ هلاك عادٍ قوم هود:

كان ابتداء عقاب الله ﷻ لعاد أن حبس عنهم المطر حتَّى اشتدَّ عليهم الجهد والبلاء^(٧)، فكانوا يتطلَّعون إلى السَّماء عسى أن يغيثوا بمطر في يوم من الأيام، فجعل الله عذابهم فيما ينتظرون، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمְطِرُنَا﴾^(٨)، واستبشروا به، فلم يكن ما توقعوه، وأرسل الله عليهم ﴿الرَّيْحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ

(١) سورة هود: من الآية ٥٤.

(٢) سورة الشعراء: الآية ١٣٦.

(٣) سورة الشعراء: الآية ١٣٨.

(٤) سورة فصلت: من الآية ١٥.

(٥) ابن كثير: التفسير، جـ ٤، ص ١٦١.

(٦) سورة الأحقاف: من الآية ٢٢.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٢٦.

(٨) سورة الأحقاف: من الآية ٢٤.

عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتُهُ كَالرَّمِيمِ^(١) وهي الدبور التي ذكرها النبي ﷺ بقوله: «تُصِرْتُ بِالصَّبَا^(٢) وَأُهْلِكْتُ عَادًا بِالدَّبُورِ»^(٣)، فسَلَطَهَا اللهُ عَلَيْهِمْ «سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا»^(٤)، حَتَّى دَمَرْتَهُمْ بِأَمْرِ اللهِ، وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ آيَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، «فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ»^(٥)، وَغَدَت قَرِيَّتُهُمْ مِنَ الْقُرَى الْهَالِكَةِ الَّتِي خَوَتْ عَلَى عُرُوشِهَا، وَتَعَطَّلَتْ آبَارُهَا، وَخَرِبَتْ قُصُورُهَا، كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ: «فَكَأَيُّ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبُئِرَ مُعِطَّةُ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ»^(٦). وَعَلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ كَانَتْ النِّجَاةُ لِهَوْدٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ»^(٧).

📖 الزمن التقريبي لحضارة عاد:

يُبَيِّنُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الزَّمْنَ التَّقْرِيبِيَّ الَّذِي قَامَتْ فِيهِ حَضَارَةُ الْعَادِيِّينَ بِقَوْلِهِ: «أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاتَذَكَّرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ

(١) سورة الذاريات: الآيتان ٤١، ٤٢.

(٢) الصَّبَا: الريح الشرقية، والدبور هي الريح الغربية. ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٤٠٢.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: «وَأَلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا»)، ج٣،

١٢١٩، ح٣١٦٥، مسلم الصحيح، (كتاب صلاة الاستسقاء، باب في رِيحِ الصَّبَا وَالدَّبُورِ)،

ج٢، ص٦١٧، ح٩٠٠.

(٤) سورة الحاقة: من الآية ٧.

(٥) سورة الأحقاف: الآية ٢٥.

(٦) سورة الحج: الآية ٤٥.

(٧) سورة هود: الآية ٥٨.

بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»^(١)، فعاد هم الجيل الذي استخلفه الله ﷻ بعد جيل نوح الذي نجّاه الله من الطّوفان^(٢)، وإذا كانت بعثات التّنقيب البريطانيّة والأمريكيّة في العراق خلال سنتيّ ١٩٢٢ - ١٩٣٤م قد أرّخت الطّوفان الذي حدث أيّام نوح ﷺ بنحو عام ٣٤٠٠ ق. م^(٣)، فإنّ عادةً تكون قد عاشت بعد هذا التاريخ.

كما يقدّم القرآن قرينة أخرى تؤكّد أنّ عادةً كانوا يعيشون في عصر سابق لموسى ﷺ ويتّضح ذلك من قول الله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون وهو يعظ قومه مذكراً لهم بأخبار السّابقين: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾^(٤)، وإذا كان المشتغلون بعلم الآثار قد حدّدوا القرن الثالث عشر تاريخاً لخروج موسى ﷺ وقومه من مصر^(٥)، فنستطيع أن نضع لعاد تاريخاً افتراضياً بين القرنين الرّابع والثلاثين والثالث عشر قبل الميلاد.

ونتيجة لهذه القرائن فقد افترض أحد الباحثين^(٦) أنّ حضارة معين التي ظهرت خلال هذه الحقبة الزّمنيّة قامت على أكتاف العاديّين؛ وذلك لاشتراك الشّعبيين في المنطقة الجغرافيّة الواقعة بين نجران وحضرموت،

(١) سورة الأعراف: الآية ٦٩.

(٢) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (جزيرة العرب) جـ ١، ص ٣٢.

(٣) عادل طه يونس: حياة الأنبياء بين حقائق التاريخ والمكتشفات الأثرية، ص ٢٧، ٢٨.

(٤) سورة غافر: الآيتان ٣٠، ٣١.

(٥) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل (الجزء الأول) التاريخ منذ عصر إبراهيم وحتى عصر

موسى عليهما السلام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ص ٧٨.

(٦) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (جزيرة العرب)، جـ ١، ص ٣٣.

واتفاق الروايتين اليونانية والإسلامية على هجرة العاديين من العراق إلى جنوب الجزيرة العربية بعد الطوفان.

❏ قبر هود عليه السلام:

اختلفت الروايات في تحديد قبر هود عليه السلام، فروى الحاكم عن بعض الصحابة والتابعين أن قبره بمكة، أو بلاد اليمن^(١)، وكلتا الروايتين لا تقوم بهما الحجة من الناحية الحديثية؛ لضعفهما، وعدم أخذهما عن النبي ﷺ^(٢)، كما ورد أنه بجامع دمشق في حائطه القبلي^(٣)، ولكنه بعيد أيضاً، ومجرد زعم، لأن مثل هذه الروايات التي تمجد الجامع الأموي، وتقبر فيه عدداً من الأنبياء، قد ظهرت في الوقت الذي تحصن فيه عبد الله بن الزبير بمكة، وتحزب أهل الحجاز على الأمويين^(٤).
وكون قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن أقرب إلى المعقول؛ لأنهم يجاورون الأحقاف التي هي مساكن سيدنا هود وقومه^(٥).

(١) المستدرک علی الصحیحین، ج ٣، ص ١٦٦.

(٢) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرک، ج ١، ص ٨٨، ٨٩.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٣٠.

(٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٣١٣.

(٥) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ص ٨٥.

صالح عليه السلام

❏ قوم صالح عليه السلام:

هم قبيلة ثمود العربية التي يرجع نسبها إلى سام بن نوح^(١)، والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم مع نبي الله صالح عليه السلام مرّات متعددة، وهم في الأصل من سلالة المسلمين العاديين الذين نجوا مع نبي الله هود عليه السلام^(٢)، وقد كانت أخبارهم معروفة عند العرب قبل البعثة المحمّدية، ولذلك ذكرها شعراء الجاهلية، ومن يظنّ أنّ الجاهليين لم يكونوا يعرفون عاداً أو ثمود فإنّه على وهم وخطأ^(٣).

❏ مساكن ثمود:

تكاد المصادر العربية^(٤) تجمع على أنّ مساكن ثمود التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾^(٥)، تقع بالقرب من وادي القرى بين الحجاز والشّام^(٦)، وذلك

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص١٢٦.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص١٣٣، جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (جزيرة العرب)، ج١، ص٣٨.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص١٤١.

(٤) الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق/ محمد جابر عبد العال الحيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٢٤، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص١٢٦، ابن الجوزي: زاد المسير، ج٤، ص٤١١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١، ص٦٢، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، ج٢، ص٩، ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٢٢١.

(٥) سورة الحجر: الآية ٨٠.

(٦) محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ، ص١٤٦.

لتحديد النبي ﷺ ذلك المكان لأصحابه أثناء مسيره إلى غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة، فقد روى عبد الله بن عمر "أَنَّ النَّاسَ نَزَلُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْضَ ثَمُودَ الْحَجَرِ، فَاسْتَقَوْا مِنْ بئرِهَا، وَاعْتَجَنُوا بِهِ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُهَرِّقُوا مَا اسْتَقَوْا مِنْ بئرِهَا، وَأَنْ يَعْلِفُوا الْإِبِلَ الْعَجِينَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنَ الْبئرِ الَّتِي كَانَتْ تَرِدُهَا النَّاقَةُ"^(١)، وقال: "لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، ثُمَّ تَقْنَعَ بِرِدَائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحْلِ"^(٢).

وقد ظلَّ الرِّحَالَةُ العرب يَمْرُونَ بِأَرْضِ ثَمُودَ ويصفونها في كتبهم حتَّى القرن الرابع الهجريّ، فقد ذكر المسعودي: (ت: ٣٤٦هـ/٩٥٧م) أَنَّ رَمَمَهُمْ بَقِيَتْ إِلَى أَيَّامِهِ، وَوَصَفَ بِيوتَهُمْ بِأَنَّهَا أُنْبِيَةٌ مَنْحُوتَةٌ فِي الصَّخَرِ بِأَبْوَابِ صِغَارٍ، عَلَى قَدَرِ مَسَاكِينِ أَهْلِ عَصْرِهِ، وَذَلِكَ فِي طَرِيقِ الْحَاجِّ لِمَنْ وَرَدَ مِنَ الشَّامِ بِالْقَرَبِ مِنْ وَادِي الْقَرْيِ، وَاسْتَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ أَجْسَامَهُمْ كَانَتْ عَلَى قَدَرِ أَجْسَامِ أَهْلِ زَمَانِهِ"^(٣).

والدراسات الحديثة تثبت أَنَّ الثَّمُودِيِّينَ قَدْ عَاشُوا فِي شَمَالِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْذُ أَعْمَاقِ التَّارِيخِ، وَتَرَكُوا آثَارًا وَنُقُوشًا فِي الْأَرْضِ

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (وَالْيَ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا))، ج—٣، ص ١٢٣٧، ح ٣٢٠٠، مسلم: الصحيح، (كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين)، ج—٤، ص ١٢٨٦، ح ٢٩٨٠.

(٢) البخاري: الصحيح، ج—٣، ص ١٢٣٧، ح ٣٢٠١، مسلم: الصحيح، ج—٤، ص ١٢٨٦، ح ٢٩٨٠.

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، ج—١، ص ٣١٥.

التي تمتد من الجوف شمالاً إلى الطائف جنوباً، ومن الإحساء شرقاً إلى يثرب وأرض مدين غرباً، ومن المسالك المؤدية إلى العقبة والأردن وسورية، وحتى في أرض حضرموت من جنوب الجزيرة، وإن ذلك لدليل على أن التموديين كانوا يوماً ما السكان الأصليين لشمال شبه الجزيرة العربية^(١).

❏ عصر ثمود:

يظن أحد أساتذة التاريخ القديم أن بداية التموديين ترجع إلى القرن العاشر ق. م^(٢)، وهذا ظن بعيد؛ لأنه من المؤكد أن رسالة صالح عليه السلام قد وقعت قبل عصر موسى عليه السلام - قبل القرن الثالث عشر ق. م - ويؤكد ذلك القرآن الكريم في قول الله تعالى على لسان نبيه موسى وهو يعظ فرعون والملا من قومه مذكراً لهم بتاريخ الأمم السابقة، ومنهم: ثمود قوم صالح^(٣): ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾^(٤).

(١) محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ص ١٤٦.

(٢) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٥م، ص ٢٨١.

(٣) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (جزيرة العرب)، ج ١، ص ٤٤.

(٤) سورة إبراهيم: الآيتان ٨، ٩.

❏ حضارة ثمود:

لقد عاش الثموديون في سعة من العيش^(١)، ويظهر من كتاباتهم التي عثر عليها أنّ غالبيتهم كانوا يعملون بالزراعة ويربّون الماشية، ومنهم قوم اشتغلوا بالتجارة، وأنهم كانوا أقرب إلى الحضرة، منهم إلى البدو^(٢)، ويؤكد القرآن الكريم استقرارهم في مستوطنات ثابتة على الحياة الزراعية بقوله: «أَتَرْكُونَ فِي مَا هَذَا آمِنِينَ * فِي جَنَاتٍ وَعَيُْونِ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ»^(٣)، وقد ساعدتهم هذه الحياة المستقرة على التّقدم في الناحية العمرانية، فشيّدوا القصور في الأراضي السهلة، ونحتوا البيوت في الجبال المحيطة بهم، وكلّ هذا يدلّ على وضوح معالم حضارتهم في النواحي الزراعية والتجارية والعمرانية، وقد أجمل الله ﷻ حضارة ثمود فيما ذكره على لسان نبيهم: «وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ»^(٤).

❏ حالة ثمود الدينية عند بعثة صالح عليه السلام:

بالرغم من النعم الكثيرة التي صبّها الله على الثموديين، فإنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر، واجتالتهم الشياطين مع مضي الوقت، فبدّلوا نعمة الله كفرًا، وعبدوا أصنامًا آلهة من دون الله^(٥)، أمثال: "وَدَّ"، و"عبد جدّ"،

(١) الحاكم: المستدرک، ج٣، ص١٦٨، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١، ص٦٨.

(٢) جواد على: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص٣٣٠.

(٣) سورة الشعراء: الآيات ١٤٦ - ١٤٩.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٧٤.

(٥) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (جزيرة العرب)، ج١، ص٣٨.

و"شمس"، و"مناف"، و"مناة"، و"كاهل"، و"بعلة"، وغيرها^(١)، وعاثوا في أرض الله بأشدّ الفساد^(٢)، فبعث الله إليهم صالحاً نبياً ورسولاً، من أوسطهم نسباً، وأفضلهم موضعاً^(٣).

❏ دعوة صالح قومه وردهم عليه:

كغيره من الرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله إلى الكفار والمفسدين، ابتدأ صالح عليه السلام دعوته لقومه باللين، فدعاهم لعبادة الله ﷻ والرجوع إليه، لأنه صاحب الفضل والنعم عليهم، ومن تاب إليه أجابه من قريب، يقول تعالى: ﴿وَالْيَ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾^(٤)، وأخذ صالح عليه السلام يذكرهم بنعم الله عليهم، ويلمح لهم بما حدث لقوم عاد عندما ابتعدوا عن منهج ربهم، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٥).

كان موقف ثمود مختلفاً نسبياً عن قوم نوح وقوم هود، فلم يجتمعوا على تكذيب بنيهم، وإنما انقسموا إلى فريقين، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾^(٦)، فقد

(١) جواد على: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص ٣٣١.

(٢) البغوي: التفسير، ج٢، ص ١٧٤.

(٣) الحاكم: المستدرک، ج٣، ص ١٦٧.

(٤) سورة هود: الآية ٦١.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٧٤.

(٦) سورة النمل: الآية ٤٥.

كذبه الملائكة المستكبرون، وكفروا بما جاء به، وصدقته المستضعفون، وآمنوا بما جاءهم به^(١)، وقد بين القرآن انقسامهم وخصومتهم في الدين، ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسِلٌ مِّنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(٢).

وأصر الملائكة على كفرهم وكبرهم، وأنكروا أن يبعث الله إليهم بشراً رسولاً، وقالوا: ﴿أَوَلَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾^(٣)، واتهموه بالسحر، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾^(٤)، وطالبوا صالحاً بآية معينة؛ ليظهروا عجزه أمام أتباعه، فأرسلها الله إليهم، ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾^(٥)، فقال لهم: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لِّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٦)، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى، وطالبوه بنزول العذاب الذي وعدهم به، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٧)، فاتهموه ومن آمن به بأنهم وجه شؤم عليهم، ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾^(٨).

(١) الطبري: التفسير، ج ١٩، ص ١٧٠.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان ٧٥، ٧٦.

(٣) سورة القمر: الآية ٢٥.

(٤) سورة الشعراء: الآية ١٥٣.

(٥) سورة القمر: الآيتان ٢٧، ٢٨.

(٦) سورة الشعراء: الآيتان ١٥٥، ١٥٦.

(٧) سورة النمل: الآية ٤٦.

(٨) سورة النمل: الآية ٤٧.

❏ هلاك المكذبين من قوم صالح:

لَمَّا وَجَدَ الْمَلَأُ الْمَكْذِبُونَ أَنَّهُمْ قَدْ انْهَزَمُوا أَمَامَ نَبِيِّ اللَّهِ صَالِحٍ وَاتَّبَاعِهِ، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا مَقَارَعَتَهُمْ بِالْحِجَّةِ، انْفَقَوْا عَلَى قَتْلِ النَّاقَةِ، وَانْتَدَبُوا لَذَلِكَ أَشْقَاهُمْ، ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾^(١)، فَأَعْلَمَهُمْ نَبِيُّهُمْ أَنَّ الْعَذَابَ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مُحَالَةَ، ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَذْ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾^(٢)، فَتَأَمَّرُوا عَلَى قَتْلِ نَبِيِّهِمْ، فَعَاجَلَهُمُ اللَّهُ ﷻ بِالْعُقُوبَةِ، ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾^(٣).

وَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَجْرَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ قَامَ فَخْطَبَ النَّاسَ فَقَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَسْأَلُوا نَبِيَّكُمْ عَنِ الْآيَاتِ، فَهَؤُلَاءِ قَوْمٌ صَالِحٌ سَأَلُوا نَبِيَّهُمْ أَنْ يَبْعَثَ لَهُمْ آيَةً، فَبَعَثَ اللَّهُ لَهُمُ النَّاقَةَ، فَكَانَتْ تَرُدُّ مِنْ هَذَا الْفَجِّ فَتَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمَ وَرِدِهَا، وَيَشْرَبُونَ مِنْ لَبَنِهَا، مِثْلَ مَا كَانُوا يَتَرَوُونَ مِنْ مَائِهِمْ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَعَقَرُوهَا، فَوَعَدَهُمُ اللَّهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَكَانَ مَوْعِدًا مِنَ اللَّهِ غَيْرَ مَكْذُوبٍ، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ الصَّيْحَةُ فَأَهْلَكَ اللَّهُ مَنْ كَانَ تَحْتَ مَشَارِقِ السَّمَاوَاتِ وَمَغَارِبِهَا، مِنْهُمْ إِلَّا رَجُلًا كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ، فَمَنَعَهُ حَرَمُ اللَّهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ". قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هُوَ؟ قَالَ: "أَبُو رِغَالٍ"^(٤).

(١) سورة القمر: الآية ٢٩.

(٢) سورة هود: من الآية ٦٥.

(٣) سورة القمر: من الآية ٣١.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢٢، ص ٦٦، ح ١٤١٦٠؛ وقال محققو المسند: "إسناده قوي"، واستدركه الحاكم على الصحيحين، وصحح إسناده، وأقره الذهبي. المستدرك، جـ ٢، ص ٤٥٢، ح ٣٣٥٤، وعلق عليه الهيثمي فقال: "رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح". مجمع الزوائد، جـ ٦، ص ١٩٤.

وقد روى الحاكم حديثاً طويلاً جامعاً لذكر هلاك ثمود عن عمرو ابن خارجة رضي الله عنه مرفوعاً، ونصّه^(١): "كَانَتْ ثَمُودُ قَوْمٌ صَالِحٌ أَعْمَرَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا، فَطَالَ أَعْمَارُهُمْ، حَتَّى جَعَلَ أَحَدُهُمْ يَبْنِي الْمَسْكَنَ مِنَ الْمَدَرِ^(٢) فَيَنْهَدِمُ وَالرَّجُلُ مِنْهُمْ حَيٌّ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ اتَّخَذُوا مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَاهِينَ، فَنَحْتُوهَا وَجَابُوهَا^(٣)، وَجَوَّفُوهَا^(٤)، وَكَانُوا فِي سَعَةٍ مِنْ مَعَائِشِهِمْ، فَقَالُوا: يَا صَالِحُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ لِيُخْرِجَ لَنَا آيَةً نَعْلَمَ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَدَعَا صَالِحٌ رَبَّهُ، فَأَخْرَجَ لَهُمُ النَّاقَةَ، وَكَانَ شَرِبُهَا^(٥) يَوْمًا، وَشَرِبُهُمْ يَوْمًا مَعْلُومًا، فَإِذَا كَانَ يَوْمٌ شَرِبَهَا خَلُّوا عَنْهَا، وَعَنِ الْمَاءِ وَحَلَبُوا عَنْهَا الْمَاءَ، فَمَلَّئُوا كُلُّ إِنَاءٍ وَوِعَاءٍ وَسِقَاءٍ، فَأَلَوْحَى اللَّهُ إِلَى صَالِحٍ أَنَّ قَوْمَكَ سَيَعْقِرُونَ نَاقَتَكَ، فَقَالَ لَهُمْ، فَقَالُوا: مَا كُنَّا لِنَفْعَلَ. قَالَ: "إِنْ لَمْ تَعْقِرُوهَا أَنْتُمْ يُوشِكُ أَنْ يُوَلَدَ فِيكُمْ

(١) المستدرک علی الصحیحین، ج ٣، ص ١٦٨ - ١٧٠، ح ٤١٢٠، وقال الحاكم: "هذا حديث جامع لذكر هلاك ثمود، تفرد به شهر بن حوشب، وليس له إسناد غير هذا، ولم يستغن عن إخراج، وله شاهد على سبيل الاختصار بإسناد صحيح دل على صحة الحديث الطويل على شرط مسلم"، وقد خالف الذهبي كلام الحاكم فضعف الحديث في تلخيصه على المستدرک، وقد أورد الحافظ ابن كثير هذه الرواية باختصار، وعلق عليها بقوله: "في بعض هذا السياق نظر ومخالفة لظاهر ما يفهم من القرآن في شأنهم وقصتهم". البداية والنهاية، ج ١، ص ١٣٩. والحديث يصلح للقصص التاريخي، ويستأنس به في فهم القصة القرآنية، وليس فيه شيء يتعلق بالعقيدة والأحكام.

(٢) المدر: الطين اليابس المتماسك. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، تحقيق/ طاهر أحمد الزاوي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٩٩م، ج ٤، ص ٨٥.

(٣) جابوها: جاب خرق وقطع. الرازي: مختار الصحاح، ص ٤٩.

(٤) جوفوها: يقال شيء مجوف أي له جوف وفيه تجويف. المصدر السابق، ص ٥٠.

(٥) شرب: الشرب هو الماء، ويأتي بالوجه الثلاثة، شرب بالفتح، وشرب بالكسر، وشرب بالضم. ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٤٨٧.

مَوْلُودٌ يَعْقُرُهَا"، قالوا: مَا عَلَامَةُ ذَلِكَ الْمَوْلُودِ، فَوَاللَّهِ لَا نَجِدُهُ إِلَّا قَتَلْنَاهُ، قَالَ: "فَإِنَّهُ غُلَامٌ أَشْقَرٌ أَزْرَقُ أَصْهَبٌ"^(١).

قال: وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَيْخَانِ عَزِيزَانِ مَبِيعَانِ لِأَحَدِهِمَا ابْنٌ يَرِغَبُ عَنِ الْمَنَاجِحِ، وَلِلْآخَرِ ابْنَةٌ لَا يَجِدُ لَهَا كُفُوءًا، فَجَمَعَ بَيْنَهُمَا مَجْلِسٌ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَزُوجَ ابْنَكَ؟ قَالَ: لَا أَجِدُ لَهُ كُفُوءًا، قَالَ: فَإِنَّ ابْنَتِي كُفَاءٌ لَهُ، وَأَنَا أَزُوجُ ابْنَكَ، فَزَوَّجَهُ، فَوُلِدَ بَيْنَهُمَا ذَلِكَ الْمَوْلُودُ، وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ثَمَانِيَةَ رَهْطٍ^(٢) يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ، قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ: "إِنَّمَا يَعْقُرُهَا مَوْلُودٌ فِيكُمْ، فَاخْتَارُوا ثَمَانِيَةَ نِسْوَةٍ قَوَائِلَ مِنَ الْقَرْيَةِ وَجَعَلُوا مَعَهُمْ شَرْطًا، فَكَانُوا يَطُوفُونَ فِي الْقَرْيَةِ، فَإِذَا وَجَدُوا امْرَأَةً تُمَخَضُ^(٣) نَظَرُوا مَا وَلَدَهَا، فَإِنْ كَانَ غُلَامًا فَلَبِثُوا يَنْظُرُونَ مَا هُوَ، وَإِنْ كَانَتْ جَارِيَةً اعْرَضُوا عَنْهَا، فَلَمَّا وَجَدُوا ذَلِكَ الْمَوْلُودَ صَرَخْنَ النِّسْوَةُ، قُلْنَ: هَذَا الَّذِي يُرِيدُ رَسُولُ اللَّهِ صَالِحٌ، فَأَرَادَ الشَّرْطُ أَنْ يَأْخُذُوهُ فَحَالَ جَدَاهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، وَقَالُوا: إِنْ كَانَ صَالِحٌ أَرَادَ هَذَا قَتْلَنَا وَكَانَ شَرًّا مَوْلُودٌ، وَكَانَ يَشِبُّ فِي الْيَوْمِ شَبَابَ غَيْرِهِ فِي الْجُمُعَةِ، وَيَشِبُّ فِي الْجُمُعَةِ شَبَابَ غَيْرِهِ فِي الشَّهْرِ، وَيَشِبُّ فِي الشَّهْرِ شَبَابَ غَيْرِهِ فِي السَّنَةِ، فَاجْتَمَعَ الثَّمَانِيَةُ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ وَالشَّيْخَانِ، فَقَالُوا: نَسْتَعْمِلُ عَلَيْنَا هَذَا الْغُلَامَ لِمَنْزِلَتِهِ وَشَرَفِ جَدِّيهِ، فَكَانُوا تِسْعَةً، وَكَانَ صَالِحٌ لَا يَنَامُ مَعَهُمْ فِي الْقَرْيَةِ، بَلْ كَانَ فِي الْبَرِيَّةِ فِي مَسْجِدٍ يُقَالُ لَهُ: مَسْجِدُ صَالِحٍ، فِيهِ يَبِيتُ

(١) أصهب: الشعر الذي يخالط بياضه حمرة. ابن منظور: لسان العرب، جـ ١، ص ٥٣٢.

(٢) رهط: رهط الرجل قومه وقبيلته. والرهط: ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة.

الرازي: مختار الصحاح، ص ١٠٩.

(٣) تمخض: تلد. ابن منظور: لسان العرب، جـ ٧، ص ٢٢٨.

بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ أَتَاهُمْ فَوْعَظُهُمْ وَذَكَرَهُمْ، وَإِذَا أَمْسَى خَرَجَ فِيهِ بَيْتٌ بِاللَّيْلِ فَبَاتَ فِيهِ.

قال رسول الله ﷺ: وَلَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَمْكُرُوا بِصَالِحٍ مَشَوْا حَتَّى أَتَوْا عَلَى شَرْبٍ عَلَى طَرِيقِ صَالِحٍ، فَاخْتَبَأَ فِيهِ ثَمَانِيَةٌ: وَقَالُوا: إِذَا خَرَجَ عَلَيْنَا قَتَلْنَاهُ، وَأَتَيْنَا أَهْلَهُ فَبَيَّتْنَاهُمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَاسْتَوَتْ عَلَيْهِمْ، فَاجْتَمَعُوا، وَمَشَوْا إِلَى النَّاقَةِ وَهِيَ عَلَى حَوْضِهَا قَائِمَةٌ، فَقَالَ الشَّقِيُّ لِأَحَدِهِمْ: انْتَهَا فَاعْقِرْهَا، فَاتَّاهَا فَتَعَاطَمَهُ ذَلِكَ، فَأَضْرَبَ عَنْ ذَلِكَ، فَبَعَثَ آخَرَ، فَأَعْظَمَ ذَلِكَ، فَجَعَلَ لَا يَبْعَثُ رَجُلًا إِلَّا يُعَاطِمُهُ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهَا، حَتَّى مَشَى إِلَيْهَا وَتَطَاوَلَ فَضْرَبَ عُرْقُوبَهَا^(١)، فَوَقَعَتْ تَرْكُضُ^(٢)، فَاتَى رَجُلٌ مِنْهُمْ صَالِحًا فَقَالَ: أَدْرِكِ النَّاقَةَ فَقَدْ عُقِرَتْ، فَأَقْبَلَ، وَخَرَجُوا يَتَلَقَّوْنَهُ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ: إِنَّمَا عَقَرَهَا فَلَنْ لَا ذَنْبَ لَنَا، قَالَ: انظُرُوا هَلْ تُدْرِكُونَ فَصِيلَهَا^(٣)، فَإِنْ أَدْرَكْتُمُوهُ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَ عَنْكُمْ الْعَذَابَ، فَخَرَجُوا يَطْلُبُونَهُ، وَلَمَّا رَأَى الْفَصِيلُ أُمَّهُ تَضْطَرِبُ أَتَى جَبَلًا يُقَالُ لَهُ الْغَارَةُ قَصِيرًا، فَصَعِدَ، وَذَهَبُوا يَأْخُذُوهُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْجَبَلِ فَطَارَ فِي السَّمَاءِ حَتَّى مَا يَنَالُهُ الطَّيْرُ، وَدَخَلَ صَالِحُ الْقَرْيَةِ، فَلَمَّا رَأَى الْفَصِيلَ بَكَى حَتَّى سَالَتْ دُمُوعُهُ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ صَالِحًا فَرَاغًا^(٤) رَغْوَةً، ثُمَّ رَاغَا أُخْرَى، ثُمَّ رَاغَا أُخْرَى، فَقَالَ صَالِحٌ: لِكُلِّ رَغْوَةٍ أَجَلٌ يَوْمٌ، «تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ»^(٥)،

(١) العرقوب: العصب الغليظ المؤثر، فوق عقب الإنسان، وعرقوب الدابة في رجلها، بمنزلة الركبة في يدها. ابن منظور: لسان العرب، جـ ١، ص ٥٩٤.

(٢) الركض: تحريك الرجل. المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٥٩.

(٣) الفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه. الرازي: مختار الصحاح، ص ٢١١.

(٤) رغا: الرغاء هو صوت ذوات الخف. الرازي: مختار الصحاح، ص ١٥٠.

(٥) سورة هود: الآية ٦٥.

إِلَّا أَنَّ آيَةَ الْعَذَابِ أَنَّ الْيَوْمَ الْأَوَّلَ تُصْبِحُ وَجُوهُهُمْ مُصْفَرَّةٌ، وَالْيَوْمَ الثَّانِي مُحْمَرَّةٌ، وَالْيَوْمَ الثَّلَاثَ مُسَوَّدَةٌ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا إِذَا وَجُوهُهُمْ كَأَنَّمَا طُلِيَتْ بِالْخُلُقِ^(١)، صَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ، ذَكَرَهُمْ وَإِنَاتَهُمْ، فَلَمَّا أَمْسَوْا صَاحُوا بِأَجْمَعِهِمْ: أَلَا قَدْ مَضَى يَوْمٌ مِنَ الْأَجْلِ وَحَضَرَكَمُ الْعَذَابُ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا يَوْمَ الثَّانِي إِذَا وَجُوهُهُمْ مُحْمَرَّةٌ كَأَنَّمَا خُضِبَتْ بِالِدَّمَاءِ، فَصَاحُوا، وَضَجُّوا، وَبَكَوا، وَعَرَفُوا أَنَّهُ الْعَذَابُ، فَلَمَّا أَمْسَوْا صَاحُوا بِأَجْمَعِهِمْ: أَلَا قَدْ مَضَى يَوْمَانِ مِنَ الْأَجْلِ وَحَضَرَكَمُ الْعَذَابُ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا الْيَوْمَ الثَّلَاثَ، إِذَا وَجُوهُهُمْ مُسَوَّدَةٌ كَأَنَّمَا طُلِيَتْ بِالْقَارِ^(٢)، فَصَاحُوا جَمِيعًا: أَلَا قَدْ حَضَرَكَمُ الْعَذَابُ، فَتَكَفَّنُوا، وَتَحَنَّنُوا، وَكَانَ حَنُوطُهُمُ الصَّبْرِ^(٣) وَالْمُرُ، وَكَانَتْ أَكْفَانُهُمُ الْأَنْطَاعِ^(٤)، ثُمَّ أَلْقَوْا أَنْفُسَهُمْ بِالْأَرْضِ، فَجَعَلُوا يُقَلِّبُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ مَرَّةً، وَإِلَى الْأَرْضِ مَرَّةً، لَا يَدْرُونَ مِنْ حَيْثُ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ خَشَعًا وَفُرْقًا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا الْيَوْمَ الرَّابِعَ أَتَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فِيهَا صَوْتُ كُلِّ صَاعِقَةٍ^(٥)، وَصَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ صَوْتُ فِي الْأَرْضِ، فَتَقَطَّعَتْ قُلُوبُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾^(٦).

(١) الخلق: ضرب من الطيب، وقيل الزعفران. ابن منظور: لسان العرب، جـ ١٠، ص ٩١.

(٢) القار: شيء أسود تطلّى به الإبل والسفن يمنع الماء أن يدخل. السابق، جـ ١، ص ١٠٥.

(٣) الصبر: عصارة شجر مرّ. المصدر السابق، جـ ٤، ص ٤٤٢.

(٤) الأنطاع: جمع نطع، ويقال: النطع، والنطع، والنطع، والمراد أنهم اتخذوا أكفانهم

من الأدم، وهي الجلود. المصدر السابق، جـ ٨، ص ٣٥٧.

(٥) الصاعقة: نار تسقط من السماء في رعد شديد. الرازي: مختار الصحاح، ص ١٥٢.

(٦) هود: الآية ٦٧.

ويؤيد ما ذكر من عزة عاقر الناقة ومكانته في قومه ما رواه عبد الله بن زمعة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يذكر الذي عقر الناقة فقال: "انتدب لها رجل ذو عز ومنعة في قومه كأبي زمعة"^(١).

وقد أخبر النبي ﷺ أصحابه أن أشقى الناس رجلان، أحدهما: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والآخر: هو الذي ضرب علياً رضي الله عنه على قرنه، فتسبب في قتله^(٢).

وقد تحققت في التّموذيين المكذّبين سنة الله مع الجاحدين لنعمه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(٣)، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾^(٤).

(١) الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، ج ٣، ص ١٢٣٦، ح ٣١٩٧.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج ٣٠، ص ٢٥٧، ح ١٨٣٢١، وقال المحققون: "حسن لغيره".

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٧.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٧.

إبراهيم عليه السلام

هو خليل الرحمن وصفية ونبيه الذي جمع خصال أمة من المؤمنين، وابتلاه الله بأنواع من الابتلاءات، وجعله للناس إماماً، وهو أبو الأنبياء؛ لأن جميع أنبياء بني إسرائيل يعقوب بن إسحاق - من نسله، وهو الجد الأكبر لرسول الله ﷺ الذي اختاره الله من ولد إسماعيل عليه السلام^(١)، وقد وافقت دعوة إبراهيم المستجابة قدر الله السابق في تعيين سيدنا محمد ﷺ رسولاً في الأميين إليهم، وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن^(٢).

تحقيق اسم والد إبراهيم:

تختلف المصادر في اسم والد إبراهيم عليه السلام فيصريح القرآن الكريم أن اسمه آزر، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٣)، كما تنص السنة النبوية على هذا الاسم، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فيقول له إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِينِي؟ فيقول أَبُوءُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فيقول إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فيقول الله تعالى: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يَقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ^(٤) مُلْتَطَخٍ،

(١) محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء، ص ١٤٥.

(٢) ابن كثير: التفسير، ج ١، ص ١٨٥.

(٣) الأنعام: الآية ٧٤.

(٤) الذبيح: ضبع كثير الشعر قبيح المنظر. ابن حجر: فتح الباري، ج ٨، ص ٥٠٠.

فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ^(١)، لَكِنَّ التَّوْرَةَ نَصَّتْ عَلَى أَنَّ وَالِدَ إِبْرَاهِيمَ هُوَ تَارَحُ بْنُ نَاحُورَ الَّذِي يَنْتَهِي نَسَبُهُ إِلَى سَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢)، وَجُمْهُورُ أَهْلِ النَّسَبِ مِنْهُمْ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه عَلَى أَنَّ اسْمَ أَبِيهِ تَارَحُ، وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ^(٣) أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَقُولُونَ "تَارَخُ" بِالْخَاءِ.

وَلِهَذَا اخْتَلَفَ عُلَمَاءُ السَّلَفِ فِي وَالِدِ إِبْرَاهِيمَ هَلْ اسْمُهُ تَارَحُ أَوْ آزَرُ؟ وَقَدْ حَكَى الطَّبْرِيُّ الْقَوْلَيْنِ، وَجَوَّزَ أَنْ يَكُونَ لَهُ اسْمَانِ عِلْمَانِ، أَوْ يَكُونُ أَحَدُهُمَا لِقَبًّا، ثُمَّ صَوَّبَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ^(٤)، وَأَيَّدَهُ فِي ذَلِكَ ابْنُ كَثِيرٍ وَجَوَّدَ رَأْيَهُ^(٥).

وَقَدْ انْتَصَرَ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ لَصَحَّةِ نَسَبِ إِبْرَاهِيمَ لِآزَرَ لـ "أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى كَانُوا فِي غَايَةِ الْحَرَصِ عَلَى تَكْذِيبِ الرَّسُولِ ﷺ وَإِظْهَارِ بَغْضِهِ، فَلَوْ كَانَ هَذَا النَّسَبُ كَذِبًا، لَامْتَنَعَ فِي سَكُوتِهِمْ عَنْ تَكْذِيبِهِ، وَحَيْثُ لَمْ يَكْنُبُوهُ، عَلِمْنَا أَنَّ النَّسَبَ صَحِيحٌ"^(٦).

وَيَتَرَجَّحُ عِنْدِي أَنَّهُ لَا تَنَاقُضَ بَيْنَ تَسْمِيَةِ التَّوْرَةِ لَوَالِدِ إِبْرَاهِيمَ "تَارَحُ"، وَبَيْنَ تَسْمِيَةِ الْقُرْآنِ لَهُ "آزَرُ"؛ لِأَنَّ "آزَرَ" فِي الْقُرْآنِ هِيَ التَّرْجُمَةُ الْعَرَبِيَّةُ الصَّحِيحَةُ لاسْمِ وَالِدِ إِبْرَاهِيمَ الْعِبْرِيِّ فِي التَّوْرَةِ^(٧).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾)، جـ ٣، ص ١٢٢٣، ح ٣١٢١.

(٢) سفر التكوين: إصحاح ١١، الفقرتان ٢٦، ٢٧.

(٣) البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٤٢.

(٤) تفسير الطبري، جـ ٧، ص ٢٤٤.

(٥) تفسير القرآن العظيم، جـ ٢، ص ١٥١.

(٦) الفخر الرازي: التفسير الكبير، جـ ١٣، ص ٣٨.

(٧) رؤوف أبو سعدة: من إعجاز القرآن، طبعة دار الهلال، القاهرة، ص ٢٦٠ - ٢٦٨.

📖 موطن إبراهيم عليه السلام ونشأته:

تجمع الكتابات العبرية على أن إبراهيم عليه السلام ولد في مدينة "أور" التي اكتشفت سنة ١٨٥٤م، على مسافة ١٩٢ كيلو متر شمال مدينة البصرة العراقية^(١)، ويظن الدكتور محمد بيومي مهران أن إبراهيم قد عاش في الفترة ما بين عامي ١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م^(٢)، اعتماداً على رواية التوراة التي تجعل حياته ١٧٥ سنة^(٣).

وكان لأزر ولدان غير إبراهيم هما: "تاحور"، و "هاران"، وقد ولد لهاران لوط النبي عليه السلام، فهو ابن أخي إبراهيم الخليل^(٤)، ولما شب إبراهيم تزوج امرأة تدعى "سارة"، وتعرف بالحسن والعفاف، كما جاء في صحيح السنة النبوية^(٥).

وقد نشأ إبراهيم عليه السلام بين قوم ضالين لا يعبدون الله، ولكن الله تعالى آتاه رشده منذ صغره، فعرف أن الله واحدٌ أحدٌ، لا شريك له، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾^(٦)، ومع أنه كان ممثلاً بالنقّة واليقين، فقد أراد أن يزداد بصيرةً و يقيناً بقدرة الله ﷻ، وأحب أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فطلب من ربه أن يريه

(١) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل (الجزء الأول) التاريخ منذ عصر إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام، ص ٦٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٣.

(٣) سفر التكوين، إصحاح ٢٥، الفقرة ٧.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٧٦.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، ج ٣، ص ١٢٢٥، ٣١٧٩، مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل)، ج ٤، ص ١٨٤٠، ح ٢٣٧١.

(٦) سورة الأنبياء: الآية ٥١.

البيّنة على البعث، وأن يطلعه على النّشور، فأراه الله عجائب قدرته ودقائق خلقه وتصويره بالمشاهدة الكاملة في الطّير، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمَنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١)، فاطمأن قلب إبراهيم، وعلم أنّ الله عزيز لا يغلبه شيء، ولا يمتنع من شيء، وما شاء كان بلا ممانع؛ لأنّه القاهر لكلّ شيء^(٢).

❏ الحالة الدينية لقوم إبراهيم عليه السلام:

لا شك أنّ قوم إبراهيم عليه السلام كانوا من سلالة ذريّة نوح الذين نجّاهم الله ﷻ من الطّوفان، وقد نجح الشّيطان في اجتياهم عن الإسلام مرة أخرى^(٣)، ونصّ القرآن الكريم على آلهتهم في أكثر من موضع، فقد نحتوا تماثيل من الحجارة بأيديهم وعبدوها من دون الله، بجانب عبادتهم للشمس، والقمر، والكواكب^(٤)، وكان ملكهم يدّعي الإلهية لنفسه، ويخلع وصف الرّبوبيّة على شخصه^(٥).

❏ دعوة إبراهيم لأبيه وقومه:

بدأ إبراهيم دعوته بأبيه آزر الذي كان يعبد الأصنام، فدعاه بالحكمة والموعظة الحسنة في أسلوب يقيض بالأدب والوقار، ويبيّن له أنّ

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

(٢) ابن كثير: التفسير، ج١، ص٣١٦.

(٣) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (جزيرة العرب)، ج٢، ص٢١.

(٤) سورة الأنعام: الآيات ٧٤-٧٨، سورة الأنبياء: الآيات ٥٢-٥٤.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

آلهته لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر، وطلب منه أتباعه؛ لأن الله آتاه من لدنه علماً اصطفاً به لهداية قومه إلى الطريق المستقيم، كما نهاه عن عبادة الشيطان؛ لئلا يصبح عدواً للرحمن، وقد قص الله علينا ذلك فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾^(١).

لكن أزر أصراً على كفره وشركه بالله ﷻ ولم يكتف بذلك بل هدّد ولده بالرجم إن لم ينته عن دعوته، وأمره بمفارقتة والابتعاد عنه، ﴿لَنْ لَمْ تَنْتَهِ لِأَرْجُمَكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾^(٢)، فانصرف عنه الخليل وهو يتلطف به ويقول: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾^(٣)، وكان استغفار إبراهيم لأبيه طمعاً في إيمانه، فلما ظهر له إصراره على الكفر وعداوته لله ﷻ قطع صلته بأبيه، وتبرأ منه، كما في سورة براءة: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٤).

وقد شرع الله لنا النَّاسِي بإبراهيم والمؤمنين معه في التَّبرُّو من أعداء الله، وإظهار العداوة لهم، وبغضهم مهما كانت قرابتهم^(٥)، ﴿قَدْ

(١) سورة مريم: الآيات ٤١ - ٤٥.

(٢) سورة مريم: الآية ٤٦.

(٣) سورة مريم: الآية ٤٧.

(٤) سورة التوبة: الآية ١١٤.

(٥) ابن كثير: التفسير، ج ٤، ص ٣٤٩.

كَانَتْ لَكُمْ أَسُوءَ حَسَنَةٍ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ^(١).

❏ دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه:

إذا كان إبراهيم عليه السلام قد بدأ بدعوة أبيه كما يفهم من سياق قصته في القرآن الكريم ومن أمر الله تعالى لخاتم النبيين ﷺ بالبدء بعشيرته الأقربين، فلما لم يجد منه استجابة توجه بدعوته إلى قومه جميعاً، فطلب منهم أن يعبدوا الله ويتقوه ويشكروا له؛ لأنه هو الذي يخلق ويرزق ويحيي ويميت، ومن كان كذلك فهو حقيق بالعبادة، أما الأوثان والتماثيل التي لا تملك لنفسها رزقاً ولا نفعاً ولا ضرراً فلا تستحق العبادة، ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٢)﴾، ثم جادلهم في آلهتهم وساءلهم عن السبب الذي جعلهم يتوجهون إليها بالعبادة قائلاً لهم: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَنِفْكَآ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ^(٣)﴾.

لم يكن عند قوم إبراهيم رد، لذلك أجابوه جواب من لا يعقل، ولم يزدوا على أن ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ^(٤)﴾، فبكتهم إبراهيم

(١) سورة الممتحنة: من الآية ٤.

(٢) سورة العنكبوت: الآيتان ١٦، ١٧.

(٣) سورة الصافات: الآيتان ٨٥، ٨٦.

(٤) سورة الشعراء: الآية ٧٤.

على رَدِّهم، وسألهم أن يستحضروا أحوالهم الماضية التي دعوا فيها هذه الآلهة، هل سمعوا أو أسمعوا قط؟ وهل نفعوهم أو ضرّوهم قط؟^(١)، **﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ﴾**^(٢)، فما كان حجة القوم الضالّين إلا صنيع الآباء والأجداد، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد، فكرّروها قائلين: **﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾**^(٣)، وسلّموا لإبراهيم أنّها لا تنفع ولا تضرّ، وإنّما حملهم على ذلك آبائهم الجهّال، وأسلافهم في الضلال، ولهذا قال لهم: **﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾**^(٤)، وهذا برهان قاطع على بطلان ألوهيّة ما ادّعوه من الأصنام؛ لأنّه تبرّأ منها وتنفّس بها، فلو كانت تضرّ لضرّته، أو تؤثر لأثرت فيه^(٥)، ولذلك **﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾**^(٦)، موهمين بهذا الكلام أنّه يبعد أن يقدّم على الإنكار عليهم جاداً في ذلك، فعدل إبراهيم عندئذٍ إلى بيان التّوحيد^(٧)، **﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾**^(٨)، ولكنّ القوم عميت أبصارهم وبصائرهم، فاستمروا في باطلهم يعمهون.

(١) الزمخشري: الكشف، جـ ٣، ص ٣٢٣.

(٢) سورة الشعراء: الآيتان ٧٢، ٧٣.

(٣) سورة الأنبياء: من الآية ٥٣.

(٤) سورة الشعراء: الآيات ٧٥ - ٧٧.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٤٤.

(٦) سورة الأنبياء: الآية ٥٥.

(٧) الرازي: التفسير الكبير، جـ ٢٢، ص ١٥٧.

(٨) سورة الأنبياء: الآية ٥٦.

📖 تحطيم إبراهيم عليه السلام للأصنام:

كان إبراهيم عليه السلام لا يفتأ يذكر قومه بتوحيد الله تعالى وعبادته، فلما أبى عليه أبوه، وتكر له قومه وذووه، رأى أن الحجة اللفظية لن تجدي نفعاً معهم، وعمد إلى الانتقال بهم إلى حجة حسية؛ ليشاهدوها بأبصارهم، ويدركوا بأنفسهم تفاهة ما يعبدون من دون الله^(١).

عزم إبراهيم على تحطيم الأصنام، وحدد يوم عيد قومه الذي يخرجون فيه إلى ظاهر البلد موعداً للتنفيذ^(٢)، لكن قومه كانوا لا يتركون صحيحاً إلا أخرجوه معهم إلى عيدهم، فلما عزم إبراهيم على كسر الأصنام نظر قبل يوم العيد إلى السماء فقال: أراني أشتكى غداً، فذلك قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾^(٣)، وأصبح من الغد معصبواً رأسه، فخرج القوم لعيدهم، فقال إبراهيم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾^(٤)، فسمعه بعض ضعفائهم^(٥).

ويؤيد ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله ﷻ، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾^(٦)، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾^(٧).

(١) محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء، ص ١٥٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٤٤.

(٣) سورة الصافات: الآيتان ٨٨، ٨٩.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٥٧.

(٥) الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٢، ص ١٥٨.

(٦) سورة الصافات: من الآية ٨٩.

(٧) سورة الأنبياء: من الآية ٦٣. البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ

اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، ج ٣، ص ١٢٢٥، ح ٣١٧٩، مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب من

فضائل إبراهيم)، ج ٤، ص ١٨٤٠، ح ٢٣٧١.

فلما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم، استقرّ هو في بلدهم، ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ﴾^(١)، وأسرع إليها مستخفياً، فوجد قومه قد قربوا لها أنواعاً من الأطعمة، فقال لها على سبيل التهكم والازدراء: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾^(٢)؛ لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر، فكسرها بقدم في يده حتى جعلها حطاماً إلا واحداً، كما قال الله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾^(٣)، قيل إنه وضع القدم في يد الكبير، إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار! فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حلّ بمعبوداتهم، ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٤)، ولو كانوا يعقلون لأدركوا أنها لو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها، لكنهم قالوا ذلك من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم، فأجابهم الذين سمعوا توعد إبراهيم للآلهة: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾^(٥)، فأمرؤا بإحضاره على رؤوس الأشهاد، ﴿قَالُوا فَاتُّوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾^(٦)، مقاتله ويسمعون كلامه، ويعاينون ما يحلّ به من الاقتصاص منه.

ولا شك أن اجتماع القوم كلّهم في صعيد واحد كان من أكبر مقاصد الخليل عليه السلام ليقبم لهم جميعاً الحجة على بطلان عبادة الأصنام^(٧).

(١) سورة الصافات: من الآية ٩١.

(٢) سورة الصافات: الآيات ٩١ - ٩٣.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٥٨.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٥٩.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٦٠.

(٦) سورة الأنبياء: الآية ٦١.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٤٤، ١٤٥.

❏ محاكمة إبراهيم عليه السلام:

دُعي الناس لمشاهدة العقاب الذي سيحلّ بإبراهيم، ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُون﴾^(١)، فلما اجتمعوا ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَتْنَا يَا إِبْرَاهِيمَ﴾^(٢)، فأشار إلى الصنم الذي لم يكسر، وعرض لهم قائلاً: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾^(٣)، فأدركتهم حيرة، وعادوا على أنفسهم بالملامة، ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٤)، ثم رجعوا إلى الفتنة فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾^(٥)، وبهذا لقنهم إبراهيم الحجة، فاعترفوا بأن آلهتهم جماد كسائر الجمادات^(٦).

وانتهز إبراهيم اعترافهم على آلهتهم، وقام ينكر عليهم عبادة الأصنام، ويدعوهم إلى التوحيد، ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٧)، ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٨)، فلما غلبوا على أمرهم، وخافوا الفضيحة، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة، عمدوا إلى إهلاكه بالقوة، لينصروا ما هم عليه من سفهم وطغيانهم^(٩).

(١) سورة الصافات: الآيات ٩٤.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٦٢.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٦٣.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٦٤.

(٥) سورة الأنبياء: من الآية ٦٥.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٤٥.

(٧) سورة الأنبياء: الآيتان ٦٦، ٦٧.

(٨) سورة الصافات: الآيات ٩٥، ٩٦.

(٩) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، جـ ١، ص ١٤٧.

❏ إلقاء الخليل إبراهيم في النار:

عمد قوم إبراهيم عليه السلام إلى معاقبة نبيهم بأشد أنواع العذاب، فأشار بعضهم بقتله بالسيف ونحوه، وأشار آخرون بإحراقه، وذلك يفهم من المقابلة بين الإحراق والقتل في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿أَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾^(١)، ثم استقر رأيهم على معاقبته بالنار^(٢)، وتعالى أصواتهم بذلك، ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾^(٣)، ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾^(٤).

وقام القوم الضالون فأججوا ناراً عظيمة، للخلاص من الصوت الذي ارتفع بين ظهرائهم بالدعوة إلى التوحيد والإسلام، ظناً منهم أنهم يستطيعون ذلك، ولم يدر بخلدهم أنهم يحاربون الواحد القهار الذي قال فيما حدث عنه نبيّه: "من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب"^(٥)، ولما غلت نيرانهم وعلا لهيبها قذفوا فيها الخليل إبراهيم، فكان آخر قول إبراهيم حين أُلقي في النار حسبى الله ونعم الوكيل، كما روى البخاري^(٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٧)، قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٨)، فكاد الله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَام لإبراهيم، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه^(٩).

(١) سورة العنكبوت: من الآية ٢٤.

(٢) الزمخشري: الكشاف، ج ٣، ص ١٢٦، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٤٥.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٦٨.

(٤) سورة الصافات: الآية ٩٧.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب الرقاق، باب التواضع)، ج ٥، ص ٢٣٨٤، ح ٦١٣٧.

(٦) الصحيح، (كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾)، ج ٤، ص ١٦٦٢، ح ٤٢٨٧.

(٧) سورة آل عمران: من الآية ١٧٣.

(٨) سورة آل عمران: من الآية ١٧٣.

(٩) الزمخشري: الكشاف، ج ٣، ص ١٢٦، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٤٥.

وقد شاركت الدّوابّ في إطفاء النّار عن إبراهيم إلا الوزغ^(١)، كما روى البخاري^(٢): "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِقَتْلِ الْوَزْغِ، وَقَالَ: كَانَ يَنْفُخُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ"، وكان أمر الله ﷻ أسرع من إطفاء مخلوقاته فقال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٣)، وأراد أعداء إبراهيم أن يفوزوا عليه، فجعلهم الله ﴿الْأَخْسَرِينَ﴾^(٤)، وردّ كيدهم إلىٰ نحورهم فجعلهم ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾^(٥).

وقد كشفت النّصوص السّومريّة القديمة بأن الله عاقب أهل الرّافدين جزاء كفرهم ومحاولتهم قتل نبيّهم، ففي أواسط القرن العشرين قبل الميلاد، وهو وقت رحيل إبراهيم ولوط، هاجم العيلاميون والأموريون مدينة "أور" مسقط رأس إبراهيم، والتي كان يحكمها الملك "أورنمو"، وسيطر المهاجمون على المدينة، واقتسموا مجدها فيما بينهم، وقد سجّل شاعر سومريّ تساقط المدن السّومريّة، وما حدث فيها من تقتيل، وبدأها بمدينة "أور"، فذكر الذّلّ والصّغار الذي حلّ بأهلها، حتّى ترك الوالد ولده والزّوج زوجته، وأخذ يعدد الثّمار والخراب الذي حلّ بالمدن السّومريّة، وإذا صحّت هذه النّصوص عن دمار المدن السّومريّة وهلاك أهلها فهو من عدل الله تعالىٰ مع ذلك الشعب^(٦)، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٧).

(١) الوزغ: هو الذي يقال له سام أبرص، ويكون على الجدران والسقوف، وله صوت يصيح به،

ابن منظور: لسان العرب، جـ ٨، ص ٤٥٩، البدر العيني: عمدة القاري، جـ ١٠، ص ١٨٥.

(٢) الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، جـ ٣، ص ١٢٢٦، ح ٣١٨٠.

(٣) سورة الأنبياء: من الآية ٦٩.

(٤) سورة الأنبياء: من الآية ٧٠.

(٥) سورة الصافات: من الآية ٩٨.

(٦) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (جزيرة العرب) جـ ٢، ص ٢٥، ٢٦.

(٧) سورة العنكبوت: من الآية ٤٠.

❏ محاجة إبراهيم لأحد ملوك العراق:

لقد حكي لنا القرآن الكريم مناظرة دارت بين إبراهيم عليه السلام وبين ملك معاصر له، حمله ملكه وسلطانه على الغرور والبطر والجحود، فادّعى أنه إله الناس من دون الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

وقد جادل الملك الظالم إبراهيم عليه السلام في قضية الإحياء والإماتة، فآثر الخليل غلق باب الجدال والمحاورة، وقذفه بحجة أفحمته وأخرست لسانه، وأظهرت كذبه وغروره وفجوره، وذلك عندما طالبه بتحويل مجرى الشمس الذي قدره لها العزيز العليم.

ويتردد اسم الملك الذي حاجَّ إبراهيم في المصادر العربية بأنه الملك البابلي نمرود بن كنعان^(٢)، وقد انتقد أحد المؤرخين المحدثين^(٣) ما تردده المصادر العربية بشأن النمرود؛ لأنَّ التاريخ البابلي لا يعرف ملكاً بهذا الاسم حتى الآن، والغالب أنَّ المصادر الإسلامية نقلت ذلك عن

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج١، ص٤٣، الطبري: التفسير، ج٣، ص٢٣، تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص١٢٨، ابن أبي حاتم: التفسير، ج٨، ص٢٧٦، ابن الجوزي: المنتظم، ج١، ص٢٥٩. ابن كثير: التفسير، ج١، ص٣١٤، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٢، ص٣٨.

(٣) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم، (الجزء الثاني)، في بلاد العرب، ص١٧.

التَّوراة المليئة بالأغلاط، لأنَّ التَّاريخ يعرف بلداً باسم "نمرود" على مجرى الزَّاب الأعلى، كانت عاصمة للأشوريين على أيام سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م)، وهي نفسها مدينة "كالح" في التَّوراة، فخلط كاتب سفر التَّكوين بين الملك والمدينة، ونقل ذلك إلى المصادر الإسلاميَّة.

والعجب كلُّه من توراة اليهود التي تجعل ملك "نمرود" على جميع الأرض ونوح حيٍّ وسام بن نوح حيٍّ؛ لأنَّ في نصِّ توراتهم أن نوحاً عاش إلى أن بلغ إبراهيم عليه السلام ثمانية وخمسين عاماً، وأنَّ سام بن نوح عاش إلى أن بلغ يعقوب وعيصو ابنا إسحق بن إبراهيم عليه السلام خمساً وأربعين سنة^(١)، وقد أنكر ابن الأثير^(٢) القول الذي يجعل النمرود - سالف الذكر - ممَّن ملك المشرق والمغرب عند ولادة إبراهيم بأرض العراق، ودفعه بما عليه أهل العلم بالسَّير وأخبار الملوك من القول بولادة إبراهيم في أيَّام الضَّحَّاك الفارسيّ.

ويرجِّح الدكتور رشدي الب دراوي هجرة إبراهيم إلى بابل بعد مغادرته لمدينة "أور"، وأنَّ الذي حاجَّه في ربِّه هو الملك البابليّ "حمورابي" الشَّهير بقوانينه القديمة^(٣).

📖 هجرة إبراهيم إلى بيت المقدس:

لقد تكرر الحديث عن هجرة إبراهيم من مكان إلى آخر من أجل دعوة النَّاس إلى عبادة الله تعالى في غير ما موضع من القرآن الكريم^(٤)،

(١) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج١، ص ٩٩.

(٢) الكامل في التاريخ، ج١، ص ٨٩.

(٣) قصص الأنبياء والتَّاريخ، ج٢، ص ٢٤٤.

(٤) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، ج١، ص ١٥٢.

وكانت أولى هجرات إبراهيم عليه السلام خارج الأراضي العراقية إلى الأرض المقدسة التي بارك الله فيها للعالمين^(١).

فبعد أن نجى الله خليله إبراهيم من النار، وحاجه الملك الظالم في ربه، يؤس الخليل من إيمان أهل بلاده، وعزم على الهجرة من بين أظهرهم^(٢)، «وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهِدِينَ»^(٣)، «وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»^(٤)، وفي هذا دليل على أن الله تعالى أمره بالمهاجرة، وحدد له المكان الذي يتوجه إليه^(٥).

اصطحب إبراهيم في هجرته ابن أخيه لوط بن هاران الذي آمن به واتبعه وهاجر معه^(٦)، وقد نصّ على ذلك القرآن العزيز: «فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي»^(٧)، «وَجِئْنَا وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ»^(٨)، وكانت سارة - زوج إبراهيم - مرافقة لإبراهيم في هجرته إلى الأراضي المقدسة على المشهور من أقوال العلماء^(٩).

ولما كانت هجرات إبراهيم من بلاد قومه وتركه لمسكنه وماله لا شيء إلا لإعلاء كلمة الله، وليست لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فقد

(١) الطبري: التفسير، جـ ٢٣، ص ٧٥، السمرقندي: التفسير (بحر العلوم)، تحقيق/ محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، جـ ٣، ص ١٣٩.

(٢) ابن كثير: التفسير، جـ ٤، ص ١٥.

(٣) سورة الصافات: الآية ٩٩.

(٤) سورة العنكبوت: من الآية ٢٦.

(٥) الزمخشري: الكشاف، جـ ٤، ص ٥٤.

(٦) ابن كثير: التفسير، جـ ٣، ص ١٨٦.

(٧) سورة العنكبوت: من الآية ٢٦.

(٨) سورة الأنبياء: الآية ٧١.

(٩) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٥٠.

عَوَّضَهُ اللهُ خَيْرًا مِّمَّا تَرَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وكما قال النَّبِيُّ ﷺ لأحد أصحابه: "إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا اتَّقَاءَ اللهِ إِلَّا أَعْطَاكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ"^(١).

وقد كان فضل الله عظيمًا على إبراهيم، ومن ذلك ما وهبه له من الذرية الصالحة، فبشره بإسماعيل أولاً^(٢)، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾^(٣)، ثم أقرَّ عينه بإسحاق نبياً، وبحفيده يعقوب بن إسحاق نبياً كذلك في حياته، وجعل في ذريته النبوة، فجميع الأنبياء اللاحقين لإبراهيم من نسله^(٤)، كما جعل الله في ذريته الكتب التي أنزلها على الأنبياء من بعده، كالطَّوراة والإنجيل، والقرآن، ورزقه الزوجة الصالحة، وبشره بمكانه في الآخرة^(٥)، وذلك كله في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٦).

📖 هجرة إبراهيم عليه السلام إلى مصر:

أقام إبراهيم في أرض كنعان أو الأرض التي بارك الله فيها للعالمين حتى وقعت مجاعة بتلك البلاد، فرحل عنها الخليل إلى أرض النيل^(٧)، ففي سفر التكوين: "وكان جوع في الأرض، فانهدر إبراهيم إلى مصر للمجاورة هناك، إذ عظم الجوع في الأرض"^(٨).

(١) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٣٤، ص ٣٤٢، ح ٢٠٧٣٩، وصحح المحققون إسناده.

(٢) السيوطي: الإكليل في استنباط التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١م، ص ٢١٨.

(٣) سورة الصافات: الآية ١٠١.

(٤) ابن كثير: التفسير، جـ ٣، ص ٤١٢.

(٥) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، جـ ١، ص ١٩٢.

(٦) سورة العنكبوت: الآية ٢٧.

(٧) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل (الجزء الأول) التاريخ منذ عصر إبراهيم، ص ٩٢.

(٨) الكتاب المقدس: سفر التكوين، إصحاح ١٢، فقرة ١٠.

ويرجع مؤرخو التاريخ القديم مجيء إبراهيم الخليل إلى مصر في أيام الأسرة الثانية عشرة من ملوك الدولة الوسطى خلال القرن العشرين قبل الميلاد^(١).

وأما المعلومات الوثيقة عن هذه الهجرة فهي مستمدة من السنة النبوية الصحيحة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم النبي ﷺ قط إلا ثلاث كذبات^(٢)، تثبتن في ذات الله، قوله: «إني سقيم»^(٣)، وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا»^(٤)، وواحدة في شأن سارة، فإنه قديم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيبي وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، فأتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها فأتى بها، فقام إبراهيم ﷺ إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقُبضت

(١) أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن والسنة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص ١٣.

(٢) صرف بعض العلماء ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم ﷺ بدلالة العقل، وذلك أن العقل يقطع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثقاً به ليعلم صدق ما جاء به، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه، وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع، وعلى تقديره فلم يصدر ما ظاهره الكذب من إبراهيم ﷺ إلا في حال شدة الخوف لعلو مقامه، وإلا فالكذب المحض في مثل تلك المقامات يجوز، وقد يجب لتحمل أخف الضررين دفعاً لأعظمهما، وأما تسميته إياها كذبات فلا يريد أنها تدم، فإن الكذب وإن كان قبيحاً مَخلاً لكنه قد يحسن في مواضع، وهذا منها. ابن حجر: فتح الباري، ج ٦، ص ٣٩٢.

(٣) سورة الصافات: من الآية ٨٩.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٦٣.

يَدُهُ قَبْضَةٌ شَدِيدَةٌ، فَقَالَ لَهَا: ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدَيَّ وَلَا أَضْرُكَ، فَفَعَلَتْ
فَعَادَ، فَقَبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَةِ الْأُولَى، فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ فَفَعَلَتْ، فَعَادَ
فَقَبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدَيَّ فَلَكَ
اللَّهُ أَنْ لَا أَضْرُكَ، فَفَعَلَتْ، وَأُطْلِقَتْ يَدُهُ، وَدَعَا الَّذِي جَاءَ بِهَا فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ
إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ وَلَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ، فَأَخْرَجَهَا مِنْ أَرْضِي وَأَعْطَاهَا
هَاجِرًا، قَالَ: فَأَقْبَلْتُ تَمْشِي، فَلَمَّا رَأَاهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام أَنْصَرَفَ فَقَالَ لَهَا:
مَهِيمٌ؟ قَالَتْ: خَيْرًا، كَفَّ اللَّهُ يَدَ الْفَاجِرِ، وَأَخَذَ خَادِمًا. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:
فَإِنَّكَ أَمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ^(١).

وفي هذا الحديث التاريخي فوائد جلية منها: "مشروعية أخوة
الإسلام، وإباحة المعارض، والرخصة في الانقياد للظالم والغاصب،
وقبول صلة الملك الظالم، وقبول هدية المشرك، وإجابة الدعاء بإخلاص
النية، وكفاية الرب لمن أخلص في الدعاء بعمله الصالح، وفيه ابتلاء
الصالحين لرفع درجاتهم، ويقال إنَّ الله كشف لإبراهيم حتى رأى حال
الملك مع سارة معاينة، وأنه لم يصل منها إلى شيء، وفيه أنَّ من نابَه
أمرٌ مهمٌّ من الكرب ينبغي له أن يفرع إلى الصلاة"^(٢).

ويجزم بعض المحدثين^(٣) بنفي هذه القصة دفاعاً عن إبراهيم عليه السلام
لمواجهة الخبر الكاذب الذي أوردته التوراة المحرقة، وهذا المسلك الذي

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾)، جـ ٣،
ص ١٢٢٥، ح ٣١٧٩، مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل)،
جـ ٤، ص ١٨٤٠، ح ٢٣٧١.

(٢) ابن حجر: فتح الباري، جـ ٦، ص ٣٩٤.

(٣) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ص ١٢٨، ١٢٩، محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل،
(الجزء الأول) التاريخ منذ عصر إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام، ص ٥٣.

يشكك في أوثق مصدرين للسنة النبوية، والتي أجمعت الأمة على صحتها لا يقل خطورة عن التحريف الذي أصاب الخبر في التوراة المحرقة الموضوعة^(١).

ولا يستبعد الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف أن يكون إبراهيم الخليل عليه السلام على معرفة ببعض عبارات اللغة المصرية القديمة عن طريق انتشارها في بلاده، وأنه أشار على زوجته سارة أن تخاطب فرعون مصر بلغته؛ لأن المصريين كانوا يطلقون على الزوجة لفظ الأخت "سونة"، كنوع من التعبير عن المحبة والإعزاز^(٢)، وهذا اتجاه مليح في البحث يحمد لصاحبه.

▣ عودة إبراهيم إلى بيت المقدس:

رجع إبراهيم بسارة -لم يمسهها سوء- وفي صحبتها هاجر المصرية إلى بيت المقدس^(٣)، وهناك بنى إبراهيم بهاجر فأنجبت له إسماعيل عليه السلام وتعرضت سارة زوجة إبراهيم لابتلاء شديد؛ لأنها حرمت من الولد حتى صارت عجوزاً، وزاد الابتلاء شدة حينما أنجبت هاجر لزوجها إبراهيم طفلاً كريماً هو إسماعيل، فكان منها الصبر والاحتساب، وهو سمت عام لأهل هذا البيت^(٤).

وفي تلك الأثناء بشر الله إبراهيم ﴿بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٥)، وقد تعجب إبراهيم من تلك البشارة بعد أن بلغ من الكبر

(١) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (جزيرة العرب)، جـ ٢، ص ٣٣.

(٢) مصر في القرآن والسنة، ص ٢٩، ٣٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٥٢.

(٤) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، (جزيرة العرب)، جـ ٢، ص ٣٣.

(٥) سورة الصافات: من الآية ١١٢.

عَتِيًّا فَقَالَ لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ بَشَرُوهُ: «أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونِ»^(١)، كما فاجأت البشرى سارة، «فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ»^(٢)، فزيدت بحفيد بعد إسحاق، «وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ»^(٣)، أن يولد ولد من هرمين، وهو استبعاد من حيث العادة التي أجراها الله، فأنكرت عليها الملائكة الكرام تعجبها، «قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ»^(٤)؛ لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقر، ولا يزدهيها ما يزدهي النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب، وإلى ذلك أشارت الملائكة -عليهم السلام- في قولهم: «رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»^(٥)، أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به ربّ العزة، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة، فليست بمكان عجب^(٦).

وإنّ إحساساً شديداً يدفعني لتوجيه أصابع الاتهام إلى ما ذكره المؤرّخون والمفسّرون وأئمة النّقل من تحميل سارة المحفوظة بحفظ الله مسؤوليّة إقصاء هاجر وولدها إسماعيل إلى جبال مكّة الجرداء، ولا

(١) سورة الحجر: من الآية ٥٤.

(٢) سورة الذاريات: من الآية ٢٩.

(٣) سورة هود: الآيتان ٧١، ٧٢.

(٤) سورة هود: من الآية ٧٣.

(٥) سورة هود: من الآية ٧٣.

(٦) الزمخشري: الكشاف، ج ٢، ص ٣٨٨، الرازي: التفسير الكبير ج ١٨، ص ٢٤.

أدري لم كل هذه الثقة باليهود المحرّفين لتوراتهم التي تقول: "ونظرت سارة ابن هاجر المصريّة الذي ولدته لإبراهيم متضحاً فقالت لإبراهيم: اطرده هذه وابنها، إذ لا يرث ابن الأمة مع ابني إسحاق" (١).

أليس من اللغو الإسرائيليّ الباطل أن يترك النّبيّ الخليل ولده إسماعيل وأمه هاجر في مكان كفر ليس فيه إنس ولا شيء مسارعة في هوى زوجته الأخرى سارة لغيرتها من أم إسماعيل، إنّ فعلاً كهذا يتنزّه عنه عوام المؤمنين، فكيف بخليل ربّ العالمين (٢)، ثم إنّ كلامهم هذا يخالف ما ثبت في صحيح السنّة من رواية ابن عباس رضي الله عنه، وفيها: أنّ أم إسماعيل قالت: "يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟" فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيّعنا" (٣).

❏ إبراهيم وإسماعيل والسيدة هاجر عند البيت الحرام:

تستمدّ المعلومات الموثقة عن هذا الرّهط الكريم من القرآن الكريم والسنّة النبويّة، ولا يوجد في مصادر أهل الكتاب خبر عن هجرة إبراهيم بإسماعيل وأمه إلى مكة، ولذلك ينكر بعض المؤرّخين الأوربيّين خبرها، ويستبعدون وقوعها؛ لأنهم لا يفتحون عقولهم للحقيقة حيث تكون، وإنّما يكتبون لإثبات دين، وإنكار دين (٤).

(١) سفر التكوين، إصحاح ٢١، الفقرتان ٩، ١٠.

(٢) عصام الدين سيد الصبابطي: تحقيق قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير، دار الفجر للتراث، القاهرة، ١٩٨٠م، هامش ١، ٢، ص ١٤٦.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب يزفون)، ج ٣، ص ١٢٢٧، ح ٣١٨٤.

(٤) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل (الجزء الأول) التاريخ منذ عصر إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام، ص ٦٦.

وقد روى لنا الإمام البخاري^(١) في ذلك حديثاً جامعاً لخبر إبراهيم مع إسماعيل وأمه في حرم الله الآمن، يجمع بين القرآن الكريم وحديث النبي ﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النَّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قَبْلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعْفِيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةٍ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبَابِنَهَا إِسْمَاعِيلَ - وَهِيَ تَرْضِعُهُ - حَتَّى وَضَعَهَا عِنْدَ الْبَيْتِ، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمُ مِنْطَقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: اللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذْنٌ لَا يُضِيعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَاَنْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بَوَجهِ الْبَيْتِ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^(٢)، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفَدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى - أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ - فَاَنْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِي رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ

(١) الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب "يزفون" النسلان في المشي)، جـ ٣، ص ١٢٢٧، ح ٣١٨٤.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

الوادي، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا"، فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ: صَهْ -تُرِيدُ نَفْسَهَا- ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقْبِهِ -أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ- حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدَيْهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا، وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكْتَ زَمْزَمَ -أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفِ مِنَ الْمَاءِ- لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا"، قَالَ: فَشَرِبْتُ وَأَرْضَعْتُ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ، يَبْنِي هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُقُقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ - أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ - مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهِذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَيْنِ فَإِذَا هُمُ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ، فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزَلَ عِنْدَكَ؟ فَقَالَتْ نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "قَالَ فَيَ ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْأَنْسَ"، فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أُبَيَّاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوْجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرْكِتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ

يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتُ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ يُعَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ أَنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلْنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: غَيْرُ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكَ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَفَارِقَكَ، الْحَقِّي بِأَهْلِكَ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنْتُ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: الْمَاءُ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حُبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ"، قَالَ: فَهَمَّا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بَغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُؤَافِقَاهُ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَمَرِيهِ يُثْبِتْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَثْنْتُ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكَ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ..."، ثُمَّ ذَكَرَ قَدِمَةَ أُخْرَى لِإِبْرَاهِيمَ بَنَى فِيهَا الْبَيْتَ الْحَرَامَ بِمَعَاوَنَةِ وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ.

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث فقال: "وهذا الحديث من كلام ابن عباس، وموشح برفع بعضه، وفي بعضه غرابة، وكأنه ممَّا تلقاه ابن

عبّاس عن الإسرائيليات^(١)، لكنّ أهل الكتاب لا يذكرون شيئاً عن هجرة إبراهيم للحجاز، ولذلك فظنّ الحافظ ابن كثير ليس في محلّه.

❏ قصة الذبيح:

لقد قصّ علينا القرآن الكريم قصّة الذبيح في سورة الصّافات في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصّٰلِحِينَ * فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصّٰبِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصّٰلِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمَنْ ذُرِّيَّتُهُمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾^(٢).

كانت قصّة الذبيح اختباراً شديداً من الله ﷻ لخليله في ذبح ولده الذي جاءه على كبر، وقد طعن في السنّ، فأجاب ربّه وامتنل أمره، وسارع إلى طاعته، ثمّ عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً، فبادر الغلام الحليم أمر والده بجواب في غاية السّداد والطّاعة للوالد ولربّ العباد، فلمّا استسلما لأمر الله، فدى الله الولد الحليم، ورحم النّبيّ الكريم، الذي بادر إلى أمر ربّه، وبذل ولده للقربان، كما سمح ببدنه للنيران، وكما بذل ماله للضيّفان^(٣).

(١) البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٥٦.

(٢) الآيات: ٩٩ - ١١٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٥٧، ١٥٨.

❏ الخلاف في تعيين الذبيح:

تبيّن من حديث القرآن الكريم عن قصّة الذبيح أنّه لم يرد فيه نصّ قاطع صريح يعيّن الذبيح، لكن الظاهر من القرآن بل كأنّه النصّ على أنّ الذبيح هو إسماعيل^(١).

وأما التّوراة التي بأيدي أهل الكتاب فقد جاء فيها تعيين الذبيح، والنصّ على أنّه "إسحاق"، ففيها: "خذ ابنك وحيدك الذي تحبّه إسحاق، واذهب إلى أرض الموريّا، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك"^(٢).

كما نصّ الإنجيل الشائع بين النصارى على ما نصّت عليه التّوراة، ففيه: "بالإيمان قدّم إبراهيمُ إسحاقَ وهو مجرّب، قدّم الذي قبل المواعيدَ وحيدَه الذي قيل له: "إنّه بإسحاقَ يُدعى لك نسل"، إذ حسبَ أن الله قادرٌ على الإقامة من الأموات أيضاً"^(٣).

لذلك تعارضت الروايات عن الصحابة والسلف في ذلك، حتّى رأينا ابن عباس مرّة يقول: "الذبيح إسماعيل"^(٤)، وأخرى يقول: "الذبيح إسحاق"^(٥)، وقد روى كثير من المفسّرين، كالطبري^(٦)، والبغوي^(٧)، والسيوطي^(٨)، روايات كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين وكعب

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٥٧.

(٢) سفر التكوين، إصحاح ٢٢، فقرة ٢.

(٣) العهد الجديد: الرسالة إلى العبرانيين، طبعة دار الكتاب المقدس، ص ٣٠٢.

(٤) الحاكم: المستدرك، جـ ٣، ص ١٥٦، ١٥٧.

(٥) السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جـ ٧، ص ١٠٩.

(٦) تفسير الطبري، جـ ٢٣، ص ١٨-٨٩.

(٧) تفسير البغوي، جـ ٤، ص ٣٢-٣٥.

(٨) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جـ ٧، ص ١٠٧-١١٠.

الأخبار، أنّ الذبيح هو إسحاق، ولم يقف الأمر عند هذا الموقف على الصحابة والتابعين، بل رفعوا ذلك زوراً وبهتاناً إلى النبي ﷺ^(١)، وقد اختار ابن جرير الطبري^(٢) قول من قال إنه إسحاق، ونصّ ابن قتيبة الدينوري على أنّ أكثر أهل العلم على ذلك^(٣).

ويرى بعض علماء الحديث أنّ الذبيح إسماعيل بناء على صحيح الحديث المنسوب للنبي ﷺ: "أنا ابن الذبيحين"، إذ لا خلاف أنّه من ولد إسماعيل، وأنّ الذبيح الآخر أبوه الأدنى عبد الله بن عبد المطلب^(٤)، ولكنّ هذا حديث غريب^(٥) لا أصل له بهذا اللفظ^(٦)، ولذا ينبغي لنا الوقوف مع المصادر والروايات التي تضمنت تعيين الذبيح؛ ليتبين لنا الصحيح من المحرّف والمكذوب.

أولاً: القرآن الكريم:

إنّ المتأمل لآيات القرآن الكريم الواردة في قصة الذبيح يرى أنّها تكاد تصرّح أنّه إسماعيل، بل كأنّه نصّ على أنّ الذبيح هو إسماعيل؛ لأنّه ذكر قصة الذبيح ثمّ قال بعده: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنْ

(١) محمد محمد أبو شهبة: الإسرائيليات والموضوعات، مكتبة السنة، القاهرة، بدون تاريخ طبع، ص ٢٥٣.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ١٥٨.

(٣) المعارف، تحقيق/ ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ، ص ٣٥.

(٤) الحاكم: المستدرک، ج ٣، ص ١٦١، ح ٤٠٩٩.

(٥) الزيلعي: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف، تحقيق/ عبد الله عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ج ٣، ص ١٧٧.

(٦) الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة، ج ١، ص ٥٠٠، ح ٣٣١.

الصَّالِحِينَ»^(١)، وليس في القول بأنه إسحاق حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز، ولا يفهم هذا من القرآن، بل المفهوم، بل المنطوق، بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل، وما أحسن ما استدلل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾^(٢)، فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له، هذا لا يكون، لأنه يناقض البشارة المتقدمة^(٣).

وقد تأمل الإمام تقي الدين السبكي آيات القرآن الكريم في شأن الذبيح فوجد فيها أن البشارة مرتين، مرة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِيكَ * رَبُّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾^(٤)، فهذه الآية قاطعة في أن هذا المبشر به هو الذبيح، وقوله: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾^(٥)، فقد صرح فيها أن المبشر به إسحاق ولم يكن من سؤال إبراهيم، بل قالت امرأته: إنها عجوز وإنه شيخ، وكان ذلك في الشام، لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط.

(١) الصافات: الآية ١١٢.

(٢) هود: الآية ٧١.

(٣) البداية والنهاية، ج ١، ص ١٥٧، ١٥٨.

(٤) سورة الصافات: الآيات من ٩٩ - ١٠٢.

(٥) سورة هود: الآية ٧١.

وأما البشارة الأولى فعندما انتقل من العراق إلى الشام، فعلمنا بذلك أنهما بشارتان في وقتين بغير سؤال وهو إسحاق صريحاً، والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره، فتعيّن أن يكون إسماعيل هو الذبيح؛ لأنه بكر إبراهيم بنصّ التّوراة^(١).

ثانياً: التّوراة:

إنّ نصوص التّوراة مع تحريفها لا تزال تنطق عند التأمّل والنقد بأنّ الذبيح هو إسماعيل:

وها هي بعض نصوص التّوراة التي تفضح كذب اليهود وتقر بأنّ الذبيح إسماعيل:

ففي سفر التكوين^(٢): "وتفقد الربّ سارة كما قال، وفعل لها كما وعد، فحملت سارة وولدت لإبراهيم ابناً في شيخوخته في الوقت الذي تكلم الله عنه فسمّاه إسحاق، وختن إبراهيم ابنه وهو ابن ثمانية أعوام كما أوصاه الله، وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد إسحاق".

وفيه أيضاً^(٣): "وولدت هاجر لإبرام ابناً فسمّاه إسماعيل، وكان إبرام ابن ست وثمانين سنة ولدت له هاجر إسماعيل".

فمن النّصّين السّابقين يتّضح أنّ إسماعيل عليه السلام أكبر سنّاً من إسحاق عليه السلام فهو الذي ولد أولاً لسيدنا إبراهيم عليه السلام من زوجه المصريّة هاجر، وعمر إبراهيم عند ولادته ست وثمانون سنة، أمّا عمره عند ولادة إسحاق فكان مائة سنة، وبالتالي فإسماعيل هو البكر لإبراهيم عليه السلام وهو الوحيد حتّى مولد إسحاق.

(١) ابن حجر: فتح الباري، جـ ١٢، ص ٣٧٨، ٣٧٩، السيوطي: الإكليل، ص ٢١٨.

(٢) سفر التكوين، إصحاح ٢١، الفقرات ١، ٢، ٣، ٤، ٥.

(٣) سفر التكوين: إصحاح ١٦ الفقرتان، ١٥، ١٦.

والمدقق في نصوص التّوراة يجد أنّ إسماعيل قد اختتن قبل ولادة إسحاق؛ ففي سفر التّكوين أيضاً^(١): "هل يولد لابن مائة سنة، وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة؟"

وفي السّفر كذلك^(٢): "فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضّته كلّ ذكر من أهل بيت إبراهيم وختن لحم غرلتهم في ذلك اليوم عينه كما كلّّمه الله، وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غرلته، وكان إسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته."

لذلك يتبيّن لنا كذب النّصّ التّوراتيّ: "خذ ابنك وحيدك الذي تحبّه إسحاق، واذهب إلى أرض الموريا، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك"^(٣)، لأنّ إسحاق عليه السلام لم يكن وحيداً قطّ؛ بل كان لإسماعيل نحو أربع عشرة سنة كما هو صريح توراتهم في هذا^(٤)، وقد بقي إسماعيل عليه السلام حتّى مات أبوه الخليل، وحضر وفاته ودفنه^(٥)، ولكنّ اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشّرف، وأحبّوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، فأضافوا إلى النّصّ التّوراتيّ كلمة "إسحاق"، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله^(٦).

(١) سفر التكوين، إصحاح ١٧، الفقرة ١٧.

(٢) سفر التكوين، الفقرات ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦.

(٣) سفر التكوين، إصحاح ٢٢، فقرة ٢.

(٤) سفر التكوين، إصحاح ٢٥، الفقرتان ٧ - ٩.

(٥) محمد محمد أبو شهبة: الإسرائيليات والموضوعات، ص ٢٥٦.

(٦) ابن القيم: زاد المعاد، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج ١،

ثالثاً: الإنجيل:

إنّ النصّ الذي ورد في الرسالة إلى العبرانيين تظهر عليه الصنعة غير المحكمة؛ ومحاولة الخروج من مأزق الذبح قبل أن يولد لإسحاق نسل، كما أنّه يقلّل من تضحية إبراهيم وإذعانه لربّه، ما دام أنّه كان على يقين بأنّ الله سيحيي له ولده بعد الموت^(١).

وقد جاء في إنجيل "برنابا" ما ينصّ على أنّ الذبيح هو إسماعيل وأنّ اليهود والنصارى قد حرقوا وبذلوا كلام الله، ففيه أنّ المسيح قال لتلاميذه: "صدقوني لأنّي أقول لكم الحقّ أنّ العهد صنع بإسماعيل لا بإسحاق، حينئذ قال التلاميذ: يا معلّم هكذا كتب في كتاب موسى أنّ العهد صنع بإسحاق، أجاب يسوع متأوفاً: هذا هو المكتوب، ولكنّ موسى لم يكتبه، ولا يسوع، بل أحبارنا الذين لا يخافون الله، الحقّ أقول لكم إنكم إذا أعملتم النظر في كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبتنا وفقهائنا، لأنّ الملاك قال: يا إبراهيم سيعلم العالم كلّه كيف يحبّك الله، ولكن كيف يعلم العالم محبّتك لله، حقّاً يجب عليك أن تفعل شيئاً لأجل محبة الله، أجاب إبراهيم: ها هو ذا عند الله مستعدّ أن يفعل كلّ ما يريد، فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلاً: خذ ابنك بكرك إسماعيل، واصعد الجبل لتقدّمه ذبيحة، فكيف يكون إسحاق البكر وهو لمّا ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين^(٢).

(١) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل (الجزء الأول) التاريخ منذ عصر إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام، ص ١٣٣، ١٣٤.

(٢) إنجيل برنابا: تعريب/ خليل سعادة، نشر/ محمد رشيد رضا، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٥٢.

ونظراً لافتضاح أمر النصارى وظهور كذبهم وتزييفهم كما سبق من اليهود، فإنهم يدّعون أن كاتب هذا الإنجيل مسلم مع أن هذا الإنجيل ظهر قبل بعثة نبينا ﷺ، يقول السيد/ محمد رشيد رضا في مقدمته^(١): "لم نقف على ذكر لإنجيل برنابا في أسفار التاريخ أقدم من المنشور الذي أصدره البابا جلاسيوس الأول في بيان الكتب التي تحرم قراءتها، فقد جاء ضمنها إنجيل برنابا، وقد تولّى جلاسيوس البابوية في أواخر القرن الخامس للميلاد، أي قبل بعثة نبينا محمد ﷺ.

وبعد استعراض آيات القرآن الكريم، ونصوص التّوراة والإنجيل، وما ظهر من دلالة ما سقناه على أن الذّبيح إسماعيل، يتبيّن لنا أن الروايات والآثار التي ساقها رواة الأخبار المسلمون في أن الذّبيح إسحاق إنما هي من إسرائيليات أهل الكتاب، وقد نقلها من أسلم منهم، ككعب الأحبار وحملها عنهم بعض الصّحابة والتّابعين تحسناً للظنّ بهم، فذهبوا إليه، وجاء بعدهم العلماء فاغترّوا بها، وذهبوا إلى أن الذّبيح إسحاق، وما من كتاب من كتب التّفسير، والسّير، والتّواريخ إلا ويذكر فيه الخلاف بين السّلف في هذا، إلا أن منهم من يعقّب ببيان وجه الحقّ في هذا، ومنهم من لا يعقّب اقتناعاً بها، أو تسليمًا لها^(٢).

وبهذا يتبيّن لنا سرّ التّناقض في الرواية عن ابن عبّاس، فالروايات المرفوعة عن ابن عبّاس، والتي تفيد أن الذّبيح هو إسحاق، فهي - وإن كانت غير صحيحة الأسانيد - محمولة على أن ما تضمّنته من أن الذّبيح هو إسحاق، كان رأي ابن عبّاس في أوّل الأمر؛ لأنّه سمع ذلك من بعض

(١) مقدمة إنجيل برنابا، ص ١٨.

(٢) محمد محمد أبو شهبة: الإسرائيليات والموضوعات، ص ٢٥٣، ٢٥٤.

الصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَحْدِثُونَ فِي مِثْلِ هَذَا بِمَا سَمِعُوهُ مِنْ كَعْبٍ وَغَيْرِهِ مِنْ مُسْلِمَةِ الْيَهُودِ، ثُمَّ عَلِمَ بَعْدَ أَنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْيَهُودِ، فَرَجَعَ عَنْهُ، وَصَرَّحَ بِنَقِيضِهِ^(١)، بَلْ رُوي عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: "الْمُفْدِّي إِسْمَاعِيلُ، وَزَعَمَتِ الْيَهُودُ أَنَّهُ إِسْحَاقُ، وَكَذَبَتِ الْيَهُودُ"^(٢).

وبهذا يمكن القول أن الصحيح من الروايات في تعيين الذبيح هي التي تقرّر أنه إسماعيل عليه السلام^(٣).

❏ بناء البيت الحرام:

اختلف العلماء في تعيين الباني للبيت الحرام في الابتداء، ف قيل الملائكة، وقيل آدم، وقيل إبراهيم، ويمكن الجمع بين ذلك بأنّ أول من بناه الملائكة، ثمّ جده آدم، ثمّ إبراهيم^(٤)، والفعل الذي لم يسمّ فاعله في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٥)، يدلّ على أن البيت بني قبل آدم عليه السلام^(٦).

كانت بداية أمر إبراهيم عليه السلام مع بيت الله الحرام عندما أسكن ولده إسماعيل وأمه هاجر في حرم الله، وظاهر ما دلّ عليه القرآن على لسان إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾^(٧)، يدلّ على أنه كان مبنياً واندرس، كما يدلّ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ

(١) محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨١هـ/١٩٦١م، ص ١٦٢.

(٢) الحاكم: المستدرک على الصحيحين، ج ٣، ص ١٥٧.

(٣) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرک، ج ١، ص ١٠٣ - ١١٥.

(٤) الشوكاني: فتح القدير، ج ١، ص ٣٦٢.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٩٦.

(٦) محمد متولي الشعراوي: قصص الأنبياء، ج ١، ص ٥٧٧، ٥٧٨.

(٧) سورة إبراهيم: من الآية ٣٧.

بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ^(١)، على أَنَّ له مكاناً سابقاً كان معروفاً عند بعض الناس^(٢).

ويصرِّح القرآن العظيم باشتراك إبراهيم الخليل وولده إسماعيل في بناء البيت الحرام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ^(٣)﴾، ويتَّضح ذلك من حديث ابن عباس الطَّويل الذي رواه الإمام البخاري^(٤)، وفيه: "... ثُمَّ جَاءَ - يقصد إبراهيم - بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأَعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا - قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاولُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ^(٥)﴾، قَالَ: فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ^(٦)﴾.

وقد أكثر السيوطي^(٦) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ^(٧)﴾

(١) سورة الحج: من الآية ٢٦.

(٢) الشنقيطي: أضواء البيان، ج٤، ص٢٩٦.

(٣) سورة البقرة: من الآية ١٢٧.

(٤) صحيح البخاري، (كتاب الأنبياء، باب يزفون)، ج٣، ص١٢٢٩، ح٣١٨٤.

(٥) سورة البقرة: من الآية ١٢٧.

(٦) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج١، ص٣٠٤ - ٣٣١.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٢٧.

من النقل عن الأزرقى وأمثاله من المؤرخين والمفسرين الذين هم كحاطبي ليل، ولا يميزون بين الغث والسمين، والمقبول والمردود في بناء البيت ومن بناه قبل إبراهيم، أهم الملائكة أم آدم؟ والحجر الأسود، ومن أين جاء؟ وقد استغرق في هذا النقل الذي معظمه من الإسرائيليات التي أخذت عن أهل الكتاب بضع عشرة صحيفة، ولا يزيد ما صح منها أو ثبت عن عشر هذا المقدار^(١).

والصواب أن يقال: إن الله ﷻ أخبر عن إبراهيم خليله أنه وابنه إسماعيل رفعوا القواعد من البيت الحرام، ولا علم عندنا بأي ذلك من أي؛ لأن حقيقة ذلك لا تدرك إلا بخبر عن الله ورسوله ﷺ بالنقل المستفيض، ولا خبر بذلك تقوم به الحجة^(٢).

وقد كان من دعاء إبراهيم وولده إسماعيل وهما يرفعان قواعد البيت: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣).

وقد وافقت دعوة إبراهيم المستجابة قدر الله السابق في تعيين سيدنا محمد ﷺ رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن أجمعين^(٤).

(١) محمد محمد أبو شهية: الإسرائيليات والموضوعات، ص ١٦٨.

(٢) الطبري: التفسير، ج ١، ص ٥٤٩.

(٣) سورة البقرة: الآيتان ١٢٨، ١٢٩.

(٤) ابن كثير: التفسير، ج ١، ص ١٨٥.

كما استجاب الله دعاء إبراهيم لمكة كلها بالأمن عندما قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾^(١)، فقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾^(٢)، وقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾^(٣)، وقد عرّف إبراهيم البلد في هذه القصة بقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾^(٤)؛ لأنه دعا به بعد بنائها^(٥).

ولما أتم إبراهيم بناء البيت أمره ربه بتهيئته لمن يطوفون به، ويعتكفون فيه، ويتقربون إلى الله بداخله، كما أمره بدعوة الناس إلى حجّ هذا البيت، فإنهم عن طريق الحجّ إليه سينالون الخير الجزيل، والأجر الوفير، والمنافع التي لا يعرف مقدارها إلا الله تعالى^(٦)، وذلك قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ

(١) سورة إبراهيم: من الآية ٣٥.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٧.

(٣) سورة آل عمران: الآيتان ٩٦، ٩٧.

(٤) سورة إبراهيم: من الآية ٣٥.

(٥) ابن كثير: التفسير، ج ٢، ص ٥٤١.

(٦) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، ج ١، ص ١٨٦.

فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ
وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ^(١).

ولا يزال وعد الله يتحقق منذ عهد إبراهيم عليه السلام إلى اليوم والغد،
ولا تزال أفئدة من الناس تهوي إلى البيت الذي أعنته الله من الجابرة،
كما روى عبد الله بن الزبير رضي الله عنه مرفوعاً أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "إِنَّمَا سَمَى اللَّهُ
الْبَيْتَ الْعَتِيقَ، لِأَنَّهُ أَعْتَقَهُ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، فَلَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ جَبَّارٌ قَطُّ"^(٢).

ومن خلال العرض القرآني والسنة النبوية لتاريخ إبراهيم
وإسماعيل عليهما السلام وتاريخ بيت الله العتيق وحرمة الأمن يلاحظ أَنَّ إبراهيم
وإسماعيل كانا سادنين^(٣) لبيت الله العتيق، وذلك يعني أَنَّ بيت الله العتيق
الذي جعله الله دوماً عتقاً من الجابرة، لم يملكه أحد على مدار تاريخه
الطويل، وسيظل كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها^(٤).

(١) الحج: الآيات ٢٦ - ٢٩.

(٢) الترمذي: السنن، وقال: "هذا حديث حسن غريب"، (كتاب التفسير، باب ومن سورة الحج)،
ج٥، ص٣٢٤، ح٣١٧٠، واستدركه الحاكم على الصحيحين، وقال: "على شرط البخاري"،
وقال الذهبي: "على شرط مسلم". المستدرك، ج٢، ص٤٩٦، ح٣٥١٥.

(٣) السادن: خادم الكعبة وبيت الأصنام والجمع سدنة. ابن منظور: لسان العرب، ج١٣،
ص٢٠٧.

(٤) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (جزيرة العرب)، ج٢، ص٨٧.

لوط عليه السلام

نسبه ونشأته:

اتفق الرواة على أن لوطاً من بيت إبراهيم، ثم اختلفوا، أهو من ولده أو من ولد أخيه^(١)، والذي عليه جمهور العلماء أنه ابن أخي إبراهيم الخليل الذي يسمّى هاران^(٢)، وهو الذي عليه أهل الكتاب^(٣).

وقد ولد لوط عليه السلام بأرض بابل التي ولد فيها الخليل إبراهيم من قبل^(٤)، ولم يذكر القرآن العزيز إلا لوطاً فيمن آمن بإبراهيم عليه السلام عندما دعا قومه إلى عبادة الله ﷻ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ﴾^(٥).

هجرة لوط عليه السلام وبعثته:

لما أعلن لوط إسلامه ورأى إيذاء قومه لإبراهيم الخليل، وإصرارهم على الكفر والعناد، خرج مهاجراً مع إبراهيم فراراً بدينه إلى بيت المقدس، أو بلاد الشام^(٦)، وذلك قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾^(٧)، ثم اصطفاه الله ﷻ بعد هجرته - فأوحى إليه، وآتاه ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾^(٨)، وجعله من المرسلين، كما نصّ عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٩).

(١) الحاكم: المستدرك على الصحيحين، جـ ٣، ص ١٦٢.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ١، ص ١٤٨، الحاكم: المستدرك، جـ ٣، ص ١٦٣، ابن

عساكر: تاريخ دمشق، جـ ٥٠، ص ٣٠٦، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٤٩.

(٣) آمال ربيع: الإسرائيليات في تفسير الطبري، ص ١٣١.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٤٠.

(٥) سورة العنكبوت: من الآية ٦٧.

(٦) الطبري: التفسير، جـ ١٧، ص ٤٥، السمرقندي: التفسير، جـ ٢، ص ٤٣٢.

(٧) سورة الأنبياء: الآية ٧١.

(٨) سورة الأنبياء: من الآية ٧٤.

(٩) سورة الصافات: الآية ١٣٣.

❏ مدائن قوم لوط عليه السلام:

لقد ذكر القرآن الكريم قرى قوم لوط بلفظ «المُؤْتَفَكَة»^(١)، «والمُؤْتَفَكَات»^(٢)، وفصلت التّوراة تلك القرى، فذكرت القرية العظمى باسم "سدوم"، وأعمالها باسم عمور، وأروم، وصعور، وصابور^(٣)، وقد أخذت المصادر العربيّة^(٤) تلك الأسماء مع بعض التّغييرات في الرّسم - من مصدر لآخر - عن الإسرائيليات والنصوص العبريّة^(٥).

وكان موقع سدوم وأعمالها التي تضاف إليها بأرض "غور زغر"، المتاخمة لجبال بيت المقدس^(٦)، فلمّا وقع عليها العذاب، وانقلبت على أهلها، حلّ البحر الميت^(٧) الذي يقع في بلاد الأردنّ محلّها^(٨).

ولم يكن للوط نسب في قرى سدوم، ولم يكن له بينهم عشيرة، ولعلّ التّعبير بقوله تعالى: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ»^(٩)، يدلّ على ذلك حيث لم يذكر أنّه أرسل منهم^(١٠)، وقيل كانوا معارفه^(١١)، وأصهاره^(١٢).

(١) سورة النجم: من الآية ٥٣.

(٢) سورة الحاقة: من الآية ٩.

(٣) سفر التكوين، إصحاح ١٩، الفقرات ١، ٢٣، ٢٤.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص١٧٥، البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق/ مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ج٣، ص٧٢٩، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٥٠، ص٣٠٩، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٠٠، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص١٥٢.

(٥) آمال ربيع: الإسرائيليات في تفسير الطبري، ص١٤٦، ٢٦٢.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص١٧٦.

(٧) يقع البحر الميت في دولة الأردن على الحدود مع فلسطين. سامي عبد الله أحمد المغلوث: أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، ص١٢٦.

(٨) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص٤٨، ٤٩.

(٩) سورة الحاقة: من الآية ٩٠.

(١٠) محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء، ص٢٣٥.

(١١) الرازي: التفسير الكبير، ج٢٨، ص١٣٨.

(١٢) البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، بيروت، ج٥، ص٢٢٥.

❏ أحوال المجتمع الذي نزل فيه لوط عليه السلام:

كان أهل سدوم ومن حولهم مشركين بالله ﷻ كما كانت أخلاقهم قد ذهبت، فأصبحوا من أفجر الناس وأكفرهم، وأسوئهم طويّة، وأرداهم سريرة وسيرة، وشدّوا في عقولهم، وفي سلوكهم، وفي تصرفاتهم، فكانوا يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون، وقد ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين^(١)، وبلغ من فجورهم أنهم كانوا معالنين بالفاحشة، لا يتستر بعضهم من بعض، خلاعة، ومجانة، وانهماكاً في المعصية^(٢).

❏ دعوة لوط عليه السلام لمن بعث فيهم:

دعا لوط قومه إلى أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً، وأن يطيعوا رسولهم، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾^(٣)، ونهاهم عن تعاطي المحرمات، والفواحش المنكرات، والأفاعيل المستقبحات^(٤)، التي ابتدعوها في العالم ممّا لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعلها من إتيان الذكور دون الإناث^(٥)، قال تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنِّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٧٦.

(٢) الزمخشري: الكشاف، جـ ٣، ص ٣٧٨.

(٣) سورة الشعراء: الآيات ١٦١ - ١٦٣.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٧٦.

(٥) ابن كثير: التفسير، جـ ٣، ص ٣٤٥.

نَادِيَكُمْ الْمُنْكَرُ»^(١)، «أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ»^(٢)، وأعلمهم أنه لا يطلب منهم جزاء على دعوته لهم، «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(٣).

ويلاحظ المنتبّع لقصة لوط عليه السلام ودعوته لقومه أنه يكثر من نهيهم عن فعل المنكرات وإتيان الذكور مع إصرارهم على كفرهم، وهذا يفيدنا بأن الداعي إلى الله تعالى لا يعلّق إنكاره على معصية الكافر إلى حين إسلامه، وإنما ينهاه عن المعاصي التي يرتكبها، وخاصة إذا كانت تلحق الضرر بالمجتمع، وتشيع الفساد في الأرض^(٤).

❏ رد قوم لوط على نبيهم:

لم يستجب قوم لوط لدعوات نبيهم، وتمادوا في ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، وجدّوا رسالة نبيهم كما أخبر القرآن عنهم، «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ»^(٥)، «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ»^(٦)، ولم يغيروا سلوكهم، ولم ينتهوا عن ارتكاب الفواحش والمنكرات، بل توعّدوا نبيهم بالطرد من بلادهم، «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ»^(٧)، وكلّما طالبهم بالتغيير والكفّ عن فعلتهم

(١) سورة العنكبوت: الآيتان ٢٨، ٢٩.

(٢) سورة الشعراء: الآيتان ١٦٥، ١٦٦.

(٣) سورة الشعراء: الآية ١٦٤.

(٤) عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ج١، ص ٢٣٤.

(٥) سورة الشعراء: الآية ١٦٠.

(٦) سورة القمر: الآية ٣٣.

(٧) سورة الشعراء: من الآية ١٦٧.

الشَّيْعة كان جوابهم: «أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ»^(١)، وقد بيَّنوا السَّبب الذي اتَّفقت عليه قلوبهم المنكوسة، فتفوَّهت ألسنتهم الخبيثة عن لوط وأهله المؤمنين قائلين: «إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ»^(٢).

لقد غدت الطَّهارة جريمة في عرف قوم لوط الجاهلين، ولم يسمحوا للشرفاء الأطهار أن يعيشوا بينهم وعلى أرضهم، لأنَّ ذلك يذكّرهم بجريمتهم وفعلتهم القبيحة، ويحرمهم من الجوّ الملائم لارتكاب رذيلتهم^(٣)، فأظهر نبيّهم كراهيته للمعاصي التي يرتكبونها وبغضه الشديد لها^(٤)، «قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ»^(٥)، وتبرأ إلى الله من عملهم^(٦)، ثمَّ خوفهم من عذاب الله، وحذرهم نقمته؛ لئلا يكون مقصراً في التبليغ^(٧)، «وَلَقَدْ أُنذِرَهُمْ بِطُشَّتِنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ»^(٨)، فزاد استهزاؤهم وعنادهم حتّى قالوا لنبيّهم: «إِنَّا بَعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»^(٩)، فعند ذلك استغاث لوط بربه وسأله النّجاة من عقوبته لهم على ما يعملون من إتيان الذّكران^(١٠)، فقال: «رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ»^(١١)، فأجاب الله

(١) سورة النمل: من الآية ٥٦.

(٢) سورة النمل: من الآية ٥٦.

(٣) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى، ص ٤٨، ٤٩.

(٤) الزمخشري: الكشاف، ج ٣، ص ٣٣٦.

(٥) سورة الشعراء: الآية ١٦٨.

(٦) ابن كثير: التفسير، ج ٣، ص ٣٤٦.

(٧) الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٥٤.

(٨) سورة القمر: الآية ٣٦.

(٩) سورة العنكبوت: الآية ٢٩.

(١٠) الطبري: التفسير، ج ١٩، ص ١٠٦.

(١١) سورة الشعراء: الآية ١٦٩.

دعاه لنفسه وأهله إلا امرأته؛ لأنها كانت بدعوته من المكذبين، فضربها الله تعالى مثلاً للكافرين: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةً نُّوحٍ وَامْرَأَةً لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾^(١).

وقد نعت القرآن الكريم امرأة لوط بالخيانة؛ لعدم اتباعها لزوجها ومعاونتها لقومه بإخبارهم عن ضيفانه^(٢)، وليس المراد أنها كانت على فاحشة -حاشا وكلا ولما- فإن الله لا يقدر لنبي قط أن تبغي امرأته، كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف: "ما بغت امرأة نبي قط"، ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيراً^(٣)، لأن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء^(٤).

❏ هلاك قوم لوط:

عندما أراد الله تعالى إهلاك قوم لوط أرسل إليهم الملائكة ليقلبوا عليهم قراهم، فمروا في طريقهم بخليل الله إبراهيم فظنهم ضيوفاً وقام لهم بواجب الضيافة، فأعلموه بحالهم، وبشروه بغلام عليم، وقد صور الحق ﷻ ذلك المشهد في غير موضع من القرآن الكريم فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوهُ بِغُلَامٍ عْلِيمٍ﴾^(٥).

(١) التحريم: الآية ١٠.

(٢) الحاكم: المستدرک علی الصحیحین، ج ٣، ص ١٦٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٨٢.

(٤) ابن كثير: التفسير، ج ٤، ص ٣٩٤.

(٥) سورة الذاريات: الآيات ٢٤ - ٢٨.

وسألهم عن وجهتهم فأخبروه، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾^(١)، ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾^(٢)، فجادلهم إبراهيم في أمرهم، وناقشهم في هلاكهم، فأعلموه بأن قضاء الله قد نفذ فيهم، وأن كلمته قد حقت عليهم بالهلاك، وأن بأسه الذي لا يردّ عن القوم المجرمين قد حلّ بهم^(٣)، ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾^(٤)، فعند ذلك خاف إبراهيم على ابن أخيه لوط من الهلاك في قري قومه، ﴿قَالَ إِن فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾^(٥).

خرجت الملائكة من عند إبراهيم وجاءوا نبيّ الله لوطاً في أحسن صورة فظنّهم ضيوفاً، ولكنّه سرعان ما اغتمّ لما رأى من جمالهم، وما يعلمه من فسوق قومه، ووقع ما تخوّف منه فجاءه قومه يدفع بعضهم بعضاً من شدّة الفرح يطلبون فعل الفاحشة في أضيافه، وحاول لوط أن يثنيهم عن عزمهم الخبيث بكلّ وسيلة صالحة، فعرض عليهم الزّواج من بناته فرفضوا، وذكرهم بتقوى الله فلم يكن من بينهم مذكّر، وحاول إيقاظ مشاعر النّخوة والمروءة فيهم تجاه الضّيفان فلم يجد بينهم رجلاً رشيداً، واستحكم الهمّ على نبيّ الله لوط، فأخذ يردد: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي

(١) سورة الذاريات: الآيات ٣٢ - ٣٤.

(٢) سورة العنكبوت: من الآية ٣١.

(٣) ابن كثير: التفسير، ج ٢، ص ٤٥٤.

(٤) سورة هود: الآية ٧٦.

(٥) سورة العنكبوت: الآية ٣٢.

إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»^(١)، فأخبرته الملائكة عند ذلك أنهم رسل الله جاءوا لإهلاك القوم المجرمين.

وهذا التطلع إلى القوة من لوط لا يقدح في إيمانه وتوكله على الله تعالى؛ لأن وجود القوة المادية التي تحفظ الحق وترد الاعتداء وتمنع الظلم أمرٌ جيّد ومطلوب، وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بإعداد القوة لإرهاب الكافرين، ومنعهم من إيذاء المسلمين والتسلط عليهم^(٢).

وقد صور القرآن العظيم ذلك اليوم العصيب على لوط فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾^(٣).

استعدّ لوط للخروج من القرية قبل أن يدركه الصبح كما أمرته الملائكة، وترك المجرمين يتدافعون على ضيفانه، فلما هجموا عليهم طمس الله أعينهم، فرجعوا على أدبارهم لا يبصرون شيئاً^(٤)، كما قال

(١) سورة هود: الآية ٨٠.

(٢) عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ج ١، ص ٢٣٤.

(٣) سورة هود: الآيات ٧٧-٨١.

(٤) ابن كثير: التفسير، ج ٤، ص ٢٦٧.

الله: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرُ﴾^(١)، ونجى الله عبده ونبيه لوطاً وآل بيته الذين آمنوا معه في وقت السحر قبيل ميعاد وقوع العذاب بالكافرين، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةٌ مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾^(٢)، ولما كانت امرأة لوط من الكافرين فقد استثنّاها الله ﷻ من الناجين، ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾^(٣)، ولم يؤمن بلوط رجل واحد من قومه، ولذا جاء التعبير القرآني: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٤).

وقد جمع الله ﷻ على قوم لوط أنواعاً من العذاب جزاء وفاقاً على تكذيبهم بنبيهم، وقطعهم لطريقهم، وتركهم لما أحل الله لهم من نسائهم، وإتيانهم المنكر في ناديتهم، فقلب عليهم قراهم وجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، وأرسل عليهم الصيحة، ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ﴾^(٥)، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّتَّصُودٍ * مَّسُومَةٍ عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ﴾^(٦).

(١) سورة القمر: الآية ٣٧.

(٢) سورة القمر: الآيتان ٣٤، ٣٥.

(٣) سورة الصافات: الآية ١٣٥.

(٤) سورة الذاريات: الآيتان ٣٥، ٣٦.

(٥) سورة الحجر: الآيتان ٧٣، ٧٤.

(٦) سورة هود: الآيتان ٨٢، ٨٣.

وكان الصيحة التي أخذتهم كانت جزاء لترويعهم لنبيهم عند نزول الضيفان به، وقطعهم لسبيلهم، وترويعهم للمارين ببلادهم، وكان قلب قريتهم جزاء لقلبهم للفطرة السوية وإتيانهم الرجال دون النساء، وكانت الحجارة المسومة المعلمة لإعلانهم بالمعصية في ناديم، وإعلامهم للناس بوقاحتهم.

❏ الاعتبار بمآل قوم لوط:

لقد جعل الله مكان المؤتفكات بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لها، لردائها ودناءتها، فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله، ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين في إنجائهم إياهم من المهلكات، وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور.

فالعاقل اللبيب الخائف من ربه يمتثل ما أمره الله ﷻ به، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله ﷺ من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال، وإيّاه أن يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾^(١).

ويريد الله ﷻ للمؤمنين ألا يغفلوا عن مواطن العظة، وألا يستهينوا بالمثالات التي قد خلت من قبلهم.

وينبغي على المسلم إذا مرّ بديار المغضوب عليهم والمعدّيين ألا يدخلها إلا لضرورة، ولا يقيم بها، بل عليه أن يسرع، ويتنقّع بثوبه حتى يجاوزها، ولا يدخل عليهم إلا باكياً معتبراً، كما فعل النبي ﷺ وأمر به عندما مرّ بديار ثمود بالحجر، وكما فعل في وادي مُحَسَّر بين منى وعرفة، فإنه المكان الذي أهلك الله ﷻ فيه الفيل وأصحابه^(٢)، ومثل هذين الموضعين بل أشدّ منهما بحيرة قوم لوط.

(١) سورة هود: من الآية ٨٣. وينظر ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٨٢، ١٨٣.

(٢) ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، جـ ٢، ص ٣٦٤.

إسماعيل عليه السلام

مولده ونشأته:

لقد صحت الأخبار عن رسول الله ﷺ بأن السيدة هاجر - أم إسماعيل - مصرية، وقد سبق أن جبار مصر على عهد نبي الله إبراهيم قد أعطاها لسارة^(١)، ولذلك أوصى النبي ﷺ أمته خيراً بأهل مصر لأجل أم إسماعيل، كما روى كعب بن مالك ؓ أن رسول الله ﷺ قال: "إذا افتتحت مصر فاستوصوا بالقبط"^(٢) خيراً فإن لهم ذمة^(٣) ورحماً". قال الزهري: "فالرحم أن أم إسماعيل منهم"^(٤).

وقد ابتلي إسماعيل طفلاً مع أمه هاجر بمحنة إيعاده في واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم فصبرا صبراً جميلاً، حتى أنبع الله لهما زمزم، وأتاهم بقبيلة جرهم فسكنت بجوارهما على شرط السيدة أم إسماعيل.

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، جـ ٣، ص ١٢٢٥، ح ٣١٧٩، مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل)، جـ ٤، ص ١٨٤٠، ح ٢٣٧١.

(٢) القبط: جيل بمصر، وقيل هم أهل مصر، منهم مارية القبطية أم إبراهيم ابن النبي ﷺ. ابن منظور: لسان العرب، جـ ٧، ص ٣٧٣.

(٣) الذمة: العهد والأمان والضمان والحرمة والحق، وسمى أهل الذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، جـ ٢، ص ١٦٨.

(٤) عبد الرزاق: المصنف، (كتاب أهل الكتاب، باب وصية النبي ﷺ بالقبط)، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، جـ ٦، ص ٥٨، ابن هشام: السيرة النبوية، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، جـ ١، ص ٩، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وأقره الذهبي. المستدرک، جـ ٣، ص ١٥٦، ح ٤٠٨٣، وقال الهيثمي: "رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح". مجمع الزوائد، جـ ١٠، ص ٦٣، وأقرّ الألباني الحاكم والذهبي. سلسلة الأحاديث الصحيحة، جـ ٣، ص ٣٦٦، ح ٣٧٤.

عرف إسماعيل صبيّاً بالصّلاح والصّبر الشّدِيد على أوامر الله تعالى، وهو ما سجّله عنه ربّه بقوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١).

ولمّا ابتلاه الله تعالى بالذّبح صبر صبراً جميلاً مع أبيه، وتلقّى الأمر في طاعة واستسلام ورضىّ ويقين، وصدق وعده الذي قطعه على نفسه عندما قال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢)، ولعلّ صدقه في هذا الوعد هو الذي جعل ربّه ﷻ ينوّه به في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾^(٣)، ويخصّه بذلك في القرآن الكريم من بين سائر الأنبياء والمرسلين.

❏ تعلّم إسماعيل عليه السلام اللغة العربية:

اختلفت الروايات عن الصحابة رضي الله عنهم في تعلّم إسماعيل للغة العربيّة، فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ إسماعيل هو "أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَوَضَعَ الْكِتَابَ عَلَى لَفْظِهِ وَمِنْطِقِهِ، ثُمَّ جُعِلَ كِتَابًا وَاحِدًا مِثْلَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْمُوصُولُ، حَتَّى فَرَّقَ بَيْنَهُ وَلَدُهُ"^(٤)، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ تلا: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٥)، ثمّ قال رسول الله ﷺ: "أَلْهِمَ إِسْمَاعِيلُ هَذَا اللِّسَانَ إِلَهُامًا"^(٦).

(١) سورة الأنبياء: الآيتان ٨٥، ٨٦.

(٢) سورة الصافات: من الآية ١٠٢.

(٣) سورة مريم: من الآية ٥٤.

(٤) الحاكم: المستدرک، ج٣، ص١٥٥، ح٤٠٨٠. وقد صحح الحاكم إسناده الرواية، ولكنّ الذهبي خالفه وضعف الإسناد.

(٥) فصلت: الآية ٣.

(٦) الحاكم: المستدرک، ج٣، ص٤٦، ح٣٦٩٢. وصحح الحاكم الإسناد، وضعفه الذهبي.

وفي رواية عن جابر رضي الله عنه بلفظ: "أَلْهَمَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - هَذَا اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ إِلْهَامًا"^(١)، ولم يصحّ حديث إلهام العريّة لأيّ من النّبیین الکریمین^(٢).

والصّحيح ما رواه ابن عبّاس رضي الله عنه في الحديث الطّويل عن هاجر وإسماعيل -عليهما السلام- وفيه: "وتعلم العربية منهم"^(٣)، يقصد قبيلة جرهم التي ساكنتهم في مكّة.

وقد استنبط الحافظ ابن حجر من رواية البخاري أنّ لسان أمّ إسماعيل وأبيه لم يكن عربيّاً، وضعّف به قول من روى أنّه أوّل من تكلم بالعربيّة^(٤).

ويمكن الجمع بين الروايات السّابقة بما رواه الزّبير بن بكار في النّسب من حديث عليّ رضي الله عنه بإسناد حسن، قال: "أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ اللَّهَ لِسَانَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبِينَةِ إِسْمَاعِيلُ"، وبهذا القيد تكون أوّليته في ذلك بحسب الزّيادة في البيان لا الأوّلية المطلقة، فيكون بعد تعلّمه أصل العربيّة من جرهم ألهمه الله العربيّة الفصيحة المبيّنة فنطق بها، ويشهد لهذا ما حكاه ابن هشام عن الشّرقيّ بن قطاميّ: "إِنَّ عَرَبِيَّةَ إِسْمَاعِيلَ كَانَتْ أَفْصَحَ مِنْ عَرَبِيَّةِ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ وَبَقَايَا حَمِيرَ وَجُرْهُمَ"، ويحتمل أن تكون الأوّلية مقيدة بإسماعيل بالنسبة إلى بقيّة إخوته من ولد إبراهيم، فإسماعيل أوّل

(١) الحاكم: المستدرک، ج٢، ص٤٥٤، ح٣٣٦٥. وقال الحاكم: "هذا حديث غريب صحيح

على شرط الشيخين إن كان الفضل بن محمد حفظه متصلاً عن أبي ثابت".

(٢) الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة، ج٦، ص٤٦٥، ٤٦٦، ح٢٩١٩.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب (يزقون)، ج٣، ص١٢٢٧، ح٣١٨٤.

(٤) ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٤٠٣.

من نطق بالعربية من ولد إبراهيم، وقال ابن دريد في كتاب الوشاح: "أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ يَعْرُبُ بْنُ قَحْطَانَ ثُمَّ إِسْمَاعِيلُ"^(١).

❏ بعثة إسماعيل عليه السلام ودعوته لقومه:

لقد نصّ القرآن الكريم على نبوته ورسالته في قوله تعالى: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا»^(٢)، وهو دليل على أنه كانت له دعوة في قومه، ولا بد أنه استجاب بعض القوم لدعوته؛ فقد كان في العرب قبيل الرسالة المحمدية موحدون، فالأرجح أنهم من أتباع إسماعيل عليه السلام^(٣)، وقد ذكر ابن كثير أن الله تعالى أرسله إلى أهل الحرم ومن والاهم من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن^(٤).

وأشار القرآن الكريم إلى جانب من دعوته لأهله وشريعته التي كان يتعبد بها، وذلك في قوله تعالى: «وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا»^(٥).

وتشير السنة النبوية إلى أنه جاهد في سبيل الله لنشر الإسلام، فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أنه قال: مرَّ النَّبِيُّ ﷺ على نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ يَنْتَضِلُونَ^(٦)، فقال: "ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًّا، ارْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فَلَانِ،

(١) ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٤٠٣.

(٢) سورة الأنبياء: الآيتان ٥٤.

(٣) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (جزيرة العرب)، ج٢، ص٨٣.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص١٩٣.

(٥) سورة الأنبياء: الآيتان ٥٥.

(٦) ينتضلون: يتسابقون في الرَّماء. ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٦٦٥.

قال: فَأَمْسَكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ" قالوا: كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "ارْمُوا فَأَنَا مَعَكُمْ كُلَّكُمْ"^(١).
وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَوْمٌ مِنْ أَسْلَمَ، يَرْمُونَ فَقَالَ: "ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا، ارْمُوا وَأَنَا مَعَ ابْنِ الْأَدْرَعِ"، فَأَمْسَكَ الْقَوْمُ قِسِيَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ كُنْتَ مَعَهُ غَلَبَ. فَقَالَ: "ارْمُوا وَأَنَا مَعَكُمْ كُلَّكُمْ"^(٢).

وبهذه الروايات الصحيحة نستطيع أن نقبل ما روي عن كعب الأحبار أنه قال: "كَانَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ نَبِيَّ اللَّهِ الَّذِي سَمَّاهُ ﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ يُجَاهِدُ أَعْدَاءَ اللَّهِ، وَيُعْطِيهِ اللَّهُ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ وَالظَّفَرَ، وَكَانَ شَدِيدَ الْحَرْبِ عَلَى الْكُفَّارِ، لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَ"^(٣).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي)، جـ ٣، ص ١٠٢٦،

ح ٣٧٤٣، (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ

الْوَعْدِ﴾، جـ ٣، ص ١٢٣٤، ح ٣١٩٣.

(٢) الحاكم: المستدرک على الصحيحين، جـ ٢، ص ٢٢١، ح ٢٥١٢، وقد صححه الحاكم على

شرط مسلم، وأقره الذهبي.

(٣) الحاكم: المستدرک على الصحيحين، جـ ٣، ص ١٥٦، ح ٤٠٨٤. وقال الذهبي في التلخيص:

"إسناده ضعيف".

إِسْحَاقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

لقد ذكر القرآن الكريم نبيَّ الله إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في سبعة عشر موضعاً، وبالرغم من ذلك تندر المعلومات الصحيحة حول نبيِّ الله إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنَّ حديث القرآن الكريم عنه جاء في الأعم الأغلب - مرتبطاً بنبيِّ الله إِبْرَاهِيمَ (١).

ويدور حديث القرآن عن إِسْحَاقَ في عدة محاور:

أولها: بشرى الملائكة لنبيِّ الله إِبْرَاهِيمَ وزوجه سارة بمولده بعدما تقدّم بهما العمر، وذلك في نحو قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (٢)، وقوله: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (٣).

ثانيها: ثناء الله ﷻ عليه كنبى من الصالحين، كقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٤)، وقوله أيضاً: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ (٥).

(١) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، ج ١، ص ١٩٧.

(٢) سورة الصافات: الآيتان ١١٢، ١١٣.

(٣) سورة هود: الآيات ٧١ - ٧٣.

(٤) سورة الصافات: الآية ١١٢.

(٥) سورة الأنعام: من الآية ٨٤.

ثالثها: الإشارة إلى أنه كان كثير العلم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرُوهُ بَغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾^(١).

رابعها: الإشارة إلى جانب من دعوته إلى الإسلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾^(٢).

ولم تكن دعوة إسحاق إلى يهودية ولا نصرانية، وإنما كان يدعو إلى الإسلام كأبيه وأخيه وذريته من النبيين من بعده؛ لنص القرآن الكريم على ذلك^(٣).

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ

(١) سورة الذاريات: من الآية ٢٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآيتان ٧٢، ٧٣.

(٣) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى،

وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ * قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ^(١).

وأما السَّنة النبوية الصحيحة فلم يرد ذكره فيها إلا عرضاً في الحديث عن نبي الله يوسف عليه السلام وقد ذكرت عنه أنه نبي كريم ابن نبي كريم، وذلك فيما رواه عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: "الكَرِيمُ بْنُ الْكَرِيمِ بْنُ الْكَرِيمِ بْنُ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنُ إِسْحَاقَ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ"^(٢).

وأما تاريخ حياته فلا يمكن القول إلا أنه ولد في الشام وعاش فيها ودفن فيها أيضاً، وأما غير ذلك مما امتلأت به كتب المؤرخين والمفسرين وأهل الأخبار فلا يمكن التسليم بصحته؛ لنقله عن أهل الكتاب، ولمخالفة أكثره لعقيدة المسلمين^(٣).

(١) سورة البقرة: الآيات ١٣٠، ١٤٠.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ﴾، ج ٣، ص ١٢٤٠.

(٣) سيأتي الحديث عن بعضها في قصة نبي الله يعقوب .

يعقوب عليه السلام

أطلق القرآن الكريم على يعقوب لفظ إسرائيل مرتين، إحداهما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١)، والأخرى في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾^(٢).

ويتفق المفسرون وعلى رأسهم ابن عباس^(٣)، على أن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ويقولون: إن معنى إسرائيل عبد الله، لأن "إسرا" في لغتهم هو العبد، و"إيل" هو الله، وكذلك جبريل هو عبد الله، وميكائيل عبد الله^(٤).

يعقوب عليه السلام في الفكر اليهودي:

يذكر اليهود في توراتهم المحرقة^(٥): أن إسحاق بن إبراهيم الخليل تزوج امرأة فحملت بغلامين في بطن، فلما أرادت أن تضع اقتتل الغلامان في بطنها، فأراد يعقوب أن يخرج قبل عيصو، فقال عيصو: والله إن خرجت قبلي لأعترض في بطن أمي فلاقتلنها، فتأخر يعقوب وخرج عيصو قبله، وأخذ يعقوب بعقب عيصو، فخرج فسمي عيصو لأنه

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٣.

(٢) سورة مريم: من الآية ٥٨.

(٣) الحاكم: المستدرک، ج ٣، ص ١٧٢، ح ٤١٣٠.

(٤) الرازي: التفسير الكبير، ج ٣، ص ٢٩.

(٥) سفر التكوين، إصحاح ٣٤.

عصى، وسمي يعقوب لأنه خرج آخذاً بعقب عيصو، وكان أكبرهما في البطن، ولكنه عصى وخرج قبله، فكبر الغلامان، وكان عيصو أحبهما إلى أبيه، وكان يعقوب أحبهما إلى أمه، وكان عيصو صاحب صيد، فلما كبر إسحاق وعمي قال لعيصو: يا بني أطعمني لحم صيد واقترب مني أدع لك بدعاء دعا لي به أبي، وكان عيصو رجلاً أشعر، وكان يعقوب رجلاً أجرد، فخرج عيصو يطلب الصيد، وسمعت أمه الكلام فقالت ليعقوب: يا بني، اذهب إلى الغنم فاذبح منها شاة، ثم اشوه، والبس جلده وقدمه إلى أبيك، وقل له: أنا ابنك عيصو، ففعل ذلك يعقوب، فلما جاء قال: يا أبتاه كل، قال: من أنت؟ قال: أنا ابنك عيصو، قال: فمسه: فقال: المسّ مسّ عيصو، والريح ريح يعقوب، قالت أمه: هو ابنك عيصو فادع له، قال: قدّم طعامك، فقتمه فأكل منه، ثم قال: ادن مني، فدنا منه، فدعا له أن يجعل في ذريته الأنبياء والملوك، وقام يعقوب، وجاء عيصو فقال: قد جئتك بالصيد الذي أمرتني به، فقال: يا بني قد سبقك أخوك يعقوب، فغضب عيصو وقال: والله لأقتلنه إلخ.

وبالرغم من تهافت هذه القصة وظهور بطلانها، فقد انتقلت إلى المصادر الإسلامية، وشاعت في كتب المفسرين^(١)، والمؤرخين^(٢)، بل والمحدثين^(٣)، ولئن جاز نقلها فلا أقلّ من عزوها لأهل الكتاب، كما فعل

(١) الثعلبي: الكشف والبيان، (تفسير الثعلبي)، تحقيق/ أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج١، ص١٨٥، ١٨٦.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص١٩٢، اليعقوبي: التاريخ، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ج١، ص٢٨، ٢٩، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١، ص٩٦.

(٣) الحاكم: المستدرک على الصحيحين، ج٣، ص١٧٢، البدر العيني: عمدة القاري، ج٣، ص١٣٨، ج١٦، ص٤١.

الحافظ ابن كثير^(١)، والعجب العجاب من أبي عبد الله الحاكم الذي استدركها على الصّحّاحين! بالرّغم من ضعف إسنادها وبطلان متنها^(٢).

ولا شك أنّ القصّة تظهر عليها الحكمة الإسرائييّة التي تصوّر الجنيين على أنّهما بطلان عظيمان يقتتلان في بطن أمّهما؛ كما يظهر فيها الفكر اليهوديّ في النّبوة واكتسابها، فإذا كان يعقوب عند المسلمين نبياً جليلاً شارك أباه في الدّعوة إلى الله، ونبذ الوثنيّة، ورفع علم التّوحيد، وإقامة الملة السّمحة، ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٣)، فإنّه عند اليهود شخص محتال، سرق النّبوة من أخيه البكر بطريقة منحطّة^(٤)، واستطاع أن يفرض نفسه على الله، ويجعل نفسه نبياً، ويحوّل رسالة سماويّة إليه بطريق التّدليس والنّصب على منطق مؤلفي العهد القديم^(٥).

وقد سبق الإمام ابن حزم (ت: ٤٥٦هـ/١٠٦٤م) في تفنيد هذه الخرافة، وتبيين ما فيها من فضائح وأكاذيب^(٦).

❏ أولاد يعقوب عليه السلام:

لقد أجمل القرآن الكريم أولاد يعقوب في رؤيا يوسف عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٧).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص ١٩٤،

(٢) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرک، ج١، ص ١٥٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

(٤) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم، ص ٢٠.

(٥) المرجع السابق، ص ٢١.

(٦) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج١، ص ١٠٨.

(٧) سورة يوسف: الآيتان ٤، ٥.

وأما التوراة فنذكر أن يعقوب لما شبّ وبلغ سنّ الرشد تزوّج وأنجب من الذكور اثني عشر ولداً، وذلك أنّه أنجب من زوجته "ليا" ستة أولاد هم: راعوبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وإيساخر، وزابلون، وأنجب من زوجته "راحيل" اثنين هما: يوسف، وبنيامين، وأنجب من زوجته "زلفا" اثنين هما: جاد، وأشير، وأنجب من زوجته "بلها" اثنين هما: دان، ونفتالي^(١).

ولم يرد في القرآن الكريم ولا في الأحاديث النبوية اسم أحد من أولاد يعقوب إلا النبيّ الكريم يوسف عليه السلام.

❏ الطعام الذي حرّمه يعقوب على نفسه:

قصّ علينا القرآن الكريم أنّ نبيّ الله يعقوب حرّم طعاماً على نفسه، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

وثبت في السّنة النبوية أنّ يعقوب عليه السلام مرض مرضاً شديداً فنذر إن شفاه الله ﷻ أن يحرّم على نفسه أحبّ الطّعام إليه، وأحبّ الشراب، فلمّا شفاه الله حرّم على نفسه لحمان الإبل وألبانها، وكانا أحبّ الطّعام والشراب إليه^(٣).

وللحديث بقيّة عن يعقوب وبنيه في قصّة يوسف عليه السلام.

(١) سفر التكوين: إصحاح ٢٩، ٣٠، آمل ربيع: الإسرائيليات في تفسير الطبري، ص ١١٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٩٣.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج ٤، ص ٢٧٧، ح ٢٤٧١. وقد حسن المحققون الحديث.

يوسف عليه السلام

وردت قصة يوسف في القرآن الكريم في سورة كاملة تسمى سورة "يوسف"، وقد ورد في سبب نزولها روايات متعددة منها ما رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: **أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَلَاهُ عَلَى أَصْحَابِهِ زَمَانًا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ قَصَصْتَ عَلَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُورَةَ يُوسُفَ (١).**

ويغلب على الظن أن نزول سورة يوسف كان في الفترة التي أعقبت حادث الإسراء والمعراج، والتي اشتد فيها إيذاء المشركين للنبي ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته السيدة خديجة فكان نزولها تسليّة للنبي ﷺ عما أصابه من قومه، حيث قصّت عليه ما فعله إخوة يوسف به، وما تعرض له هذا النبي الكريم من كيد وحقد، ومن أذى واضطهاد، ومن دسائس ومؤامرات.

وقد قصّ الله علينا قصة نبيه الكريم يوسف بأسلوب مشوق حكيم، يهدي النفوس، ويشرح الصدور، ويكشف عن الخفايا التي لا يعلمها إلا الله تعالى، ويصور أحوال النفس الإنسانية تصويراً بديعاً معجزاً، كما أن السورة قد ساقّت كثيراً من الحكم والعظات، بأسلوب يمتاز بحسن التقسيم، وجمال العرض، والدقة المتناهية في إبراز تسلسل الأحداث (٢).

(١) رواه الحاكم في المستدرک على الصحيحين، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي. المستدرک ج ٢، ص ٤٥٦، ورواه ابن حبان في صحيحه، (صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان) وعلق عليه الشيخ شعيب الأرنؤوط فقال: "إسناده قوي"، ج ١٤، ص ٩٢، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسند حسن كما قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى، ج ١٧، ص ٤٠.

(٢) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، ج ١، ص ٢٠١.

ولا يوجد في كتاب -على الإطلاق- قصّة أجمع وأتمّ في موضع واحد من قصّة يوسف عليه السلام^(١)، وإنّ سورة يوسف لتمثّل النّمودج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفنّي للقصّة، بقدر ما تمثّل النّمودج الكامل لهذا المنهج في الأداء النّفسيّ والعقديّ والتّربويّ، ومع أنّ المنهج القرآنيّ واحد في موضوعه وفي أدائه، إلا أنّ قصّة يوسف تبدو وكأنّها المعرض المتخصّص في عرض هذا المنهج من النّاحية الفنّيّة للأداء^(٢).

وقد أتى شكل القصة آية في العجب، يسلم المشاهد إلى مشهد،
ويجيء النقل أو القطع موحياً ذكياً مثيراً للخيال، وثمة فجوات فنيّة تترك
لخيال المشاهد، وثمة عمق في الصورة يعجز أيّ فنان بشريّ أن يأتي
بمثله^(٣).

📖 نسب يوسف علیہ السلام:

ثبت نسب يوسف إلى أبيه إبراهيم بصحيح الحديث النبوي، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "الكَرِيمُ"^(٤) بَنُ الْكَرِيمِ بَنِ الْكَرِيمِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ"^(٥).

(١) المقدسي: البدء والتاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ٢٠١٠م، مج ١، ج ٣، ص ٦٦، ٦٧.

(۲) سید قطب: في ظلال القرآن، ج-۴، ص ۱۹۵۱.

(٣) أحمد بهجت: أنبياء الله، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٥م، ص ١١٩.

(٤) الكريم: الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل. وقد اجتمع ليوسف شرف النبوة والعلم والجمال والعفة وكرم الأخلاق والعدل ورئاسة الدنيا، فهو نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي ابن رابع أربعة في النبوة. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٤، ص ١٦.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَّعِلِينَ)، ج ٣، ص ١٢٤٠، ح ٣٢١٠.

❏ مولد يوسف عليه السلام ونشأته:

ولد نبيّ الله يوسف في أرض الكنعانيين - فلسطين - فكان واحداً من اثني عشر ولداً ليعقوب عليه السلام ولم يكن ليوسف إلا أخ شقيق واحد من إخوته، غير أن يعقوب كان يحبّ يوسف أكثر من بقيّة أولاده^(١)، لما يرى فيه من المناقب الحميدة، فلما رأى الرؤيا تضاعفت له المحبة، ولا لوم على الوالد في تفضيله بعض أولاده على بعض في المحبة، لأنّ المحبة ليست ممّا يدخل في الوسع^(٢).

وقد كان يوسف عليه السلام على جانب كبير من الحسن، فقد ثبت عن أنس رضي الله عنه أن النّبيّ صلى الله عليه وآله مرّ بيوسف في السّماء الثالثة ليلة الإسراء والمعراج فإذا هو "قد أُعطي شطرَ الحُسْن"^(٣)، كما ثبت عن النّبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال: "أُعطي يوسف وأُمّه شطرَ الحُسْن"^(٤).

❏ رؤيا يوسف عليه السلام:

لقد قصّ علينا القرآن الكريم حديث يوسف مع أبيه يعقوب في الرؤيا التي رآها، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(٥)، وإنّما

(١) المقدسي: البدء والتاريخ، جـ ٣، ص ٦٧، ٦٦.

(٢) الألوسي: روح المعاني، جـ ١٢، ص ١٧١.

(٣) مسلم: الصحيح، (كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وآله)، جـ ١، ص ١٤٥، ١٤٦، ح ٢٥٩، أحمد بن حنبل: المسند، جـ ١٩، ص ٤٨٦، ح ١٢٥٠٥.

(٤) الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ١٧٣، ح ٤١٣٣. وصحح الحاكم الحديث على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وهو كما قالوا. والغالب أنّ أمّه "سارة" هي المقصودة هنا. ابن حجر: فتح

الباري، جـ ٦، ص ٣٩٢.

(٥) سورة يوسف: الآية ٤.

ناجى يوسف أباه بهذه الرؤيا، لاعتقاده كمال علمه، وشفقته عليه، بحيث لو كانت رؤياه تسوؤه لأمكنه صرفها عنه^(١).

وقد علم يعقوب عليه السلام أن الله سيعطي ولده يوسف من فضله عطاء عظيماً، ومنصباً جليلاً، وتوقع أن يصطفيه ربه للنبوّة والرّسالة، لذلك نهاه عن قصّ الرؤيا على إخوته، خوفاً من حسدهم له، ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

ويستفاد من نهى يعقوب عليه السلام ليوسف عن تحديث إخوته برؤياه على جواز ترك إظهار النعمة لمن يخشى منه حسداً ومكروه، إذ العادة تفيد بأن الإخوة والقرابة يحسدون، إلا الأب فإنه يودّ أن يكون ولده خيراً منه، وليس الأخ كالأب، فإنه لا يودّ ذلك لأخيه^(٣).

وقد تكلم المفسرون على تعبير منام يوسف عليه السلام بأنّ الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه، وقد وقع تفسير هذا المنام على أرض مصر، وذلك حين رفع أبويه على العرش وخرّوا له سجداً^(٤).

(١) القاسمي: محاسن التأويل، تحقيق/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت،

الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ج٦، ص١٤٦.

(٢) سورة يوسف: الآيتان ٥، ٦.

(٣) السيوطي: الإكليل في استنباط التنزيل، ص١٥٣.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص٢١٨.

❏ مؤامرة أولاد يعقوب على أخيه يوسف:

كانت محبة يعقوب عليه السلام ليوسف وأخيه وإيثارهما على بقية أولاده سبباً في حسدهم ليوسف وكيدهم له، فأضمرُوا له الشرَّ، ثمَّ تواطؤوا على إلقاء أخيه في البئر، وتظاهروا لأبيهم بحبِّ أخيهمْ حتَّى أخذوه منه، وما إن غابوا عن عينه حتَّى جعلوا يشتمونه ويضربونه ويهينونه بسبب الكلام وقبيح الفعل، ثمَّ نفَّذوا فيه مؤامرتهم الخبيثة^(١)، وقد صور القرآن ذلك أبلغ تصوير، فبيّن حالة إخوة يوسف وهم يتآمرون عليه، وحالتهم وهم يجادلون أباهم في شأنه، وحالتهم وهم ينفذون مؤامرتهم، وحالتهم بعد أن نفذوها وعادوا إلى أبيهم ليلاً يتباكون^(٢)، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَلَكِّينَ * إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ * فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ٢٠٠.

(٢) محمد سيد طنطاوي: القصّة في القرآن الكريم، جـ ١، ص ٢٠١.

كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ^(١).

❏ إخراج يوسف عليه السلام من الجب:

جلس يوسف ينتظر فرج الله ولطفه به، فمرت على طريق البئر سياراة -مسافرون- من الشام إلى مصر، فلما أرسلوا واردهم ليستقي لهم تعلق يوسف بدلوه، فلما خرج ورآه فرح به، فأخفاه المسافرون على أنه بضاعة؛ خوفاً من أن يطلبه أحد من أهله، ولذلك باعوه بثمن قليل تافه، لأنهم كانوا زاهدين في بقائه معهم راغبين في بيعه قبل أن يظهر من يطالبهم به.

وكانت لله ﷻ حكمة عظيمة في دخول يوسف إلى أرض مصر في صورة أسير رقيق، ثم بعد ذلك يملكه زمام الأمور، وكان من تدبير الله ﷻ له وإحسانه إليه، أن اشتراه عزيز مصر، ليتأهل عنده لما يريده الله له من خيري الدنيا والآخرة^(٢).

ولا شك أن وصف الله ﷻ أعلى من كل وصف، وقصصه أحسن من كل قصص، وقد حدثنا عن انتشار يوسف من الجب، وبيعه بثمن بخس، ووصية عزيز مصر لامراته به، ومظاهر رعاية الله له فقال: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ * وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ

(١) سورة يوسف: الآيات ٧، ١٨.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ٢٠٢.

أَكْرَمِي مَتَوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(١).

وقد ذكر أهل النقل أقوالاً متعارضة فيمن اشتراه، وفي الثمن الذي اشتراه به، ولا يتوقف تفسير كتاب الله على تلك الأقوال المتعارضة^(٢)، "والإيمان بظاهر التنزيل فرض، وما عداه فموضوع عنا تكلف علمه"^(٣).

❏ أحوال مصر عند دخول يوسف إليها:

من المشهور عند المؤرخين للتاريخ المصري القديم أن يوسف عليه السلام دخل مصر في أيام احتلال الهكسوس الأسويين لها، وكان القط والجفاف الذي حلّ ببلاد الشام قد دفعهم للبحث عن موارد للعيش، فانتهزوا ضعف البلاد السياسي في أواخر الأسرة الرابعة عشرة، وتمكنوا من غزوها واحتلالها^(٤).

واتخذ الهكسوس مدينة حوت وعرة "هواره" في شرق الدلتا عاصمة لملكهم، وفتحوا أبواب مصر الشرقية لهجرة العناصر السامية والكنعانية من بني جلدتهم فدخلوها أفواجا، وبدل نعت المؤرخ المصري "مانتون" للهكسوس بملوك الرعاة على أن غالبية المهاجرين الأسويين قد نزحوا إلى مصر طلباً للمرعى والحياة الناعمة، وسرعان ما تأثر الرعاة الغزاة بالمصريين وحضارتهم، فانتحلوا بعض عاداتهم، وتسموا

(١) سورة يوسف: الآيات ١٩، ٢١.

(٢) أبو حيان: البحر المحيط، ج ٥، ص ٢٩٢.

(٣) الطبري: التفسير، ج ١٢، ص ١٧٤.

(٤) أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن والسنة، ص ٣٩.

بأسمائهم، يفسّر ذلك تسمية التّوراة للعزير الذي اشترى يوسف وأدخله في خدمته "فوطي فارع"، وهو اسم مصريّ مصحّف عن "بادي بارع" الذي يعني عطية رع^(١).

غير أنّ الرّعاة لم يستطيعوا التّشبه بالمصريّين في صيانتهم لأعراضهم وغيبتهم الشّديدة على نسائهم وبناتهم، لذلك فسد مجتمعهم، وطفأ على السّطح انحلالهم، ويكفي في التّدليل على أفعالهم ما وقع من امرأة عزيزهم، والرّغبة الجامحة لكتاب توراتهم في إيجاد دليل شرعيّ لنيل نزواتهم؛ حتّى افتروا الفضائح على أنبيائهم وخيارهم.

❏ محنة يوسف عليه السلام في بيت العزيز:

إنّ الدّعوة السّافرة الجاهرة التي قصّها علينا القرآن الكريم من امرأة العزيز ليوسف إلى الفحشاء لا تكون أوّل دعوة، إنّما تكون الأخيرة عندما تضطرّ إليها المرأة اضطراراً، وإنّ نشأة يوسف في بيت هذه المرأة في الوقت الذي تتكامل فيه فتوّته وقوّته، وتنضج فيه أيضاً أنوثتها وتكمل ليدلّ على أنّ هذه المفاجأة الغليظة العنيفة قد سبقت بإغراءات طويلة لم يلتفت إليها يوسف عليه السلام^(٢).

وكان وقوع هذه المحنة ليوسف بعد أن آتاه الله حكماً وعلماً، ممّا جعله يفهم الأمور فهماً حسناً، ويزن الأحداث وزناً جيداً، ويحكم عليها حكماً عادلاً^(٣).

(١) أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن والسنة، ص ٤١.

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ١٩٨٠.

(٣) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى،

ولقد صور القرآن العزيز ذلك المشهد العاصف الخطير المثير بأحسن تعبير، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(١).

إنّ هذه الآيات تعرض خبر سيّدة امرأة تطلب ممارسة الفاحشة من خادمها الشابّ المليء بالفتوة، والذي يجب عليه أن يطيعها في قصرها، خاصّة وأنّ من في سنّه يصبّون إلى التمتع بشبابهم، وقد هيّئت المرأة له نفسها وبيتها في وقت غياب زوجها، وزاد اطمئنّانها أنّها تعيش في مجتمع لا يستنكر الفاحشة، وبالرغم من كلّ هذه الظروف المهيأة، فقد وزن يوسف عرض سيّدته بميزان العلم، فأصدر حكمه فيه بالرفض؛ لأنّه يعلم أنّ ذلك حرام، وهو لا يمكن أن يغضب ربّه، أو يظلم نفسه باقتراف الفاحشة، ولا يمكن أن يضيع حق سيده الذي أكرمه، وأدخله بيته وجعله أميناً على عرضه، وبهذا يعطي يوسف عليه السلام القدوة من نفسه للشباب المتعفّف، كما يدفع صفة قويّة في وجه كلّ من يسوق المبررات الواهية لأسباب سقوطه في الوحل^(٢)، والمؤمن القويّ الذي يبتلى بمثل صنيع امرأة العزيز يكون شعاره: ﴿السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾^(٣).

(١) سورة يوسف: الآيات ٢٢، ٢٤.

(٢) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى، ص ٨٧، ٨٨.

(٣) سورة يوسف: الآية ٣٣.

وبالرغم من وضوح النصّ القرآنيّ في صرف الفحشاء عن يوسف الصديق وعدم مخالطته به، فقد أورد النّقال في هذا الموضوع روايات تقدح في عصمة نبيّ الله الكريم، منها: أنّه جلس من المرأة مجلس الرّجل من زوجه، لولا أن رأى صورة يعقوب عاضاً على أصبعيه، في كلام كثير وتطويل لا فائدة منه^(١).

ولا شكّ أنّ هذا الكلام السّاذج منكرٌ مكذوبٌ لا يوافق العقل ولا النّقل، ويتعارض مع عصمة الأنبياء الذين نزّههم الله جميعاً عن الصّغائر والكبائر والكفر والقبائح^(٢)، وأيّ معنى يبقى للعصمة بعد أن جلس بين فخذيهما وخلع سراويله؟^(٣)، ثمّ كيف يتفق ما حيّك حول نبيّ الله يوسف عليه السلام وقول الحقّ ﷻ عقب ذكر الهمّ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٤)، فهل يستحقّ هذا النّساء من حلّ التّكة، وخلع السراويل وجلس بين رجليها؟! ولا أدري أنصدّق الله تبارك وتعالى أم نصدّق كذب بني إسرائيل ومخرّفيهم؟!^(٥).

(١) الطبري: التفسير، جـ ١٢، ص ١٨٣ - ١٩١، تاريخ الأمم والملوك، جـ ١، ص ٢٠٤، ابن أبي حاتم: التفسير، جـ ٧، ص ٢١٢٢ - ٢١٢٤، البغوي: التفسير، جـ ٢، ص ٤١٨ - ٤٢٠، الحاكم: المستدرک، جـ ٢، ص ٤٥٧، جـ ٥، ص ١٧٩، السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جـ ٤، ص ٥٢١، ٥٢٢.

(٢) الإمام أبو حنيفة: الفقه الأكبر، شرح/ الملا علي القارئ الحنفي دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص ١٩، الفخر الرازي: عصمة الأنبياء، مطبعة الشهيد، قم، إيران، ١٤٠٦هـ، ص ٢٨.

(٣) محمد محمد أبو شهية: الإسرائيليات والموضوعات، ص ٢٢٢.

(٤) سورة يوسف: الآية ٢٤.

(٥) محمد محمد أبو شهية: الإسرائيليات والموضوعات، ص ٢٢٣.

ويرى المحققون من المفسرين أن هم يوسف كان مجرد خاطرة قلب بمقتضى الطبيعة البشرية، من غير جزم أو عزم^(١)، وهذا اللون من الهم لا يدخل تحت التكليف، ولا يخل بمقام النبوة؛ لأن الله ﷻ لا يؤاخذ عليه^(٢)، إذ الهم هو المقاربة من الفعل من غير دخول فيه^(٣)، ويؤيد هذا الرأي ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لَأُمَّتِي عَمَّا وَسَّوَسَتْ أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَكَلَّمْ"^(٤)، وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال فيما يروي عن ربه ﷻ: "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ ﷻ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً"^(٥).

وبالرغم من اعتماد أكثر المفسرين والمحققين من العلماء لهذا القول، فإن آية الهم ناطقة بعدم هم يوسف عليه السلام بالسوء والفحشاء

(١) ابن العربي: أحكام القرآن، تحقيق/ محمد عبد القادر عطاء، دار الفكر، بيروت، جـ ٣، ص ٤٧، ابن جزي: التسهيل لعلوم التنزيل، جـ ٢، ص ١١٧، أبو السعود: التفسير، جـ ٤، ص ٢٦٦.

(٢) محمد سيد طنطاوي: القصّة في القرآن الكريم، جـ ١، ص ٢٠١.

(٣) البغوي: التفسير، جـ ٢، ص ٤١٨.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب الإيمان والنذور، باب من هم بحسنة أو سيئة)، جـ ٦، ص ٢٤٥٤، ح ٦٢٨٧، مسلم: الصحيح، (كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر)، جـ ١، ص ١١٦، ح ١٢٧.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب الرقاق، باب إذا حنت ناسياً في الإيمان)، جـ ٦، ص ٢٣٨٠، ح ٦١٢٦، مسلم: الصحيح، (كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب)، جـ ١، ص ١١٨، ح ١٣١.

أصلاً^(١)، لأنَّ نصَّ القرآن على أنَّ الله تعالى صرف السَّوءَ والفحشاء عن يوسف، ولم يصرفه عنهما.

وقد شهد ببراءة يوسف الصِّدِّيق ممَّا يخلُّ بعصمته جميع من لهم تعلُّق بهذه الواقعة، فيوسف عليه السلام ادَّعى البراءة عن الذَّنْب بقوله: ﴿هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾^(٢)، وقوله: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾^(٣)، والمرأة اعترفت بمرادتها له، وقالت للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾^(٤)، وقالت أيضاً: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٥)، وأقرَّ زوج المرأة بقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾^(٦)، ونطق الشَّاهد ببراءته في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٧)، وشهد ربَّ العالمين ليوسف بقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٨)، كما أقرَّ إبليس اللعين بطهارته، لأنَّه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^(٩)، فأقرَّ بأنَّه لا يمكنه إغواء المخلصين،

(١) القاسمي: محاسن التأويل، ج٦، ص ١٦٧.

(٢) سورة يوسف: الآية ٢٦.

(٣) سورة يوسف: الآية ٣٣.

(٤) سورة يوسف: الآية ٣٢.

(٥) سورة يوسف: الآية ٥١.

(٦) سورة يوسف: الآية ٢٨، ٢٩.

(٧) سورة يوسف: الآيتان ٢٦، ٢٧.

(٨) سورة يوسف: الآية ٢٤.

(٩) سورة الحجر: الآيتان ٨٢، ٨٣.

ويوسف من المخلصين لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(١)، فكان هذا إقراراً من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريق الهدى^(٢)، لذا يجب أن يعتقد أن الله ﷻ عصم يوسف ﷺ وبرأه، ونزّهه عن الفاحشة، وحماه عنها، وصانه منها^(٣).

وأما تفسير البرهان الذي أظهره الله ليوسف كي يرجع عن ارتكاب المعصية، بتجلّي وجه يعقوب أو تمثاله أو صورته له، فهو ما جاء في النصوص العبريّة^(٤)، وليس في ذلك شيء عن المعصوم ﷺ.

❏ موقف العزيز من فعل زوجته:

لقد طار يوسف فراراً إلى الباب من امرأة العزيز، ولكنها أسرعت خلفه وأمسكت بثوبه، فتمزّق الثوب في يدها عند الباب، وفي هذه اللحظة دخل العزيز من الباب، ولكن المرأة كانت قد أعدت للمؤامرة جيّداً، فبادرت زوجها باتّهام يوسف، كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٥)، ولم ينطق يوسف إلا بما حدث، ﴿قَالَ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾^(٦)، ولكن الله لا يترك أوليائه لكيد أعدائه، فسخر ليوسف حكماً عدلاً من أهلها، فنطق بكلام رزين يقبله كل عاقل،

(١) سورة يوسف: الآية ٢٤.

(٢) الرازي: التفسير الكبير، ج ١٨، ص ١١٦، ١١٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٠٤.

(٤) آمال ربيع: الإسرائيليات في تفسير الطبري، ص ٢٦٣.

(٥) يوسف: الآية ٢٥.

(٦) يوسف: من الآية ٢٦.

يدين امرأة العزيز، ويبرئ يوسف الصديق، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّن قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّن دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(١)، فتيقن العزيز من براءة يوسف، غير أنه كان رخواً طرياً لا يغار على امرأته، فلم يستتكر فعلها، ولم ينهها عن المنكر، وعمل على ستر الفساد دون معالجته^(٢)، ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِّن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَن هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾^(٣).

❏ افتضاح أمر المرأة وتبريرها لرغبتها:

لقد قصّ علينا القرآن الكريم ما تناقلته ألسنة نساء المدينة عن خبر امرأة العزيز مع فتاها يوسف، وما فعلته معهنّ من أفعال تدلّ على مكرها ودهائها، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنِ نَفْسِهِ فاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾^(٤).

(١) سورة يوسف: الآيتان ٢٦، ٢٧.

(٢) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى، ص ٨٦.

(٣) سورة يوسف: الآيات ٢٨، ٢٩.

(٤) سورة يوسف: الآيات ٣٠ - ٣٢.

لم تعد امرأة العزيز هي التي تراود يوسف وحدها، وإنما اشترك معها نسوة المدينة أيضاً، فلم يجد الشاب أمام هذه الفتنة الخطيرة إلا أن يستنجد بالله - سبحانه وتعالى - لينقذه من هذا البلاء ولو بالسجن، ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١)، لأنَّ السجن على ما فيه من مكروه أهون على النفوس العفيفة، وأحبَّ إليها من التعرض للفاحشة^(٢).

ومن خلال هذه المشاهد نرى صورة من الحياة الاجتماعية لأولئك المحتلّين، فهذه امرأة العزيز في مصر بكلِّ غرائزها ورغباتها الأنثوية واندفاعاتها كما تضعها وتوجّهها تلك البيئة في بلاط الملوك، وإلى جانب طابعها الشخصي الخاصّ الواضح في تصرفها وضوح انطباعات البيئة، ونموذج النسوة من الطبقة العلية، والأضواء التي تلقىها البيئة ومنطقها يتجلّى في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها الذي راودته عن نفسه بعد ما شغفها حباً، والاستنكار الذي تبدو فيه غيرة النسوة من امرأة العزيز أكثر ممّا يبدو استنكار الفعلة، ثمَّ وهلتهنَّ أمام طلعة يوسف، ثمَّ إقرارهنَّ الأنثويّ العميق بموقف المرأة التي كنَّ يغطن بقصّتها ويستكرن موقفها، وإحساس هذه المرأة بهذا الإقرار الذي يشجّعها على الاعتراف الكامل وهي آمنة في ظلِّ استسلامهنَّ لأنوثتهنَّ كما تضعها بيئتهنَّ الخاصة وتوجّهها، ثمَّ ميلهنَّ إلى يوسف بالإغراء والإغواء، رغم

(١) سورة يوسف: الآيات ٣٣، ٣٤.

(٢) سيد أحمد الكيلاني: في موكب النّبیین، ج١، ص ٢٥١.

ما أنطقتهنّ به الوهلة الأولى من نظافته وطهارته البادية في قولهنّ:
﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾^(١).

سجنُ العزيز يوسف عليه السلام:

لقد كانت العدالة تقضي بأن يكرم يوسف على نزاهته وعفته، وأن تعاقب امرأة العزيز على جنائتها وما اجتريته يدها من سيّئات، ولكن الأمر كان بالعكس، فقد قدّم يوسف البريء النقيّ الطاهر فدية لسمعة المرأة التي استهانته بكرامتها وكرامة زوجها، وأرادت أن تلحق به عار الخيانة، فبرّئت الخاتنة، وأدين البريء، وحكم عليه بالسّجن^(٢)، ليكون ذلك أقلّ لكلام الناس في تلك القضية، وأخذ لأمرها، وليظهروا للمجتمع أنّه راودها عن نفسها، فسجن بسببها ظلماً وعدواناً، بالرغم من ثبوت براءته^(٣)، ممّا يشير إلى السياسة الظّالمة التي كان ينتهجها قادة الاحتلال الهكسوسيّ مع رعاياهم.

لم يحبس يوسف في السّجن منفرداً، بل **﴿دَخَلَ مَعَهُ السّجْنُ فِتْيَانًا﴾^(٤)**، أحدهما: رئيس سقاة الملك، والآخر: رئيس الخبّازين، فكان من خبرهما مع يوسف ما قصّ الله ﷻ في كتابه، **﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السّجْنُ فِتْيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبُنَّا بِنَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ***

(١) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى، ص ٧٥، ٧٦.

(٢) محمد علي الصّابوني: النبوة والأنبياء، ص ٢٥٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٠٦.

(٤) سورة يوسف: من الآية ٣٦.

قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ^(١).

وقد انتهز يوسف تلك الفرصة في الدّعوة إلى الله، فدعا صاحبيه إلى التّوحيد، وذمّ لهما عبادة ما سوى الله ﷻ، وصغّر لهما أمر الأوثان وحقّرها، وضعّف أمرها، فكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال؛ لأنّ نفوسهما معظمة له، منبعثة على تلقّي ما يقول بالقبول^(٢)، ثمّ أخبرهما بما طلبا منه فقال: «يَا صَاحِبَي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ»^(٣)، وأعقب ذلك بأن طلب من السّاقى الذي ظنّه ناجياً أن يشرح حاله للملك، فقال له: «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ»^(٤).

❏ نبوة يوسف ﷻ ودعوته:

لقد أرسل الله ﷻ عبده ونبيّه يوسف رسولاً إلى أهل مصر، وذكر ذلك على لسان مؤمن آل فرعون في قوله: «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنَ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ»^(٥)، وكان

(١) سورة يوسف: الآيتان ٣٦، ٣٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٠٦.

(٣) سورة يوسف: الآية ٤١.

(٤) سورة يوسف: من الآية ٤٢.

(٥) سورة غافر: الآية ٣٤.

يوسف رسولاً مسلماً كغيره من النبيين والمرسلين يدعو إلى التوحيد، كما وصّاه أبوه يعقوب وهو يجود بنفسه، وأقرّ له يوسف بذلك، ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

وكانت الدعوة إلى التوحيد والإسلام ونبذ الأصنام والأنداد دعوته لأهل مصر، لم يتركها في يسر ولا عسر، ولم يتوقف لحظة واحدة عن دعوته، من قصر العزيز إلى السجن إلى الملك، في كل ذلك يعلم الناس معنى الإيمان بالله ومعنى التوحيد، فيقول لامرأة العزيز التي لم تخف رباً: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢)، إعلاماً لها بأن لها رباً يأخذ بالذنب ويعاقب عليه، ويستفيض في عرض دعوته في السجن فيقول: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٣٢، ١٣٣.

(٢) سورة يوسف: الآية ٣٧، ٤٠.

(٣) سورة يوسف: الآيات ٣٧، ٤٠.

ولمّا أنعم الله على يوسف بالتمكين في الأرض شكر الله ﷻ تلك النعمة، ووظّفها لخدمة مجتمعه والدعوة إلى الله، ولم يتوقّف عن الدّعوة إلى التّوحيد والإسلام^(١)، وما فتئ يقول: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(٢).

❏ رؤيا الملك وخروج يوسف من السجن:

ظلّ يوسف صابراً على محنة السّجن بضع سنوات حتّى جاءه الفرّج من عند الله؛ وذلك أنّ الملك رأى رؤيا عجيبة هالته وأفرّخته وأقصّت مضجعه، وحاول أن يجد لها تأويلاً، فلم يجد إلى ذلك سبيلاً، حتّى تذكر ساقى الملك الذي نجا من السّجن ما كان من يوسف الصّدّيق، فأولّ يوسف الرّؤيا، كما جاء في كتاب الله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ

(١) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى،

ص ٩٢.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠١.

سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ^(١).

وقد تلقى الملك تأويل يوسف للرؤيا بالقبول التام، وتعجب من هذا السجين الذي يضع خطة اقتصادية شاملة تمكن مصر من اجتياز الأزمة الطاحنة رغم أنه يعيش فيها سجيناً مسلوب الإرادة، فأمر الملك على الفور بإحضاره، ولكن يوسف رفض الخروج من السجن قبل ثبوت براءته، فأعاد الملك المحاكمة من جديد، وثبتت براءته أمام الجميع، ونطقت امرأة العزيز وصويحاتها بمرّ الحقيقة بعد أن ازداد أعجابهنّ بسلوك يوسف القويم وعزّة نفسه.

وعمد يوسف عليه السلام إلى عدم كشف قصّة امرأة العزيز لرسول الملك، وأمره بأن يسأله ويستفهمه عنها، لأنّ السؤال المجمل سيهيّج الملك على البحث والاستعلام، فتحصل ليوسف البراءة، وذلك لأنّ الملك سيأنف من جهله بما يحدث في مملكته، وسيسارع للبحث عنه^(٢).

وكان في تأني يوسف وتنبّته في إجابة الملك وتقديمه سؤال النسوة سدّاً لتسلّق الحاسدين إلى تقبيح أمره عنده، وحطّم لمنزلته لديه، ولئلا يقولوا: ما خلد في السجن إلا لأمر عظيم وجرم كبير، وفيه دليل على أنّ الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب انقضاء الوقوف في مواقفها^(٣).

يقول الله تعالى عن هذا الموقف: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ

(١) سورة يوسف: الآيات ٤٣، ٤٩.

(٢) القاسمي: محاسن التأويل، ج٦، ص ١٨٤.

(٣) الزمخشري: الكشف، ج٢، ص ٤٧٧.

أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ^(١).

وقد أثبت النبي ﷺ على موقف أخيه يوسف وعدم استشرافه للخروج من السجن قبل براءته، ووصفه بالصبر الشديد^(٢).

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يَرْحَمُ اللَّهُ لَوْ طَأَ لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السَّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ، وَنَحْنُ أَحَقُّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لَهُ: ﴿أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾"^(٣).

ولا يفهم من هذا الحديث تفضيل النبي ﷺ يوسف على نفسه، وإنما قال ذلك تواضعاً، والتواضع لا يحط مرتبة الكبير، بل يزيده رفعةً وجلالاً، وقيل: من جنس قوله: "لا تَفْضَلُونِي عَلَى يُونُسَ"^(٤)، وقيل: إنه قاله قبل أن يعلم أنه أفضل من الجميع^(٥).

(١) سورة يوسف: الآيات ٥٠ - ٥٣.

(٢) ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٤١٣.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾، ج٤، ص١٧٣١، ح٤٤١٧، مسلم الصحيح، (كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة)، ج١، ص١٣٣، ح١٥١.

(٤) أخرجه البخاري بلفظ: "لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى". الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قوله: وهل أتاك حديث موسى)، ج٣، ص١٢٤٤، ح٣٢١٥.

(٥) ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٤١٣.

ويدلّ على عظيم حلم يوسف الصّدّيق وحسن أدبه أنّه قال: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾^(١)، فذكر النساء جملة، ليدخل فيهنّ امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح، ولا يقع عليها تصريح^(٢).

❏ تمكين الله ﷻ ليوسف ﷻ في مصر:

تبيّن للملك براءة عرض يوسف وأمانته، وقارن ما وقع عليه من ظلم في أرضه، وما أسداه له ولرعيته من نصائح، فأحبّه وقربّه إليه، وطلب منه أن يكون من خاصته، وأعيان دولته، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُ أَنْفُسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾^(٣)، فاختار يوسف ﷻ ولاية بيت المال والاقتصاد، لأنّه قويٌّ على حفظ تلك الولاية، عليم بكيفيّة ضبطها وإدارتها بما يضمن مصالح البلاد والعباد، من الاحتياط لهم والرقق بهم^(٤)، ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾^(٥).

ولا يخفى أنّ صفتي الأمانة والخبرة من لوازم كلّ مسئول، وخاصة من يتولّى المناصب التي تتعلّق بالمال والاقتصاد، وانعدام أيّ منهما يؤدّي حتماً إلى التفريط أو الإفراط^(٦)، ومن ناحية أخرى فإنّ الملك قد أدرك ببعد نظره أنّ رجاله ليسوا على قدر المسؤوليّة، وأنّ العزيز

(١) يوسف: من الآية ٥٠.

(٢) ابن العربي: أحكام القرآن، ج٣، ص ٥٨.

(٣) سورة يوسف: الآية ٥٤.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص ٢١٠.

(٥) سورة يوسف: الآية ٥٥.

(٦) سيد أحمد الكيلاني: في موكب النّبیین، ج١، ص ٢٥٨.

وهو الرجل الثاني في دولته لا يستطيع إدارة منزله وحفظ حريمه، ناهيك عن إدارة شؤون مملكة كبيرة.

ولا شك أنّ الأزمة القادمة وسني الرّخاء التي تسبقها في حاجة إلى الحفظ والصيانة والقدرة على إدارة الأمور بالدقة وضبط الزّراعة والمحاصيل وصيانتها، وفي حاجة إلى الخبرة وحسن التصرف والعلم بكافة فروع الضرورية لتلك المهمة في سنوات الخصب وفي سني الجذب على السّواء^(١).

إنّ التفاتة واحدة من المسؤولين إلى تاريخ النيل وأخبار المجاعات التي كانت تفتك بجموع الأحياء على أرض مصر، واسترجاع صورتها للحظات، تجعلهم يهربون من تحمّل المسؤولية عندما تلوح لهم بوادر الجفاف، ويبدو أنّهم اعتبروا قبول يوسف لتحمل إدارة البلاد في تلك الظروف من قبيل المجازفة والمخاطرة.

ولقد تحمّل يوسف عليه السلام المسؤولية كاملة، واستطاع أن ينقذ البلاد من الأزمة الاقتصادية الطّاحنة التي عمّت مصر والبلاد المجاورة لها، فعظّمه الملك، وجعل له السّطة على جميع أرض مصر، وكان ذلك جزاء من الله ﷻ ليوسف، لصبره على البلاء والمحن، ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(٢).

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، ص ٢٠٠٥.

(٢) سورة يوسف: الآيتان ٥٦، ٥٧.

وقد أنشد زيد بن محمد بن زيد العلويّ (ت: ٣١٤هـ) في تمكين الله يوسف عليه السلام بعد خروجه من السّجن فقال^(١):

وراء مضيق الخوف مُتَّسِعُ الأَمْنِ * وأولُ مفروح به غاية الحُزن
فلا تياسنْ فالله مَلَكُ يوسفَا * خزائنه بعد الخلاص من السّجن

📖 نجاه مصر والبلاد المجاورة لها من المجاعة:

يتبين ممّا قصّه علينا القرآن الكريم أنّ الخطّة التي وضعها يوسف بعناية الله ﷻ نجحت في تجنب مصر ويلات المجاعة، بل وأنت القوافل من البلاد الشاميّة تمتاز من مصر، فأنعم يوسف عليهم وأحسن إليهم، لكنّ القرآن لم يفصل أخبار سنوات الخصب والرّخاء، وكيف زرع النّاس، وكيف أدار يوسف جهاز الدّولة، وكيف نظم ودبر وادّخر، وكأنّ هذه كلّها أمور مقرّرة بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾^(٢)، وكذلك لم يذكر مقدّم سنوات الجذب، وكيف تلقّاها النّاس، وكيف ضاقت الأرزاق، لأنّ هذا كلّه ملحوظ في رؤيا الملك وتأويلها: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ﴾^(٣).

لكنّ فعل الجذب وأثره في البلاد والعباد قد ظهر في مشهد إخوة يوسف، الذين جاؤوا من البدو من أرض كنعان البعيدة يبحثون عن الطّعام في مصر مرّة تلو الأخرى، حتّى ذهبت أموالهم، وشكوا ليوسف ما أصابهم وأهلهم من القحط والجوع، وسألوه التّصدّق عليهم، كما في قدمتهم الثالثة على يوسف، (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا

(١) الصّفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق/ أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث، بيروت،

٢٠٠٠م، ج٥، ص٣٠.

(٢) سورة يوسف: من الآية ٥٥.

(٣) سورة يوسف: الآية ٤٨.

وَأَهْلَنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ^(١)، ممّا يشير إلى اتساع دائرة المجاعة وشدتها، كما يدل على المكانة الكبيرة التي تمتعت بها مصر بفضل تدبير يوسف لشؤونها، وكيف صارت محط أنظار جيرانها، ومخزن الطّعام في المنطقة كلّها^(٢).

وتذكر المصادر الإسلامية أن يوسف عليه السلام هو الذي استعمر مدينة الفيّوم بالوحي، وساق إليها نهراً عظيماً، وبنى عليه سدّ اللاهون^(٣)، وجعل المدينة ثلاث مائة وستين ضيعة، تدير كلّ ضيعة منها مصر كلّها يوماً واحداً، فكانت تكفي مصر السنّة كلّها^(٤)، غير أن المشتغلين بالآثار والتّاريخ القديم يصرّحون بأنهم لم يعثروا على شيء من الدلائل الأثريّة أو النصيّة بخصوص ذلك حتّى الآن.

ولم يبرز السيّاق القرآنيّ الملك ولا أحداً من رجاله على مسرح الحوادث بعد استلام يوسف لمقاليد الأمور، كأنّ الأمر كلّه قد صار ليوسف الذي اضطلع بالعبء في تلك الأزمنة الخانقة الرهيبة^(٥).

(١) سورة يوسف: الآية ٨٨.

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، ص ٢٠١٤، ٢٠١٥.

(٣) ابن عبد الحكم المصري: فتوح مصر وأخبارها، تحقيق/ محمد الحجيرى، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٦٨ - ٧٠، الإصطخري: المسالك والممالك، ص ٤٠، الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ج١، ص ٣٢٧، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ٢٨٦.

(٤) المقرئزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (الخطط المقرئزية) مكتبة الآداب، القاهرة، بدون تاريخ، ج١، ص ٣٩٦.

(٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، ص ٢٠١٥.

❏ مكاشفة يوسف عليه السلام لإخوته:

في الوقت الذي ملك فيه يوسف زمام الأمور في مصر اجتاح أرض كنعان جذب، فأقفرّت الأرض، وضربها القحط، وعمّها الجوع، فاتّجهت أنظار الكنعانيين صوب أرض النيل، وأصاب الجوع أبناء يعقوب كغيرهم، فانطلقوا صوب مصر مع المنطلقين^(١)، ولم يدر بخلدهم أنّ المتمكّن من الخزائن والأموال هو أخوهم يوسف الذي ألقوه في الجبّ منذ سنين، ولو نما ذلك لعلمهم لما قدموا إليه ممتارين، وفضلوا الموت في أرضهم جائعين.

والمهم أنّ يوسف عليه السلام تعرّف على إخوته عندما وفدوا عليه أوّل مرّة، ولكنه لم يعرفهم بنفسه في قدمتهم الأولى ولا الثانية، فلمّا كانت المرّة الثالثة، وشكوا له هزالهم وشدة جوعهم، واستعطفوه على أنفسهم وأهلهم، رقّ لهم ورحمهم، وشرع في تذكيرهم بفعالهم: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾^(٢)، فعندها أدركوا أنّهم أمام يوسف وأخيه.

ويحتمل أنّ يكون يوسف لمّا أراد أن يكشفهم عن نفسه خاطبهم باللّغة الكنعانية، فلم يشكّوا أنّذ أنّه هو^(٣)، وهتفوا قائلين: ﴿أَنْتَ لَا تُتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤)، فعندها اعترفوا له بالفضل والأثرة

(١) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل (الجزء الأول) التاريخ منذ عصر إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام، ص ٢١١.

(٢) سورة يوسف: الآية ٨٩.

(٣) أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن والسنة، ص ٨٠.

(٤) سورة يوسف: من الآية ٩٠.

عليهم، في الخلق والسعة، والملك والتصرف والنبوة^(١)، واعتذروا عن خطئهم في حقّه بكلام فيه استعطاف^(٢)، «قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ»^(٣)، فصّح عنهم يوسف الصّّفح الجميل، «قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»^(٤).

❏ قدوم يعقوب عليه السلام وأهل بيته إلى مصر:

لم يكن يوسف ليتّرك أباه وأهله في أرض كنعان وقد أشرفوا على الهلاك، ويهنأ وحده بالعيش الآمن في مصر، لذلك أمر إخوته بالعودة إلى أبيهم، وحمله مع أهله جميعاً إلى مصر، قال تعالى: «اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوْهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيْرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ»^(٥).

وقد اختلفت الأقوال في المراد من أبويه؛ لأنّ علماء أهل الكتاب يقولون بوفاة أمّه قبل ذلك^(٦)، ولذا رأى بعض المفسّرين أنّهما أبوه وخالته، وجزم محمّد بن إسحاق بأنّهما أبوه وأمّه التي ولدته، وانتصر ابن

(١) ابن كثير: التفسير، جـ ٢، ص ٤٩٠.

(٢) ابن جزي: التسهيل لعلوم التنزيل، جـ ٢، ص ١٢٧.

(٣) سورة يوسف: الآية ٩١.

(٤) سورة يوسف: الآية ٩٢.

(٥) سورة يوسف: الآيات ٩٣ - ٩٨.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ٢١٨.

جريّر للقول الأخير، فقال: "وأولى القولين في ذلك بالصواب ما قاله ابن إسحاق؛ لأنّ ذلك هو الأغلب في استعمال الناس والمتعارف بينهم في "أبوين"، إلا أن يصحّ ما يقال من أن أم يوسف كانت قد ماتت قبل ذلك بحجّة يجب التسليم لها، فيسلم حينئذ لها" (١).

وقد قوى ابن كثير ما ارتآه ابن جرير؛ لأنّ ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمّه إلى يومئذ، فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه (٢)، وإذا لم يقدّم دليل على موت أمّه فلا ينبغي مخالفة ظاهر القرآن، ولذا فالقول الذي نصره ابن جرير هو المنصور (٣).

وتنتهي قصّة يوسف بالعود على البدء، فقد تحققت الرؤيا التي رآها يوسف وأولها له أبوه يعقوب، والتقى المتحابون بعد فرقة طويلة، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنِ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٤).

وقد نسب يوسف ما وقع بينه وبين إخوته من الشرّ إلى الشيطان، ولم يعاتبهم في شيء، وذكر لهم إحسان الله تعالى إليه بإخراجه من

(١) تفسير الطبري، ج ١٦، ص ٢٦٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢١٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٤٩٢.

(٤) سورة يوسف: الآيات ٩٩ - ١٠١.

السّجن، ولم يذكر لهم إخراجهم من الحبّ، وهذا من عظيم إكرامه لإخوته بعد عفوهم عنهم^(١).

❏ عبر وعظات من قصة يوسف:

لقد ختم الله قصة يوسف بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢)، ولذا فإنّ القصة حافلة بالعبر البالغة والعظات النافعة التي تعزّ على الحصر، ومنها^(٣):

* ضرورة كتمان النعم عمّن يخشى ضرره ولو كان صديقاً أو قريباً.
* أنّ الحسد داءٌ عضال، يكاد يذهب الإيمان من القلوب، ويؤدّي بصاحبه إلى التّفنن في صور المعاصي، فيحمّله على الكذب، وقطيعة الرّحم، وعقوق الوالدين، كما أنّ وقوعه بين الأقارب أكثر من الأبعد، وأنّ الحاسد لن ينال من صنيعه إلا الحسرة والندامة.

* تعلّمنا قصة يوسف أنّ النعم تكمن في المحن، والابتلاء يكون لأهل الإيمان، والعاقبة للمتقين الصّابرين، فقد امتحن الله يعقوب بفقد يوسف، ثمّ فقد أخيه وبصره بعد ذلك، كما امتحن يوسف بإلقائه في الحبّ، وبيعه كرقيق، ثمّ امتحن بامرأة العزيز، ودخوله السّجن، ثمّ كانت العاقبة للولد والوالد، فنجّى الله يوسف من كلّ الابتلاءات التي تعرّض لها، ثمّ ملكه على مصر، وجعل أقوات أهلها بيديه، وجمعه بأبيه وأهله أجمعين.

* من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، فهذا نبيّ الله يوسف تراوده امرأة العزيز عن نفسه، وهي ذات منصب وجمال، وهو في مقتبل

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص٢٦٧.

(٢) سورة يوسف: الآية ١١١.

(٣) ينظر عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن، ج١، ص٢٩٢ - ٣٠١.

الشباب وكامل الفتوة، ولكنه يستعصم بالله تعالى، ويستعصي على الغواية، ويترك المعصية خوفاً من الله، ورغبة فيما عنده، فيعوضه الله بملك مصر بعد بضع سنين، وتتاح له الفرصة في الزواج والتمتع بالحلال والطيبات كيف يشاء.

* أن حلاوة الإيمان تجعل المؤمن يستلذ بأشد أنواع العقوبات مقابل ترك المعاصي والمنكرات، ولولا كمال إيمان يوسف لما كان السجن وما فيه من مصاعب أحب إليه من إتيان الشهوات والتمتع بالملذات.

* أن الرزق لا يطلب إلا بالطاعة، فقد ظن أخوة يوسف أنهم سيفوزون بحب أبيهم عقب تغييب يوسف عنه، ولكنهم عوقبوا بنقيض ذلك، وازداد تعلق يعقوب بيوسف، ولو نظرنا لحال يوسف في السجن وهو في بلد لا يمت لأهله بنسب وليس له فيه عصبية لاستبعدنا أن يصير ملكاً عليها بعد رفضه لعروض من يتوصل بهم في الظاهر - إلى المناصب.

* أن الدعوة إلى الله ضرورة شرعية، وليس لها وقت محدد، ولذا رأينا نبي الله يوسف يدعو إلى الله في قصر العزيز، وفي سنوات السجن، ثم في أبهة الملك.

* أن العفو عند المقدرة من شيم أهل الفضل، وخيار الخلق، ولا يقدر عليه إلا من يستطيع التغلب على وساوس الشيطان وحظ النفس، ولنا في يوسف مع إخوته أسوة حسنة في عفوهم بعدما فعلوه به، وقد فعل النبي ﷺ أعظم من ذلك مع أهل مكة.

* ضرورة الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله في بلوغ الغايات، فقد أمر يعقوب بنبيه بدخول مصر من أبواب متفرقة؛ خوفاً عليهم من الحسد أو اتّهامهم بالتجسس على البلاد، ولكنه صارحهم بأن ذلك لن يغني عنهم شيئاً، وأن الأمر كله بيد الله.

* أنّ الدّاعي إلى الله يسارع إلى صنائع المعروف ومساعدة النّاس دون انتظار أجر من أحد، وقد رأينا يوسف عليه السلام يفسّر رؤيا الملك ويضع خطةً شاملة لنجاة دولته من الهلاك مع أنّه سجين مسلوب الإرادة، ولم يشترط لنفسه الخروج من السّجن، ولا الأجر على ذلك، على الرّغم من شدّة احتياجهم إليه.

* أنّ مقاطعة أهل الكفاءة والخبرة لبعض الأنظمة الحاكمة وترك العمل معها بحجّة عدم تطبيقها لشرع الله كاملاً خطأ كبير، وخاصةً إذا كان في إمكان المعتزلين للولايات رفع المعاناة عن الشّعوب، وذلك كما فعل يوسف عليه السلام، فقد طلب الولاية لنفسه من المملّك على مصر، وهو على غير دينه؛ وذلك لعلمه أنّه يستطيع إخراج البلاد المصريّة من المجاعة والأزمة التي ألّمت بها.

وخلاصة القول أنّ يوسف الصّدّيق قد اجتاز جميع الاختبارات التي تعرّض لها طوال حياته بأعلى تقدير في الصّبر على بلاء الله، ولمّا امتحنه ربّه بالخير بعد الشّر، لم ينس مولاه، وشكره كثيراً على ما أولاه.

شعيب عليه السلام

❏ قوم شعيب وموطنهم:

ينسب شعيب عليه السلام إلى القبيلة العربية التي كانت تنزل قرية مدين^(١)، بالقرب من أرض معان على أطراف الشام ممّا يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة لوط (البحر الميت)^(٢)، وقد سمّيت قبيلة شعيب باسم القرية التي نزلت بها^(٣).

وقد ورد خبر "مدين" في غزوة "زيد بن حارثة" لجذام في "حسمى"، ويظهر من بعض الموارد الإسلامية أنّ "مدين" كانت في صدر الإسلام من أرض "جذام"، وأنّها كانت إذ ذاك أكبر من "تبوك"، وبها بئر يقال إنّها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام^(٤).

❏ عصر شعيب عليه السلام:

يتبيّن من القرآن الكريم -كما في سورة الأعراف ويونس وهود والحجّ والعنكبوت- أنّ شعيباً عليه السلام كان قبل عصر موسى عليه السلام^(٥)؛ وقد نصّت أكثر من آية على أنّ الله تعالى بعث نبيه موسى بعد عصر شعيب، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾^(٦)،

(١) مدين: تقع أرض مدين حالياً في الشمال الغربي من المملكة العربية السعودية بالقرب من خليج العقبة حيث موقع قرية "البدع". سامي عبد الله أحمد المغلوث: أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، ص ١٥٠.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٣١٣.

(٣) محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء، ص ١٧١.

(٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ١، ص ٤٥٤.

(٥) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ص ٢١٠.

(٦) سورة الأعراف: من الآية ١٠٣.

ومثله قوله أيضاً: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾^(١).

وإذا كان لوط وقومه قد عاصروا إبراهيم الخليل عليه السلام (١٩٤٠-١٧٦٥ ق.م)، فيمكن القول بأن شعبيًا وقومه كانوا يعيشون بعد القرن الثامن عشر قبل الميلاد، خاصة وأن التوراة تذكر أن مدين كان من ولد الخليل من زوجه قطورة الكنعانية^(٢).

❏ أحوال المدينين عند بعثة شعيب:

يظهر من حديث القرآن عنهم أنهم كانوا كثرة عديّة، كما جاء على لسان نبيهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ﴾^(٣)، كما يدلّ على ذلك ما قاله نبيّ الله موسى الذي شاهد منهم ﴿أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ﴾^(٤)، على البئر. ولم تكن هذه الكثرة عاطلة عن العمل أو فقيرة؛ لأنّ التعبير القرآني الذي ورد على لسان نبيهم ﴿إِنِّي أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ﴾^(٥)، يدلّ على أنهم كانوا في سعة من الرزق، وبسطة في العيش.

وتشير قصّة موسى عليه السلام على اعتماد جماعة من المدينين على الرعي، ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾^(٦)، وإذا كان أهل مدين هم أصحاب الأيكة

(١) سورة يونس: من الآية ٧٥.

(٢) محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ص ١٧٢.

(٣) سورة الأعراف: من الآية ٨٦.

(٤) سورة القصص: من الآية ٢٣.

(٥) سورة هود: من الآية ٨٤.

(٦) سورة القصص: الآية ٢٣.

على ما ذهب إليه بعض العلماء^(١)، دلّ ذلك على وفرة مياههم وكثرة أشجارهم، ويؤيد هذا أنّ موسى عليه السلام لما سقى لبنتي الشيخ الكبير ﴿تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ * فجاءته إحداهما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا^(٢)، ممّا يدلّ على أنّ الظلّ كان لأهل مدين، والأيغة تعني الغيضة التي تنبت السدر والأراك ونحوهما، أو الشجر الكثيف الملتفّ، عند المفسّرين^(٣)، وأهل اللغة^(٤).

وكان لموقع مدين على أهمّ الطرق التجاريّة التي تبدأ من جنوب الجزيرة العربيّة مروراً بمكّة والمدينة وتبوك ونهاية الشام أثرٌ كبير في اشتغال أكثر أهلها بالتجارة^(٥)، ولكنّ هؤلاء القوم كانوا من أسوأ النّاس معاملة في بيعهم وشرائهم، يطفّفون في المكيال والميزان، ﴿إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ^(٦). ثمّ إنهم كانوا كفّاراً، يعبدون "الأيغة"، وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها، ويقطعون الطريق، ويخيفون المارة^(٧)، ويغيرون على النّاس، ويهلكون الزّرع، ويفعلون أنواعاً من الفساد^(٨).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٩٠.

(٢) سورة القصص: الآيتان ٢٤، ٢٥.

(٣) الطبري: التفسير، جـ ٩، ص ٤، البغوي: التفسير، جـ ٣، ص ٥٥، البيضاوي: التفسير، جـ ٣، ص ٣٧٩، أبو السعود: التفسير، جـ ٥، ص ٨٧.

(٤) الخليل: العين، جـ ٥، ص ٤٢٣، ابن منظور: لسان العرب، جـ ١٠، ص ٣٩٤.

(٥) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحّح في التاريخ (جزيرة العرب)، جـ ١، ص ٤٧.

(٦) سورة المطففين: الآيتان ٢، ٣.

(٧) ابن كثير: التفسير، جـ ٢، ص ٥٥٧، البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٨٥.

(٨) الرازي: التفسير الكبير، جـ ٢٤، ص ١٤٠.

❏ دعوة شعيب عليه السلام قومه وردّهم عليه:

بعث الله شعيباً إلى قومه فدعاهم إلى عبادة الله ﷻ وحده لا شريك له، ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(١)، ﴿إِنْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، وذكرهم بيوم القيامة وما فيه من بعث ونشور وثواب وعقاب، ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(٣).

كما دعاهم إلى إصلاح أخلاقهم، وتقويم سلوكهم، وتحسين معاملتهم مع الناس، والكفّ عن الأفعال القبيحة، ﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٤)، ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ﴾^(٥).

(١) سورة هود: من الآية ٨٤.

(٢) سورة الشعراء: الآيات ١٧٧ - ١٨٠.

(٣) سورة العنكبوت: من الآية ٣٦.

(٤) سورة الأعراف: الآيتان ٨٥، ٨٦.

(٥) سورة الأعراف: الآيات ١٨١ - ١٨٤.

وبعد نداءات متتابعات ودعوات متواليات من شعيب عليه السلام لقومه، استجابت طائفة قليلة لدعوته، فأمنت بالله وامتعت عن المعاملات القبيحة، ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(١).

ورفضت الغالبية التي تضمّ الملاً المستكبرين أن تترك عبادة الأيكة وتستجيب لدعوة النبي الأمين في إجراء معاملتهم بالعدل والكف عن الظلم، كما أخبر عنهم رب العالمين بقوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢)، ولم تكن لهم حجة في التمسك بآلهتهم إلا فعل آبائهم، ولذلك قالوا لشعيب مستهزئين: ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾^(٣)، وطالبوا نبيهم بالآيات التي تثبت صدقه في دعوته فجاءهم بها، وقد ذكر الله ذلك إجمالاً على لسان شعيب عندما قال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٤)، فهذا يدل على أن الله تعالى أجرى على يديه بعض المعجزات التي فيها حجة واضحة وبرهان قاطع على صدق شعيب عليه السلام وإن لم يحك لنا القرآن تفصيلها^(٥)، ولكنهم استمروا في جحودهم وإعراضهم، واتهموا نبيهم بالسحر، وأظهروا حسدهم له على نعمة النبوة من بينهم، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٦).

(١) سورة الأعراف: الآية ٨٧.

(٢) سورة الشعراء: الآية ١٧٦.

(٣) سورة هود: من الآية ٨٧.

(٤) سورة الأعراف: من الآية ٨٥.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٨٥.

(٦) سورة الشعراء: الآيتان ١٨٥، ١٨٦.

لم ينته شعيب إلى هذا الحدّ، بل أخذ يجادلهم بالتّي هي أحسن، ويدعوهم إلى الله بأحسن العبارات وألطفها، فرغبهم أولاً، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَى مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(١)، ثمّ انتقل بهم إلى نوع من الترهيب، ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِثْلُكُمْ بِبَعِيدٍ﴾^(٢)، ثمّ مزج بين الترهيب والترغيب^(٣)، في قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾^(٤).

لكنّ القوم الذين أصروا على كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع، أعلنوا لنبيّهم أنّهم لا يفهمون كلامه ولا يعقلونه، كما أنّهم لا يريدونه ولا يحبّونه، ولذلك فلولاً أنّهم يقدّرون عشيرته فيهم لقتلوه، وذلك قولهم: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ﴾^(٥)، فأنكر عليهم نبيّهم خوفهم من عشيرته، وأمنهم لعذاب الله، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾^(٦)، ثمّ هدّدهم

(١) سورة هود: الآية ٨٨.

(٢) سورة هود: الآية ٨٩.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٨٧.

(٤) سورة هود: الآية ٩٠.

(٥) سورة هود: من الآية ٩١.

(٦) سورة هود: الآية ٩٢.

تهديداً شديداً، وأوعدهم وعيداً أكيداً بالعذاب، ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾^(١).

وبسبب مراجعة شعيب لقومه^(٢)، وعلو عبارته، وبلاغته في دعوتهم إلى الإيمان برسالته، فقد سمّاه بعض السلف "خطيب الأنبياء"، ولا يصح في ذلك حديث مرفوع عن النبي ﷺ^(٣).

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى عن شعيب: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾، أنه كان أعمى البصر^(٤)، ولكن هذا القول ضعيف مردود؛ لأنه ترك للظاهر من غير دليل، ولأن قوله تعالى: ﴿فِينَا﴾ يبطل هذا الوجه، ألا ترى أنه لو قال: إِنَّا لَنَرَاكَ أَعْمَى فِينَا كَانَ فاسداً؛ لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم، ولأنهم قالوا بعد ذلك: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾، فنفوا عنه القوة التي أثبتوها في رهطه، ولما كان المراد بالقوة التي أثبتوها للرّهط هي النصرة وجب أن تكون القوة التي نفوها هي النصرة أيضاً^(٥).

ثم إن قوم شعيب لم يجدوا أمام إفلاسهم الفكري والعقلي إلا أن يطالبوا نبيهم باستعجال وقوع العذاب عليهم! فهبوا قائلين: ﴿أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٦)، فأعلمهم شعيب بأن هذا

(١) سورة هود: الآية ٩٣.

(٢) الحاكم: المستدرک علی الصحیحین، ج٣، ص ١٧٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص ١٨٥.

(٤) الحاكم: المستدرک، ج٣، ص ١٧٠.

(٥) التفسير الكبير، ج١٨، ص ٤٩.

(٦) سورة الشعراء: من الآية ١٨٧.

الأمر ليس من اختصاصه، وإنما هو الله رب العالمين، ولذا كان ردّه عليهم: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١).

ولم يكن إيذاء الكافرين من قوم شعيب لنبيّهم وحسب، إنما كان له وللمؤمنين معه، فقد خيروهم بين الرجوع إلى الشرك والكفر أو الخروج من القرية، ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾^(٢)، ولكن الذي ذاق حلاوة الإيمان تراه "يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ"^(٣)، ولذا جاء الردّ من شعيب وأصحابه حاسماً: ﴿قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا مِنَ اللَّهِ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾^(٤).

وهكذا فقد استنصر شعيب ربّه على المستكبرين الكافرين، والله تعالى لا يردّ دعاء رسله على الذين جحدوه وصمّموا على الكفر^(٥)، وفتنة المؤمنين عن دينهم، وذلك قولهم: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾^(٦).

(١) سورة الشعراء: من الآية ١٨٨.

(٢) سورة الأعراف: من الآية ٨٨.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان)، ج ١، ص ١٤، ح ١٦، مسلم: الصحيح، (كتاب الإيمان، باب بيان خصال الإيمان)، ج ١، ص ٦٦، ح ٤٣.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٨٨، ٨٩.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٨٩.

(٦) سورة الأعراف: الآية ٩٠.

❏ هلاك المكذبين من قوم شعيب:

لقد جرت سنة الله تعالى في الظالمين أنه يملي لهم لكنه لا يهملهم، بل يأخذهم أخذ عزيز مقتدر جزاء تكذيبهم لرسولهم وكفرهم بهم^(١)، ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٌ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾^(٢).

وقد أنزل الله عقابه على الكافرين، وجمع عليهم أنواعاً من العقوبات، وصنوفاً من المثالات، وأشكالاً من البليّات؛ وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلّة أرسل الله عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات، ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها، ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾^(٣)، لإرجافهم بنبي الله شعيب وأصحابه، وتوعدهم لهم بالإخراج، ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾^(٤)، لزجرهم عن استهزائهم وتهكمهم بنبيهم، و ﴿أَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٥)، لأنهم طلبوا ذلك من نبيهم^(٦)، بقولهم: ﴿أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٧).

(١) ابن كثير: التفسير، جـ ٢، ص ٤٦٠.

(٢) سورة هود: الآيات ١٠٠، ١٠١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٩١.

(٤) سورة هود: من الآية ٩٤.

(٥) سورة الشعراء: من الآية ١٨٩.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٨٩، ١٩٠.

(٧) سورة الشعراء: من الآية ١٨٧.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه ذكر عذاب يوم الظلة فقال: "بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَرًّا شَدِيدًا فَأَخَذَ بِأَنْفُسِهِمْ، فَدَخَلُوا أَجْوَافَ الْبُيُوتِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ أَجْوَافَ الْبُيُوتِ، فَأَخَذَ بِأَنْفُسِهِمْ، فَخَرَجُوا مِنَ الْبُيُوتِ هَرَابًا إِلَى الْبَرِّيَّةِ، فَبَعَثَ اللَّهُ سَحَابَةً فَأَظْلَمَتْهُمْ مِنَ الشَّمْسِ، فَوَجَدُوا لَهَا بَرْدًا وَلَذَّةً، فَنَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا تَحْتَهَا أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَارًا"^(١).

كما روي عنه أنه قال: "مَنْ حَدَّثَكَ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا عَذَابُ يَوْمِ الظِّلَّةِ فَكَذِبُهُ"^(٢)، ولا تعارض في ذلك؛ لأنه لما كان هو البحر الذي علمه الله تأويل كتابه بدعوة نبيه ﷺ كان مختصاً بمعرفة هذا التفسير دون غيره من أهل العلم، فمن حدث بحديث عذاب الظلة على وجه غير هذا الوجه الذي حدثنا به فقد وصّانا بتكذيبه، لأنه علمه ولم يعلمه غيره^(٣).

❏ عبرة وعظة:

يؤخذ من قصة شعيب عليه السلام أنّ شيوع الكفر في مجتمع ما لا يمنع الدّعاة من إنكار المفسدات الفاشية فيه مع استمرارهم في الإنكار على انحرافه عن العقيدة الصحيحة^(٤).

وتؤكد القصة على أنّ تطفيف المكيال والميزان جريمة منكرة في حقوق الناس، قد تؤدّي بأصحابها في الدّنيا إلى الهلاك والدّمار، مع ما ينتظرهم في الآخرة من سوء القرار.

(١) الحاكم: المستدرک، ج٣، ص١٧١، ح٤١٢٥.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص١٧٢، ح٤١٢٩.

(٣) الشوكاني: فتح القدير، ج٤، ص١١٦.

(٤) عبد الكريم زيدان: الاستفادة من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ج١، ص٢٤٩.

أيوب عليه السلام

اختلف العلماء في الوقت الذي أرسل فيه أيوب عليه السلام، فمنهم من جعله بعد يوسف، ومنهم من جعله قبل شعيب، ومنهم من جعله بعد سليمان بن داود^(١)، والراجح من الأقوال أن بعثته كانت بين يوسف وموسى عليهما السلام^(٢).

وهو من ذرية إبراهيم على وجه التحقيق، ومن سلالة العيص بن إسحاق، لأن الله تعالى ذكره في عداد ذرية إبراهيم^(٣)، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤).

❏ بعثة أيوب عليه السلام:

لقد ذكر الله عز وجل أيوب فيمن أوحى إليهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾^(٥)، وهذا نص على نبوة أيوب^(٦).

(١) الحاكم: المستدرك على الصحيحين، جـ ٣، ص ١٨٤.

(٢) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، جـ ٢، ص ١٠٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ١٦٦، ٢٢١.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٨٤.

(٥) سورة النساء: الآية ١٦٣.

(٦) ابن كثير: التفسير، جـ ١، ص ٥٨٦.

وتذكر المصادر الإسلامية أنه كان ببلاد الشام، بناحية يقال لها البثينة من أعمال دمشق^(١)، وكان دينه التوحيد والإصلاح بين الناس^(٢)، كسائر إخوانه من النبيين والمرسلين.

❏ بلاء نبي الله أيوب عليه السلام:

كان أيوب عليه السلام ممّن عافاهم الله في أبدانهم، وأنعم عليهم بكثرة الأموال والبنين، ثم ابتلاه في ولده وماله وجسده، فصبر على ذلك صبراً جميلاً، وظلّ يذكر الله ﷻ ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً^(٣)، وحاول عدوّ الله إبليس جاهداً أن يفتته ويزيله عن ذكر الله، فأجلب عليه بجنوده وخيله ورجله، ولكن الله عصمه منه، وألقى عليه السكينة والصبر على بلائه الذي ابتلاه به، فلم يجد إبليس إليه سبيلاً^(٤).

وقد أثنى الله ﷻ على نبيه أيوب بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٥)، وكان عليه السلام غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك^(٦).

❏ الصحيح في قصة أيوب عليه السلام:

لقد وردت قصة أيوب عليه السلام في موضعين من الكتاب العزيز، أحدهما قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم

(١) ابن قتيبة: المعارف، ص ٤٢، الطبري: التفسير، ج ١٧، ص ٥٧، ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ١٠، ص ٥٨، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٢١، ابن حجر: فتح الباري، ج ٦، ص ٤٢١.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١، ص ٩٨.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٢١.

(٤) الحاكم: المستدرک، ج ٣، ص ١٨٤.

(٥) سورة ص: من الآية ٤٤.

(٦) ابن كثير: التفسير، ج ٣، ص ١٧٩.

مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَىٰ لِلْعَابِدِينَ»^(١)، والآخر قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذَكَرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٢).

وأما في السنة النبوية فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ جَرَادٍ"^(٣) من ذهب، فَجَعَلَ يَحْتَنِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ، يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ"^(٤).

ولم يجد الإمام البخاري في قصة أيُّوب غير هذا الحديث على شرطه، فاكتمى به^(٥).

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إِنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ لَبِثَ فِي بَلَائِهِ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَقَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِسَاحِبِهِ: تَعْلَمْ وَاللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ فَيَكْشِفُ مَا بِهِ، فَلَمَّا رَاحَ إِلَيْهِ، لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ: لَا

(١) سورة الأنبياء: الآيتان ٨٣، ٨٤.

(٢) سورة ص: الآيات ٤١ - ٤٤.

(٣) رجل جراد: جماعة من الجراد، أو الجراد الكثير. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٢، ص٢٠٣، العيني: عمدة القاري، ج١٥، ص٢٨٣.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾، ج٣، ص١٢٤٠، ح٣٢١١، أحمد بن حنبل: المسند، ج١٣، ص٤٩٦، ح٨١٥٩.

(٥) ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٤٢١.

أَدْرِي مَا تَقُولُ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمْرٌ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ فَأَرْجِعْ إِلَيَّ بَيْتِي، فَأَكْفُرْ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةً أَنْ يُذَكَّرَ اللَّهُ إِلَّا فِي حَقٍّ. قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾^(١)، فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَبَلَغَتْهُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ فَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَيُّ بَارِكِ اللَّهُ فِيكَ، هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا الْمُبْتَلَى؟ وَاللَّهِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا، قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ، وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ^(٢) أَنْدَرُ الْقَمْحِ، وَأَنْدَرُ الشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللَّهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ أَفْرَعَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَتْ، وَأَفْرَعَتْ الْأُخْرَى عَلَى أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرِقَ^(٣) حَتَّى فَاضَتْ^(٤).

وهذا هو القدر المسموح بروايته في قصة نبيِّ الله أَيُّوبَ عليه السلام، لكنَّ النِّقَالَ وأهل الأخبار يذكرون في بلائه أخباراً عجيبة، فيسلطون عليه

(١) سورة ص: الآية ٤٢.

(٢) الأندر: هو المربد أو الموضع الذي يداس فيه الطعام، أو صيرة الطعام، وهو الذي يسميه أهل المدينة الجرين، وأهل الشام الأندر، وأهل العراق البيدر، وأهل البصرة الجوخان. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ١، ٧٤، ابن سلام: الغريب ج ٣، ص ٩٧.

(٣) الورق: الدراهم مطلقاً، أو المضروبة منها. ابن منظور: لسان العرب، ج ١٠، ص ٣٧٥.

(٤) ابن حبان: الصحيح، ج ٧، ص ١٥٧، ١٥٨، الضياء المقدسي: الأحاديث المختارة، ج ٧، ص ١٨٢، ١٨٣، وصحح المحقق إسناده، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وأقره الذهبي. المستدرک، ج ٣، ص ١٨٤، ١٨٥، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى والبخاري ورجال البخاري رجال الصحيح. مجمع الزوائد ج ٨، ص ٢٠٨، وصححه الألباني أيضاً. السلسلة الصحيحة، ج ١، ص ٥٣، لكن ابن كثير استنكر رفع هذا الحديث. تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ١٨٠.

الشياطين، يهلكون أمواله، ويقتلون أولاده، ويجعلون جسمه قرحة واحدة يرعى فيها الدود، ثم يطرح على مزبلة بيت المقدس سبع سنوات، تعبت به دواب بني إسرائيل^(١).

والذي يجب أن نعتقده أنه ابتلى، ولكنّ بلاءه لم يصل إلى حدّ هذه الأكاذيب^(٢)، وأيوب أكرم على الله من أن يلقي على مزبلة، وأن يصاب بمرض ينفر الناس من دعوته، ويقرزهم منه، وأيّ فائدة تحصل من الرسالة وهو على تلك الحال المزريّة التي لا يرضاها الله لأنبيائه؟^(٣).

والعقل لا يقبل بحال من الأحوال أن يكون أيّ داعية إلى مبدأ أو عقيدة، فيه كلّ هذه المنفّرات التي تصدّ الناس عنه، وتباعد بينهم وبينه، والنقل صريح في أنّ القادة فضلاً عن الرسل - لا بدّ أن تكون لهم من الصفات البدنيّة بجوار ما لهم من الصفات الخلقية - ما يلقي عليهم المهابة - وإلا فما معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤).

ومن المقرر أنّ من اعتوره نقص وعُدم آلة النبوة لم يجز أن يؤهل لها، وقد بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بعض أحياء

(١) الطبري: التفسير، ج ٢٣، ص ١٦٦، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ١٠، ص ٦٩ - ٧١،

السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج ٧، ص ١٩١ - ١٩٤.

(٢) محمد محمد أبو شهبة: الإسرائيليات والموضوعات، ص ٢٨١.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٨٠.

(٤) محمد حسين الذهبي: الإسرائيليات في التفسير والحديث، سلسلة البحوث الإسلامية، السنة

الثالثة، الكتاب السابع والثلاثون، القاهرة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص ٢٢٧.

العرب يدعوهم إلى الإسلام فقالوا: يا خالد، صف لنا محمداً، قال: بإيجاز أم بإطناب؟ قالوا: بإيجاز، قال: هو رسول الله، والرسول على قدر المرسل^(١)، والله درّ خالد بن الوليد، فقد فهم كتاب الله جيداً، فالله تعالى ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(٢).

ولا يجوز أن يسلط الله ﷻ الشيطان على أنبيائه ليقضي من إعتابهم وتعذيبهم وطره، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرّر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب، وإسناد المسّ إلى الشيطان في قوله تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ على سبيل المجاز، فإنه لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سبباً فيما مسّه الله به من النصب والعذاب، نسبه إليه، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو^(٣).

وخلاصة القول في قصة ابتلاء أيوب أنها مشوبة بإسرائيليات تطغى عليها، والحدّ المأمون فيها أن أيوب عليه السلام كان كما جاء في القرآن عبداً صالحاً أو ابناً؛ وقد ابتلاه الله فصبر صبراً جميلاً^(٤).

(١) الماوردي: أعلام النبوة، ص ٣٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

(٣) الزمخشري: الكشاف، ج ٤، ص ٧٥.

(٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣٠٢١.

ذو الكفل عليه السلام

هو نبيّ كريم، ذكره الله ﷻ في موضعين من كتابه العزيز مع نفر من الأنبياء، ووصفه بأنه من الصّابرين، ومن الصّالحين، ومن الأخيار، قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصّٰبِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصّٰلِحِينَ﴾^(١)، وقال: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾^(٢).

وقد اختلف العلماء في القول بنبوّة ذي الكفل وعدمها، وأكثروا الكلام في ذلك^(٣)، وما أغنانا عن تلك الأقوال التي لا فائدة منها، ولا داعي لها؛ لأنّ صريح القرآن ينصّ على نبوّته.

وقد روى حديث مرفوع في شأن رجل إسرائيليّ يدعى الكفل، ونصّه: "كَانَ الْكِفْلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمَلُهُ، فَاتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتْنَيْنِ دِينَارًا عَلَى أَنْ يَطَّأَهَا، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنْ امْرَأَتِهِ أَرْعَدَتْ وَبَكَتْ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ أَكْرَهْتُكَ؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنَّهُ عَمِلَ مَا عَمِلْتُهُ قَطُّ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَيْهِ إِلَّا الْحَاجَةُ، فَقَالَ: تَفْعَلِينَ أَنْتِ هَذَا وَمَا فَعَلْتِهِ؟ اذْهَبِي فَهِيَ لَكَ، وَقَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أَعْصِي اللَّهَ بَعْدَهَا أَبَدًا، فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَأَصْبَحَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِهِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لِلْكِفْلِ"^(٤).

(١) سورة الأنبياء: الآيتان ٨٥، ٨٦.

(٢) سورة ص: الآية ٤٨.

(٣) القرطبي: التفسير، ج ١١، ص ٣٢٨، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٢٥.

(٤) الترمذي: السنن، وقال: "حديث حسن"، (كتاب صفة القيامة والقائق والورع، باب)، ج ٤،

ص ٦٥٧، ٦٥٨، ح ٢٤٢٦، أحمد بن حنبل: المسند، ج ٨، ص ٣٦٩، ح ٤٧٤٧. وقال ابن

كثير: "حديث غريب جدا، وفي إسناده نظر". البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٢٦.

ويربط بعض العلماء بين هذه القصة وبين نبيّ الله ذي الكفل، وما كان ينبغي لهم ذلك^(١)؛ لأنّه على افتراض صحّة قصة "الكفل" فهو رجل آخر من بني إسرائيل غير نبيّ الله ذي الكفل المذكور في القرآن الكريم، وأنبياء الله منزّهون عن مثل هذه القبائح، وقد عصمهم الله من الفواحش والذنوب كبيرها وصغيرها قبل النبوّة وبعدها^(٢).

وتتعارض الموبقات التي فعلها "الكفل" الإسرائيليّ مع ثناء الله ﷻ على نبيّه ذي الكفل، ووصفه له بالصبر والصّلاح والخيريّة، ولو كان هو النّبيّ المذكور، لما كان هناك وقت لنبوّته في حياته المليئة بالموبقات، خاصّة وأنّه قد مات في الليلة التي قد تاب فيها^(٣).

وليس لدينا خبر صحيح عن حياة نبيّ الله ذي الكفل، ولا عن دعوته، وقومه.

(١) ابن كثير: التفسير، ج٣، ص١٩٢، البداية والنهاية، ج١، ص٢٢٦.

(٢) عبد العزيز الدردير موسى: التفسير الموضوعي للآيات القرآنية المتعلقة بوجوب الإيمان بالأنبياء والرسل، ص٢٢٣.

(٣) المرجع السابق، ص٢٢٤.

يونس عليه السلام

❏ نسب يونس عليه السلام:

اختلف في "متى" الذي نسب إليه يونس عليه السلام فقيل: اسم أمّه، ولم يشتهر نبيّ بأمّه غير يونس والمسيح عليه السلام^(١)، ولكنّ هذا القول مردود بحديث ابن عباس ؓ أن النبيّ ﷺ قال: "ما يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى"، ونَسَبَهُ إِلَى أَبِيهِ^(٢)، ولا يوجد في شيء من الأخبار ما يدلّ على اتصال نسبه^(٣).

❏ دعوته لقومه ومفارقة لهم:

نشأ يونس عليه السلام في مدينة نينوى العراقية^(٤)، بين قوم يعبدون الأصنام^(٥)، فاصطفاه الله لرسالته، ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٦)، وبعثه الله إلى أهل قريته، فدعاهم إلى عبادة الله تعالى فأبوا عليه، وتمادوا على كفرهم، فضاق بهم ذرعاً، وأخبرهم بحلول العذاب بهم بعد ثلاثة أيّام، وخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، فلمّا تحقّقوا منه ذلك، وعلموا أنّ النبيّ لا يكذب، خرجوا إلى الصّحراء، وتضرّعوا بالدّعاء، واستغاثوا

(١) البدر العيني: عمدة القاري، ج١٦، ص٢.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ * وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)، ج٣، ص١٢٤٤، ح٣٢١٥، مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب ذكر يونس عليه السلام)، ج٤، ص١٨٣٦، ح٢٣٧٧.

(٣) ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٤٥١.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٢٦٨، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٦٣، ص٨، ابن الأثير: أسد الغابة، ج٤، ص٦، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص١٣٦.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٢٧٨، القرطبي: التفسير، ج٨، ص٣٨٤.

(٦) سورة الصافات: الآية ١٣٩.

ربّ الأرض والسّماء، فرفع الله عنهم العذاب والبلاء، ولم يجعل لهم الفناء، بل يسّر لهم أسباب الرّخاء، واختصّهم بالثناء^(١)، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٢)، وهذا دليل على أنّه لم يوجد فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها إلا قوم يونس^(٣)، ويؤيّد قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(٤).

وتثار في كتب المفسّرين بعض التساؤلات حول قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾^(٥)، فقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ يوهم أنّ يونس عليه السلام قد غاضب ربّه، وذلك يتنافى مع عصمة الأنبياء، وقوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ يوهم أنّ يونس عليه السلام قد شكّ في قدرة الله تعالى^(٦).

والجواب أنّ النّقول على يونس عليه السلام بأنّه غاضب ربّه لم يقله الله تعالى، ومن زاد هذه الزيادة كان قائلاً على الله الكذب، وزائداً في القرآن ما ليس فيه، ولكنّ مغاضبته لقومه وتركه لهم لم يوافق مراد الله عزّ وجلّ فعوقب بذلك وإن كان يونس عليه السلام لم يقصد بذلك إلا إرضاء الله عزّ وجلّ^(٧)،

(١) الطبري: التفسير، جـ ١١، ص ١٧١، ١٧٢، ابن كثير: التفسير، جـ ٣، ص ١٩٢.

(٢) سورة يونس: الآية ٩٨.

(٣) الطبري: التفسير، جـ ١، ص ٢٣٢.

(٤) سورة سبأ: الآية ٣٤.

(٥) سورة الأنبياء: من الآية ٨٧.

(٦) عبد العزيز الدردير موسى: التفسير الموضوعي لآيات الأنبياء والرسول، ص ٥٢٦.

(٧) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، جـ ٤، ص ٣٥، ٣٦.

ظناً منه أنّ ربّه لن يؤاخذه بذلك؛ حيث لم يفعله إلا غضباً له، وأنفة لدينه، وبغضاً للكفر وأهله^(١).

وأما قوله: «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» فهو من القدر بمعنى التضييق، أي فظنّ أن لن نضيّق عليه^(٢)، أو ظنّ أن لن تبلغ خطيئته أن يقدر الله عليه فيها العقاب، ولم يشكّ في قدرة الله عليه إن أرادته، كما بيّن ذلك حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه^(٣).

وأما ما يُروى عن وهب بن منبه بأنّ يونس عليه السلام كان في خلقه ضيق، وأنه لم يستطع تحمّل أثقال النبوة، فقذفها وخرج هارباً^(٤)، فلا يصحّ إسناده^(٥)؛ لروايته عن عبد المنعم بن إدريس، وهو كذاب خبيث^(٦)، يكذب على وهب^(٧)، وأما متنه فباطل بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية؛ لقوله تعالى: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ»^(٨)، والعلماء لا يختلفون في حمله الرسالة وتبليغها للناس^(٩)، وقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على

(١) الزمخشري: الكشف، جـ ٣، ص ١٠٣، ١٠٤.

(٢) ابن كثير: التفسير، جـ ٣، ص ١٩٣، محمد على الصابوني: النبوة والأنبياء، ص ٨١.

(٣) السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جـ ٥، ص ٦٦٧.

(٤) الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ١٨٨.

(٥) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرک، جـ ١، ص ١٨٣.

(٦) ابن حجر: لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، جـ ٤، ص ٧٣.

(٧) الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق/ على محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، جـ ٤، ص ١١٩.

(٨) الأنعام: الآية ١٢٤.

(٩) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ص ٤٢٠ - ٤٢١.

يونس فقال: "لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى" (١)، ولو جاز ذلك في يونس عليه السلام لجاز في حق غيره من الأنبياء، فنعوذ بالله من الكذب والافتراء.

❏ ابتلاء الحوتِ يونس عليه السلام ونجاته:

لَمَّا هَرَبَ يُونُسَ مَغَاضِباً لِقَوْمِهِ رَكِبَ سَفِينَةً فِي الْبَحْرِ فَمَاجَتْ بِمِنْ فِيهَا وَاضْطَرَبَتْ، وَثَقُلَتْ بِهِمْ، وَكَادُوا يَغْرَقُونَ، فَاقْتَرَعُوا عَلَى أَنْ يَتَخَفَّفُوا مِنْ أَحَدِهِمْ؛ لِيَنْجُوا الْبَاقُونَ، فَخَرَجَتِ الْقَرَعَةُ عَلَى يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَعَادُوهَا فَخَرَجَتْ عَلَيْهِ، فَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ، فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ لَمَّا يَرِيدُهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ (٢).

وقد قصّ علينا القرآن تلك الحادثة فقال: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (٣)، ولكن يونس عليه السلام لجأ إلى ربه وهو في بطن الحوت (٤)، وناداه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥)، فسبح ربه في وقت الشدة كما كان يسبحه في وقت الرخاء (٦)، فعرفه الله ﷻ وجعل له من أمره يسراً ومخرجاً، وتداركه بلطفه ورحمته، كما صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: "من سرّه أن يستجيب الله

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، جـ ٣، ص ٣٢١٥، ح ١٢٤٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ٢٣٢، ٢٣٣.

(٣) سورة الصافات: الآيات ١٣٩ - ١٤٢.

(٤) المستدرک، جـ ٢، ص ٤٩٠.

(٥) سورة الأنبياء: من الآية ٨٧.

(٦) الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ١٨٧، الآلوسي: روح المعاني، جـ ٧، ص ٣١٤.

له عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ" (١)، وفي وصيته ﷺ لابن عباس ؓ: "تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ" (٢)، فلَمَّا كَانَ يُونُسُ عَبْدًا صَالِحًا ذَاكِرًا لِلَّهِ، نَجَّاهُ مِنْ بَطْنِ الْحَوْتِ، وَلَمَّا كَانَ فِرْعَوْنُ عَبْدًا طَاغِيًّا نَاسِيًّا لَذِكْرِ اللَّهِ وَقَالَ عِنْدَ غُرْقِهِ: ﴿أَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣)، لَمْ يَنْفَعِهِ ذَلِكَ، وَجَاءَهُ الرَّدُّ: ﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٤).

وقد ذكر الله تعالى نجاته عبده يونس في أكثر من موضع من القرآن العظيم، فقال: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥)، وقال: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٦)، وقال لنبيه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ (٧).

(١) الترمذي: السنن، وقال: "حديث غريب"، (كتاب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم

مستجابة)، جـ ٥، ص ٤٦٢، ح ٣٣٨٢، أبو يعلى: المسند، جـ ١١، ص ٢٨٤، ح ٦٣٩٧.

وحسنه الدكتور حسين سليم أسد في تحقيقه لمسند أبي يعلى.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٥، ص ١٩، ح ٢٨٠٣. وصححه محققو المسند.

(٣) سورة يونس: الآية ٩٠.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق/ كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد،

الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٩٠م، جـ ٧، ص ١٣٨.

(٥) الأنبياء: الآيتان ٨٧، ٨٨.

(٦) سورة الصافات: الآيتان ١٤٣، ١٤٤.

(٧) سورة القلم: الآيتان ٤٨، ٤٩.

وقد اختلف أهل التأويل في المدة التي لبثها يونس عليه السلام في بطن الحوت؛ فقليل أربعين يوماً^(١)، وقيل يوماً واحداً^(٢)، وقيل غير ذلك^(٣)، وكل هذه المقادير من الأقوال المتكاذبة^(٤)؛ لأنّ تعيين زمن معيّن يحتاج إلى نقل صحيح، ولم يؤثر ذلك في كتاب الله ولا في سنة نبيه ﷺ^(٥)، والأولى تفويض علم ذلك إلى الله^(٦).

وقد وصف لنا القرآن حالة يونس عليه السلام بعد أن طرحه الحوت في العراء، وكيف اعتنى به ربّه ورعاه، وجمع عليه أمة عظيمة من الناس فقال: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾^(٧). ولاحتمال النصّ القرآنيّ لعودة يونس إلى قومه بشريعة آمنوا بها، أو إرساله إلى أمة أخرى، وعدم القطع بأيّ منهما؛ فقد ذكر حذاق المفسّرين كلا الرأيين بلا ترجيح^(٨).

❏ ثناء النبي ﷺ على يونس عليه السلام:

لقد نهى النبي ﷺ أمّته عن تفضيل أحدهم نفسه على يونس عليه السلام فقال: "مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى"^(٩).

(١) ابن أبي شيبة: المصنف، ج٦، ص٣٣٨.

(٢) الحاكم: المستدرک، ج٣، ص١٨٧.

(٣) الرازي: التفسير الكبير، ج٢٦، ص١٦٥.

(٤) أبو حيان: البحر المحيط، ج٧، ص٣٦٠.

(٥) المراغي: التفسير، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م، ج٢٣، ص٨٤.

(٦) ابن كثير: التفسير، ج٤، ص٢٢، البداية والنهاية، ج١، ص٢٣٣.

(٧) سورة الصافات: الآيات ١٤٥ - ١٤٨.

(٨) الرازي: التفسير الكبير، ج٢٦، ص١٤٥، ابن كثير: التفسير، ج٤، ص٢٣.

(٩) البخاري: الصحيح: (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، ج٣، ص١٢٤٤، ح٣٢١٥، مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب ذكر

يونس عليه السلام)، ج٤، ص١٨٣٦، ح٢٣٧٧.

وقد استشكل هذا الحديث على بعض الناس؛ لكون النبي ﷺ أفضل الخلق، ولكن العلماء أجابوا على ذلك بأن النبي ﷺ قاله على سبيل التواضع وهضم النفس، وليس مخالفاً لقوله ﷺ: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة"^(١)؛ لأنه لم يقل ذلك مفتخراً، ولا متطاولاً به على الخلق، وإنما قال ذلك ذاكراً للنعمة، ومعتزفاً بالمنّة، وأراد بالسيادة ما يكرم به في القيامة، وقيل: ذلك قبل الوحي بأنه سيد الكل وخيرهم وأفضلهم، وقيل: قاله زاجراً عن توهم حط مرتبة يونس لما في القرآن من قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾^(٢)، ولعلّ هذا هو السبب في تخصيص يونس بالذكر من بين سائر الأنبياء عليهم الصلوة والسلام^(٣).

وقد وصف النبي ﷺ حال يونس عليه السلام وهو يؤم البيت الحرام في شدة البرد، عندما مرّ مع ثلّة من أصحابه على ثنية^(٤) يقال لها هرشي أو لفّت فقال: "كأنّي أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام على ناقّة حمراء جعده عليه جبة من صوف خطام ناقته خلبة"^(٥)، وهو يلبي^(٦).

(١) مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلق)، جـ ٤، ص ١٧٨٢، ح ٢٢٧٨.

(٢) سورة القلم: الآية ٤٨.

(٣) البدر العيني: عمدة القاري، جـ ١٥، ص ٢٩٣.

(٤) ثنية: الثنية في الجبل كالعقبة فيه، وقيل: هو الطريق العالي فيه، وقيل: أعلى المسيل في رأسه. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، جـ ١، ص ٢٢٦.

(٥) خطام ناقته خلبة: حبل من ليف يجعل في أحد طرفيه حلقة، ثم يشد فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة، ثم يقاد البعير، ثم يثنى على مخطمه، وأما الذي يجعل في الأنف دقيقاً فهو الزمام. المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٠.

(٦) مسلم: الصحيح، (كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ)، جـ ١، ص ١٥٢، ح ١٦٦.

موسى وهارون عليهما السلام

❏ أحوال بني إسرائيل في مصر قبل موسى عليه السلام:

لقد جاء إسرائيل وبنوه إلى مصر في عهد يوسف عليه السلام وتوفي يعقوب في مصر بعد أن وصّى بنيه بالحرص على التمسك بالإسلام حتى الممات، ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

وعاش إخوة يوسف في مصر سنوات عديدة بين ظهراي الشعب المصري على ضفاف وادي النيل يدينون بالإسلام والتوحيد، وذلك تحت ظل حكم الهكسوس الرعاة (١٧٢٥ - ١٥٧٥ ق م - الأسرتان ١٥، ١٦)، ثم بدعوا في الابتعاد تدريجياً عن دينهم، فغضب الله عليهم لعصيانهم واعتدائهم، وتمكّن المصريون الفراعنة من طرد الهكسوس من مصر، ثم تسلّطوا على بني إسرائيل فساموهم سوء العذاب^(٢).

ويتبيّن من القرآن الكريم أنّ تسلّط الفراعنة على بني إسرائيل كان ابتلاء لهم من الله لعلّهم يرجعون؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُكُمْ اللَّهُ فِي الدِّينِ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ سَأَلُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ قَالُوا لَا نَدْرِكُ بَلَاءَ مَن رَّبَّنَا عَلِيمٌ﴾^(٣).

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٣٢، ١٣٣.

(٢) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، ج ١، ص ٣١٧.

(٣) سورة إبراهيم: من الآية ٦.

وترجع كراهية المصريين لبني إسرائيل واضطهادهم لهم
لعدة أسباب:

أولاً: قدوم بني إسرائيل في زمن احتلال الهكسوس لمصر، ومعاونتهم
لهم في جمع الضرائب والمكوس، ولا تخلو هذه المهنة - غالباً - من
التعسف^(١).

ثانياً: رغبة المصريين فيهم، وتوقعهم لغدرهم، وانضمامهم لعدوهم، أو
كشفهم لأسرارهم العسكرية^(٢)، خاصة وأنهم كانوا يقيمون على المعبر
البري الشرقي الذي تأتي منه حملات الغزو - "جاسان في العهد القديم"،
وادي الطميلات بين الزقازيق والإسماعيلية، وهذا ما تؤكد التوراة حيث
تقول: "إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون
من الأرض"^(٣).

ثالثاً: تطير المصريين من نبوءة حكمهم بواحد من ذرية بني إسرائيل^(٤)،
وهذه النبوءة يستبعدوها أحد المؤرخين المحدثين^(٥)، ويرى أن فرعون
صبّ عليهم جام غضبه وسوط عذابه؛ لخيانتهم له في إحدى المعارك
العسكرية مع الحيثيين، لكن القرآن الكريم لا يؤيد هذا الاستنتاج، ويبيّن

(١) حمدي عبده سلامة موسى: رؤية جديدة في تاريخ بني إسرائيل واليهود والعبرانيين، القاهرة،
الطبعة الثانية، ٢٠١٠م، ص ٤٤.

(٢) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل (الجزء الأول) التاريخ منذ عصر إبراهيم وحتى عصر
موسى عليهما السلام، ص ٢٤٥.

(٣) سفر الخروج، إصحاح ١، الفقرة ١٠.

(٤) الطبري: التفسير، ج ١، ص ٢٧٢، ابن أبي حاتم: التفسير، ج ١، ص ١٠٦.

(٥) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل (الجزء الأول) التاريخ منذ عصر إبراهيم وحتى عصر
موسى عليهما السلام، ص ٢٥٥، ٢٥٦.

أنّ فرعون سامهم سوء العذاب لأنّه (كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)^(١)، لا أنّهم كانوا خونة غادرين، والقرآن لا يحابي أحداً، ومن المعروف بين الأمم أنّ عقوبة الخائن في مثل هذه المواقف الحاسمة تكون بالتخلّص منه والقضاء عليه، لا بإبقائه وتقتيل ذريّته.

رابعاً: كره المصريّين -كانوا يعبدون الأصنام آنذ- لبني إسرائيل الذين يذكّرونهم بنبيّ الله يوسف ودعوته، ولم يكن المصريّون يرغبون في تذكر دعوة التوحيد التي دعاهم إليها يوسف عليه السلام وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم على لسان مؤمن آل فرعون: (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)^(٢).

ولمّا أقام المصريّون الدّولة الحديثة (١٥٧٠ - ١٠٩٠ ق. م) بقيادة "أحمس" على نظام وثنيّ جاهليّ يقوم على عبادة الأصنام والأوثان وتأليه الملوك، وظلّ بنو إسرائيل مقيمين في مصر تحت ذلك الحكم يقاسون ألواناً من الاضطهاد والاستعباد، غير أنّ أكثرهم ظلّ متمسكاً بإسلامه وعقيدته، بل كان لهم أثر في وصول الإسلام والإيمان إلى بلاط فرعون ودخوله بيته، كما هو صريح القرآن الكريم في وجود رجل مؤمن من آل فرعون، واعتناق زوج فرعون للإسلام، ثمّ شاءت إرادة الله تعالى أن يرسل إلى بني إسرائيل في مصر رسولاً منهم؛ ليردّهم إلى الدّين الحقّ والطّريق المستقيم، وكان ذلك الرّسول الكريم هو موسى الكليم^(٣).

(١) سورة القصص: من الآية ٤.

(٢) سورة غافر: الآية ٣٤.

(٣) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم، ص ١٠٠ - ١٠٤.

❏ مولد موسى ﷺ ونشأته:

ولد موسى ﷺ في عهد الفرعون المصري رمسيس الثاني (١٢٩٠-١٢٢٤ ق.م) على الأرجح^(١)، أو مرنبتاح بن رمسيس (١٢٢٤-١٢١٤ ق.م) حيث كان فرعون مصر يستعبد بني إسرائيل، ويسومهم سوء العذاب.

ويذكر رواية الأخبار^(٢) أن فرعون لجأ لتعذيب بني إسرائيل؛ لأنه رأى في نومه ناراً أقبلت من بلاد الشام، واشتعلت في بيوت المصريين فأحرقتهم، وترك بني إسرائيل، فعبرها له الكهنة والمنجمون بمولد غلام من بني إسرائيل، يسلب الفرعون ملكه، ويبدل دينه، ويخرجه من أرضه، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد لبني إسرائيل، فلما فني صغارهم، وأسرع الموت في شيوخهم، نصح الفرعون جماعة من المقرّبين برفع التقتيل عن بني إسرائيل؛ لئلا تقع الأعمال الخسيسة عليهم بعد فنائهم، فأمر بقتل الغلمان سنة، وتركهم سنة، وهذا من أشدّ الطّيش والحمق؛ لأنه لا يعلم مولد الغلام في أيّ السنتين يكون!

وقد ولد هارون في السنة التي لا يذبح فيها المواليد، وأمّا الولد المراد فأولده الله في السنة التي يذبحون فيها الأولاد، وبالرغم من ذلك، حفظه الله من الفرعون ورعاه، وفي بيته وبين يديه ربّاه؛ ليعلم الناس جميعاً أنه لا يغني حذر من قدر، وأنه لا رادّ لقضاء الله.

(١) أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن والسنة، ص ٨٤.

(٢) الطبري: التفسير، ج ٢٠، ص ٢٧، ابن أبي حاتم: التفسير، ج ١، ص ١٠٦، ابن الأثير:

الكامل في التاريخ، ج ١، ص ١٣١، ابن كثير: التفسير، ج ١، ص ٩١، السيوطي: الدر

المنثور، ج ٦، ص ٣٨٩.

ولقد أخبرنا القرآن الكريم عن الظروف التي ولد فيها موسى عليه السلام وصنيع أمه بعد مولده، وعن حاله إلى أن بلغ أشده واستوى، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُكِنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

وقد فصلت المصادر الإسرائيلية قصة موسى من ولادته حتى وصوله إلى قصر فرعون^(٢)، وتقترب القصة في مجملها مع ما قصة

(١) سورة القصص: الآيات ٢-١٤.

(٢) آمال ربيع: الإسرائيليات في تفسير الطبري، ص ١١٨.

القرآن الكريم، غير أن القرآن يقرّر أن التي تبنته امرأة فرعون، وما في سفر الخروج ينصّ على أنها ابنته، ولعلّ امرأته كانت واسطة بين البنت وأبيها، وأنها تولّت تحسين أمر استبقائه لفرعون، كما يذكر القرآن أن الله أمر أم موسى بالقاء التّابوت في اليمّ وأنّ اليمّ ألّقه بالسّاحل، والمصادر الإسرائيليّة تذكر أنها هي التي وضعت بالسّاحل^(١).

وتذكر الروايات الإسلاميّة أنّ موسى ضرب رأس فرعون بالقضيب وهو طفل صغير فهمّ الفرعون بقتله لولا أن أشارت عليه زوجته بعدم إدراك الطّفل، ونصحته باختباره للتّأكد من هذا الحدث العفويّ بتقديم جمرة وياقوتة له، فإذا اختار الياقوتة كان الصّبيّ مميّزاً، وإن اختار الجمرة فالبراءة له، فأخذ الصّبيّ الجمرة ووضعها في فيه بناءً على الدّعم الفوريّ من الملك الذي تدخل في اللحظة الحاسمة، وأدّت تلك الحادثة إلى عجمة لسان موسى^(٢)، ولكنّ هذه القصّة لم ترد في القرآن الكريم ولا في الحديث النّبويّ، وليس لها مصدر سوى كتب التّفاسير والأساطير الإسرائيليّة^(٣)، ويبدو أنّ سبب عجمة موسى ﷺ يكمن في تكلمه بلغات أخرى^(٤)، ولا شكّ أنّه كان يدري لسان الإسرائيليّين والمصريّين والمدنيّين.

(١) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ص ٢٢٤.

(٢) الطبري: التفسير، ج ١٦، ص ١٥٩، الحاكم: المستدرک علی الصحیحین، ج ٣، ص ١٨٠، القرطبي: التفسير، ج ١١، ص ١٩٢، السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج ٦، ص ٣٩٠، ٣٩١.

(٣) آمال ربيع: الإسرائيليّات في تفسير الطبري، ص ١١٩.

(٤) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل (الجزء الأول) التاريخ منذ عصر إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام، ص ٢٧٧.

نشأ موسى عليه السلام بين مظاهر الترف ومباهج السلطان يتغذى بأطيب المأكّل، ويلبس أحسن الملابس، وتعهّده امرأة فرعون بالعطف والحنان، ونتيجة لتبني فرعون له وتربيته في بيته فقد كانت له مكانة عظيمة بين المصريين، واستفاد الإسرائيليون من مكانته، فكانوا يلجأون إليه إذا اعتدى أحد عليهم فيسارع إلى إغاثنهم ونصرتهم^(١).

وقد ذكر لنا القرآن الكريم مثالا لما كان يفعله موسى في مؤازرة قومه ومناصرتهم في قوله تعالى: «وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ * فَلَمَّا أَنِ ارَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ»^(٢).

ولا شك أنّ قتل القبطي على يد رجل إسرائيلي قد أقلق بالفرعون وحاشيته، وهزّهم هزاً عنيفاً؛ لأنه ينبئ بثورة بني إسرائيل يوماً ما، ومع حرص فرعون على معرفة القاتل والإمساك به، إلا أنهم

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٤١.

(٢) سورة القصص: الآيات ١٥ - ١٩.

لم يستطيعوا شيئاً حتى كشف لهم الخبر عن طريق الإسرائيليين الغوي الذي يكثر من الاشتباكات التي تثير الثائرة على بني يعقوب^(١).

وقد ندم موسى عليه السلام ندماً شديداً على الدفعة التي قتل بها القبطي الكافر، وجعلها من عمل الشيطان، وسمّاها ظلماً لنفسه، لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل، فعده ذنباً يستغفر منه، وإن كان لم يتعمده، وذلك لأن الأنبياء يشفقون ممّا لا يشفق منه غيرهم، وبلغ الأمر بموسى عليه السلام أنه لم يزل يُعدّد ذلك على نفسه، مع علمه بأنّه قد غفر له، حتّى إنّه ليشفق منه يوم القيامة^(٢)، ويقول: "إِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُوْمَرْ بِقَتْلِهَا"^(٣).

ولمّا علم الملأ من قوم فرعون بأنّ موسى هو قاتل الأُمس تأمروا على قتله، ولكنّ الله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَام سخر له رجلاً منهم، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٤)، فأخذ يبحث عن موسى ويجدّ في طلبه حتّى أبلغه بالمؤامرة التي تحاك ضده ونصحه بمغادرة مصر على الفور، وكان في ذلك نجاة موسى من فرعون وملئه، كما قصّ القرآن خبره، ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتُ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا

(١) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم، ص ١٠٩، ١١٠.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٣، ص ٢٦١.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿نُرِيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، ج ٤،

ص ١٧٤٥، ح ٤٤٣٥.

(٤) سورة المدثر: من الآية ٣١.

الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(١).

ولمَّا خرج موسى ﷺ من مدينة مصر، ولم يكن غادرها قبل ذلك لم يدر أين يتوجّه؟ ولا أيّ طريق يسلك، فلمَّا لاحت له طريق مدين سأل ربّه العون والهداية، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدِينٍ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(٢)، وليس بعيداً أن يكون موسى قد قصد التوجّه إلى قبيلة مدين لصلة القرابة بينه وبين تلك القبيلة العربية التي ينتهي نسبه ونسبها إلى نبيّ الله إبراهيم^(٣)، غير أنّه لم يكن يعرف لها طريقاً، فهده الله إليه.

❏ هجرة موسى ﷺ إلى مدين:

إنّ من تحن منه التفاتة إلى الماضي البعيد، ويعايش الظروف التي خرج فيها موسى ﷺ ويراقب بخياله ما بين مصر ومدين، يستشعر ما لاقاه نبيّ الله من متاعب وأهوال، ولا يستبعد أنّه لم يأكل في طريقه إلا البقل وورق الشجر، وأنّه خرج حافياً فسقطت نعلاً قدميه من الحفاء، وأنّه جلس في الظلّ وبطنه لاصق بظهره من الجوع، وإنّ خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وهو محتاج إلى شقّ تمرّة^(٤)؛ وذلك لأنّه خرج خائفاً متعجلاً لم يتجهز للسفر بمال ولا طعام ولا حذاء، وبالرغم من ذلك

(١) سورة القصص: الآيات ١٨ - ٢١.

(٢) سورة القصص: الآية ٢٢.

(٣) محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء، ص ١٨٩.

(٤) الطبري: التفسير، ج ٢٠، ص ٥٩، ابن أبي حاتم: التفسير، ج ٩، ص ٢٩٦١، ٦٢، ابن

كثير: التفسير، ج ٣، ص ٣٨٤، ٣٨٥، السيوطي: الدر المنثور، ج ٦، ص ٤٠٥، ٤٠٦.

يسارع إلى الخيرات، دون أن يسأل أجراً أو لقيماً! بل يتجه إلى من يرزق عباده من الأرض والسموات، ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^(١)، فيجيبه ربّه بأسرع جواب، ويسوق إليه إحدى البننتين، ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾^(٢).

وقد اختلفت أقوال المفسرين في الشيخ الكبير، فقال الجمهور: إنه شعيب عليه السلام، وقيل: ابن أخيه، وقيل: رجل صالح ليس من شعيب بنسب^(٣)، وليس في القرآن ما يدل على أنه كان شعيباً^(٤)، وقد استبعد ابن كثير رأي الجمهور؛ لأنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في هذا الموضع من القرآن، ولم يصح شيء من الأحاديث التي صرحت بذكره

(١) القصص: الآيتان ٢٣، ٢٤.

(٢) سورة القصص: الآيات ٢٥ - ٢٨.

(٣) ابن كثير: التفسير، جـ ٣، ص ٣٨٥.

(٤) الرازي: التفسير الكبير، جـ ٢٤، ص ٢٠٥.

في قصّة موسى^(١)، وفي توراة اليهود ثلاثة أقوال متعارضة، يصعب التوفيق بينها^(٢).

والرأي أن تعيين الشيخ الكبير بشعيب خطأ لا شك فيه؛ لأنّ الله تعالى ذكر في غير ما موضع من القرآن الكريم أنه بعث موسى بعد شعيب بصيغة التراخي "ثم"، ممّا يدلّ على أنّهما لم يتعاصرا، ولا كان موسى من شعيب بقريب.

❏ مغادرة موسى ﷺ لأرض مدين:

ولما قضى موسى المدة المتفق عليها مع صهره^(٣)، خرج عائداً إلى مصر بأهله وماله الذي استفاده مدة مقامه بمدين^(٤)، وحدث أنه تاه بأهله أثناء عودته في ليلة مظلمة باردة، ولكنه لم يتحير طويلاً حتى لاحت له نار في الجهة التي تلي جبل الطور، فأنزل أهله وأمرهم بعدم تركهم لمكانهم حتى يعود إليهم بنار يوقدون بها.

وقد ذكرت تلك الليلة في أكثر من موضع من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ

(١) ابن كثير: التفسير، جـ ٣، ص ٣٨٥، ٣٨٦.

(٢) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل (الجزء الأول) التاريخ منذ عصر إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام، ص ٢٦٧.

(٣) روى البخاري عن سعيد بن جبير أنّ رجلاً من أهل الحيرة سأله عن أي الأجلين قضى موسى؟ فقال: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فلما قدم على ابن عباس وسأله قال: "قضى أكثرهما وأطيبهما، إنّ رسول الله ﷺ إذا قال فعل". صحيح البخاري، (كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد)، جـ ٢، ص ٩٥٣، ح ٢٥٣٨.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ٢٤٦.

النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ»^(١)، وقال أيضاً: «وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى»^(٢)، وقد دلّ قوله: «تَصْطَلُونَ» على وجود البرد، وقوله: «بِقَبَسٍ» على وجود الظلام، وقوله: «أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى» على أنه قد تاه عن الطريق^(٣).

﴿نبوة موسى عليه السلام﴾:

لقد أعلم الله أم موسى باختياره ولدًا لها للرّسالة منذ ولادته، فأوحى إليها: «أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ»^(٤)، ولذلك ألقى الله ﷻ عليه محبة منه، وحببه إلى خلقه، وصنعه على عينه، فتولّى تربيته ورعايته^(٥)، وهيّا لتلقي أعباء النبوة والرّسالة.

وكان بدء نزول الوحي على موسى عليه السلام أثناء عودته من مدين إلى مصر، عندما ظهر له نور عظيم من الجانب الأيمن لجبل الطور عند شجرة هناك، فحسبه ناراً، كما قصّ الله تعالى ذلك: «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»^(٦)، وقال تعالى: «وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ

(١) سورة القصص: الآية ٢٩.

(٢) سورة طه: الآيتان ٩، ١٠.

(٣) ابن كثير: التفسير، ج٣، ص١٤٤.

(٤) سورة القصص: الآية ٧.

(٥) البغوي: التفسير، ج٣، ص٢١٧.

(٦) سورة القصص: الآية ٣٠.

عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ
إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى^(١).

وقد رُوي حديث مرفوع في سبب أمر الله تعالى لنبيه موسى بخلع نعليه أنهما كانا من جلد حمار غير ذكي^(٢)، لكنه حديث ضعيف جداً^(٣)، لا يصح رفعه للنبي ﷺ، والأقرب أن يكون موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه ومما تسرب عن أهل الكتاب.

والظاهر أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً لتلك البقعة المباركة أن تلبس فيها النعال، ولا سيما في تلك الليلة المباركة^(٤)؛ لأن الحفة أبلغ في التواضع، وأقرب إلى التشريف والتكريم وحسن التأدب^(٥).

وبعد أن أعلم الله موسى باصطفائه للرسالة أخبره بألوهيته وربوبيته^(٦)، «يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»^(٧)، «إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»^(٨)، «إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا»^(٩)، ثم أمره بجميع أنواع

(١) سورة طه: الآيات ٩ - ١٣.

(٢) الترمذي: السنن، (كتاب اللباس، باب ماجاء في لبس الصوف)، ج٤، ص٢٢٤، ح١٧٣٤،

الحاكم: المستدرک، ج١، ص١٢٣، ح٧٦، ج٢، ص٤٨٦، ح٣٤٨١.

(٣) الذهبي: تلخيص المستدرک، ج٢، ص٤٨٦، الألباني: السلسلة الضعيفة، ج٣، ص٣٨٩.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص٢٤٧.

(٥) القنوجي: فتح البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤١٢هـ/

١٩٩٢م، ج٨، ص٢١٩.

(٦) السعدي: التفسير، ص٦١٥.

(٧) سورة النمل: الآية ٩.

(٨) سورة القصص: من الآية ٣٠.

(٩) سورة طه: من الآية ١٤.

العبادة، ظاهرها وباطنها، أصولها وفروعها، ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(١)، وخصّ الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في العبادة؛ لفضلها وشرفها، وتضمّنها عبودية القلب واللسان والجوارح^(٢)، وأعقب الله ذلك بتعليل وجوب العبادة^(٣) فقال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾^(٤)، ثم درّب الله موسى على تلقّي النبوة وتكاليفها في آيتين عظيمتين^(٥)، فقال: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا وَلَمْ يَعْقِبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(٦)، وبهذا يكون موسى قد أصبح نبياً، بعد أن كلّمه ربّه عند جبل طور سيناء المصريّة، وأعطاه آيتين تدلان على صدق نبوّته، ثم أصدر إليه أمراً بالذهاب إلى فرعون وملئه وقومه ليدعوهم إلى الله.

▣ نبوة هارون عليه السلام:

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ نَبِيَّهٖ مُوسَىٰ بِالذَّهَابِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ عَلمَ أَنَّهَا الرِّسَالَةُ، وفهم قدر التّكليف، فطلب من الله المعونة عليها^(٧)، ﴿قَالَ رَبِّ

(١) سورة طه: من الآية ١٤.

(٢) السعدي: التفسير، ص ٥٠٣.

(٣) أبو السعود: التفسير، ج ٦، ص ٨.

(٤) سورة طه: الآيتان ١٥، ١٦.

(٥) الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، (تفسير الثعالبي)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ج ٣، ص ٢٧.

(٦) سورة القصص: الآيتان ٣١، ٣٢.

(٧) الثعالبي: التفسير، ج ٣، ص ٢٧.

اشْرَحَ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي *
يَفْقَهُوا قَوْلِي^(١)، ثُمَّ تَذَكَّرَ فعلته التي هرب لأجلها من مصر فقال: ﴿رَبِّ
إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾^(٢)، وشعر بالخطر الذي سيلقاه
عندما يواجه فرعون في كبريائه وسلطانه، فسأل الله تعالى أن يعينه
بأخيه هارون، ويشركه معه في أداء الرسالة فقال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ
أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾^(٣)،
وقال: (وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونُ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي *
وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي)^(٤)، فأجابه الله إلى جميع ما سأل، وأعطاه كل ما
طلب، وشفّعه في نبوة أخيه، وذلك قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ
هَارُونَ نَبِيًّا﴾^(٥)، وهذا من الجاه العظيم الذي أعطاه الله لنبيه موسى، فقد
﴿كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾^(٦)، وقد أجابت عائشة من سألها عن أمنّ أخ على
أخيه بأنّه موسى بن عمران، الذي شفع في أخيه فأُوحى إليه^(٧)، وكان
موسى نبيلًا عندما طلب من ربّه أن يعينه بأخيه هارون، لأنّه أفصح منه
لسانًا، واليون شاسع بينه وبين أخوة يوسف.

بل وعد الله نبيه موسى -ووعده الحق- بالنصر والغلبة على
فرعون، ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعُلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ
إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ﴾^(٨).

(١) سورة طه: الآيات ٢٥ - ٢٨.

(٢) سورة القصص: من الآية ٣٣.

(٣) سورة القصص: الآية ٣٤.

(٤) سورة طه: الآيات ٢٩ - ٣٢.

(٥) سورة مريم: الآية ٥٣.

(٦) سورة الأحزاب: من الآية ٦٩.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٤٩.

(٨) سورة القصص: الآية ٣٥.

❏ دعوة موسى وهارون لفرعون:

كانت رسالة نبيّ الله موسى من أضخم التكاليف التي تلقّاها الأنبياء؛ لأنّه أرسل إلى الطاغية فرعون الذي يدّعي الإلهيّة لنفسه، وإلى قومه الذين وصفهم الله بالظلم والفسق، كما أنّه أرسل لاستنقاذ بني إسرائيل الذين مردوا على الذل واستمرعوا مذاقه دهرًا طويلاً، وانحرفوا عن العقيدة الإسلامية، وأفسدوا صورتها في قلوبهم^(١).

ولم يذكر القرآن الكريم كيفيّة التقاء موسى بأخيه هارون، ولا كيفيّة وصولهما إلى فرعون؛ لأنّ القرآن لا يهتمّ بجزئيات الأحداث التي لا تتوقّف عليها العبر والعظات^(٢).

وكان أوّل ما بدأ به موسى وهارون دعوتها للفرعون أن توجّها إليه وخاطباه وهو في ملئه وحاشيته: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَن أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٣)، فأسقط في يد فرعون من جرائعتهما على مثل هذا الكلام، ولكنّه تمالك، وأخذ يناقش موسى ويذكره بما له عليه من أياد سابقة، ﴿قَالَ أَلَمْ نَرْبِكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عِبَدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٤).

وقد اختلف المفسّرون في تأويل الآية الأخيرة، فجعلها بعضهم إقراراً من موسى بنعمة فرعون عليه، حيث ربّاه ولم يقتله، كما قتل سائر

(١) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم، ص ١١٣.

(٢) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، ج ١، ص ٣٦٣.

(٣) سورة الشعراء: الآيتان ١٦، ١٧.

(٤) سورة الشعراء: الآيات ١٨ - ٢٢.

غلما ن بني إسرائيل، ولم يستعبده كما استعبد بني إسرائيل، وجعلها الآخرون إنكاراً من موسى لكلام فرعون الذي نسي جنايته على بني إسرائيل بالاستعباد والمعاملات القبيحة، ومنّ عليه بهذه النعمة التي لا تذكر بجوار إجرامه الذي دفع أمّه لإلقائه إليه، ولولا ذلك لتولّى الإسرائيليّون تربية موسى، ولم يلقوه في اليم^(١)، والظاهر من المساجلات التي دارت بين موسى وفرعون أنّ نبيّ الله قصد الإنكار على فرعون.

لم يجد فرعون أمام الردود القويّة من موسى إلا أن ينتقل مباشرة إلى مناقشة القضية التي جاء بها موسى فقال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾^(٣)، ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾^(٤)، ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(٥)، فسأل الفرعون موسى عن القرون الأولى؟ فقال: ﴿عَلِمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾^(٦)، ثمّ جال موسى بفرعون في آيات الله في الكون، ومنها أفهمه ما سيصير إليه من بعث وحساب، فقال عن ربّه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾^(٧).

(١) البغوي: التفسير، جـ ٣، ص ٣٨٣، ٣٨٤.

(٢) سورة الشعراء: من الآية ٢٣.

(٣) سورة طه: من الآية ٤٩.

(٤) سورة الشعراء: الآية ٢٤.

(٥) سورة طه: من الآية ٥٠.

(٦) سورة طه: من الآية ٥٢.

(٧) سورة طه: الآيات ٥٣، ٥٥.

ووجد فرعون نفسه ضئيلاً أمام محاوراة موسى فأشرك معه بطانته وحاشيته؛ ليؤلبهم عليه، ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾^(١)، فدعاهم موسى للإيمان بالله، ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢)؛ لأن وجود الإنسان وآبائه أظهر الأدلة وأعظم البراهين عند العقلاء، فإن أنفسهم أقرب الأشياء إليهم، فيستدلون بها على وجود خالقهم، ولكن موسى لم يسمع لهم رداً ولا همساً، بل كانوا لا يعقلون، كما وصفهم الله بقوله: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(٣)، فلما ظهرت حجة موسى عليهم حاد فرعون عنها، ونسب موسى إلى الجنون مغالطة منه، وأيد الأزدراء والتهمك فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾^(٤)، فزاد موسى في إقامة الحجة عليهم، ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٥)؛ لأن طلوع الشمس وغروبها آية ظاهرة لا يمكن أحداً جحدها، ولا أن يدعيها لغير الله، كما احتج بها الخليل إبراهيم من قبل^(٦)، وهنا أفلس الفرعون فكرياً، وعجز عن الحوار ومقارعة حجج موسى، فاستشاط غضباً، وأرعد وأزبد، وفكر في وسيلة تكف موسى عن دعوته فلم يجد إلا السجن والحجب عن الناس، ﴿قَالَ لَنْ اتَّخَذَتْ إِلَهاً غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾^(٧).

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٦.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٥.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٥٤.

(٤) سورة الشعراء: من الآية ٢٧.

(٥) سورة الشعراء: من الآية ٢٨.

(٦) ابن جزي: التسهيل لعلوم التنزيل، ج ٣، ص ٨٥.

(٧) سورة الشعراء: الآية ٢٩.

لم يتوقع فرعون أن موسى ما كان له أن يقف هذا الموقف إلا وهو مزود بقوة من الله لا يقف لها سلطان، وكان طبيعياً ألا يخاف موسى من تهديد فرعون؛ لاطمئنانه بما معه من المعجزات العظيمة، ﴿قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾^(١)، لكن فرعون استبعد أن يكون معه شيء من ذلك، وقال لموسى على الفور: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾^(٢)، فهال فرعون ما رأى، وفزع فزعاً عظيماً، لكنه لم ينتفع من ذلك بشيء وقرر أن هذا كله سحر^(٣)، ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾^(٤)، وهكذا يتنزل الطغاة ويتباكون عندما يضيق الخناق حول رقابهم، فإذا ما انفكت عنهم الشدة عادوا إلى طغيانهم وفجورهم^(٥).

المناظرة بين موسى ﷺ والسحرة أمام فرعون:

لما نصح الملأ فرعون بمواجهة موسى وأخيه بمثل سلاحهما، وقالوا له: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾^(٦)، طلب فرعون وملؤه من موسى أن يواعدهم يوماً معلوماً في مكان معلوم لمواجهة السحرة، وكان من أكبر مقاصد موسى ﷺ أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس، ولهذا واعدتهم

(١) سورة الشعراء: الآية ٣٠.

(٢) سورة الشعراء: الآيات ٣١، ٣٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٥١.

(٤) سورة الشعراء: الآيتان ٣٤، ٣٥.

(٥) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، ج ١، ص ٣٦٧.

(٦) سورة الشعراء: الآيتان ٣٦، ٣٧.

في يوم عيد لهم وقت اشتداد ضياء الشمس، وقال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾^(١)، فأسرع فرعون في جمع السحرة، ودعا أمراءه وأهل دولته لحضور ذلك المشهد العظيم فجاءوا يقولون: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾^(٢)، وحُشِرَ المصريون لمشاهدة تلك المناظرة الرهيبة^(٣)؛ ليعلم الفرعون انتصاره وهيمنته أمامهم.

وجاء السحرة في جموع غفيرة، وتلقاهم موسى ﷺ فدعاهم إلى الله، وخوفهم عذابه، ولكنهم سددوا في غيهم، ظناً منهم أن موسى وهارون ساحران يريدان التفوق بتلك الصنعة عليهم، كما صور القرآن ذلك المشهد: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى * فَتَنَّا عَمَّا بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى * قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾^(٤)، وبلغ من ثقة السحرة بأنفسهم أن طلبوا المكافأة من فرعون، ﴿أَنْ لَّنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾^(٥)، فوعدهم بعظيم الأجر وكريم المنزلة قائلاً: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾^(٦).

اصطف السحرة في ساحة العرض يملؤهم الغرور، ووقف موسى وهارون أمامهم ينتظران السرور، فاندفعوا يخبرون موسى بين أن يبدأ

(١) سورة طه: من الآية ٥٩.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٤٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٥٤.

(٤) سورة طه: الآيات ٦١، ٦٤.

(٥) سورة الشعراء: من الآية ٤١.

(٦) سورة الشعراء: من الآية ٤٢.

بالإلقاء أو يبدؤوا هم بالإلقاء سحرهم^(١)، فقال موسى: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾^(٢)، ولم يبال ببديئهم؛ ازدراء لشأنهم، وقلة مبالاة بهم، وثقة بتأييد الله ﷻ له بالمعجزات التي لن يغلِبها سحر أبداً^(٣).

عمد السحرة إلى حبالهم وعصيهم التي أودعوها بعض الآلات والمواد التي تخيل للرأي تحركها واضطرابها، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾^(٤)، فتعالت لهم من الجماهير الهتافات، وتوالت عليهم التحيات، فطمأنوا المشجعين قائلين: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾^(٥)، وبلغ من عظمة المشهد ومهابته أن خيل لنبي الله موسى أن حبالهم انقلبت حياتٍ وثعابين، فتسرّب الخوف إلى نفسه، لكنه لم يبده لهم، كما قال الله: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى﴾^(٦)، لكن عناية الله التي تحوط موسى وأخاه تدخلت في الوقت المناسب، وجاء الأمر لموسى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾^(٧)، وعلى الفور ﴿أَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾^(٨)، (فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هناك وانقلبوا صاغرين)^(٩).

(١) ابن جزى: التسهيل لعلوم التنزيل، جـ ٢، ص ٤١.

(٢) سورة الشعراء: من الآية ٤٥.

(٣) الزمخشري: الكشاف، جـ ٢، ص ١٣٢.

(٤) سورة الأعراف: من الآية ١١٦.

(٥) سورة الشعراء: من الآية ٤٤.

(٦) سورة طه: الآيتان ٦٦، ٦٧.

(٧) سورة طه: الآيتان ٦٨، ٦٩.

(٨) سورة الشعراء: من الآية ٤٥.

(٩) سورة الأعراف: الآيتان ١١٨، ١١٩.

❏ إيمان السحرة وبلاؤهم:

لقد شعر السحرة في بداية الأمر بمرارة الهزيمة، وتحيروا في أمرهم، ولكنهم سرعان ما تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة، ولا زور ولا خيال، ولا بهتان ولا ضلال، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذي ابتعث موسى وأيده بالحق، فكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى، وأزاح عنها القسوة، فأنابوا إلى ربهم، وخرّوا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين: ﴿أَمَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾^(١)، ولم يخشوا عقوبة ولا ابتلاء^(٢)، وانقلبوا من سحرة مأجورين إلى مؤمنين من خيار المسلمين.

إن موقف السحرة المصريين من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية كلها، فقد ظهر فيه انتصار العقيدة على الحياة، وانتصار العزيمة على الألم، وانتصار الإنسان على الشيطان، والاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطّاغين، إنها الحرية الحقيقية التي تستهين بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب، وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح، كما ظهر في هذا الموقف إفلاس المادية التي استعلت عليها السحرة بين غمضة عين وانتباهتها، واستهانوا بالتهديد والوعيد، وتركوا الأموال والتّقريب، وأقبلوا على التّكيل والتّعذيب^(٣).

وأما فرعون اللعين فإنّه أدرك أن إيمان السحرة يمثل خطراً على ملكه وحكمه، ففكر وقدر، وأعمل الحيلة لمنع المصريين من الدّخول في

(١) سورة الأعراف: الآيتان ١٢١، ١٢٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٥٦.

(٣) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم، ص ١١٩.

الإسلام، وقال للسحرة السابقين: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١)، فأنكر عليهم فعلهم، ووبّخهم على اتباعهم لموسى قبل استئذانه، ثمّ وجه إليهم تهمة التواطؤ مع موسى لإخراج المصريين من بلادهم، وإبطال ملكهم، ومعلوم أنّ مفارقة الأوطان المألوفة، والنّعمة المعروفة، ممّا لا يطاق، وذلك تثبيتاً للقبط على ما هم عليه، وتهيجاً لعداوتهم لموسى، ثمّ عقّب ذلك بالوعيد، ليريههم أنّ له قوّة وقدرة على المدافعة^(٢)؛ وليحسب المفارق له ألف حساب، وأجمل فرعون تهديده للتهويل، ثمّ شرع في التفصيل للتّكيل.

ولم يكن فرعون يدري أنّ من ذاق حلاوة الإيمان يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواه، ويكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار، وكان الرّد القاطع من المؤمنين لفرعون اللعين: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، وكشفوا لجموع الحاضرين السّبب الذي عاقبهم فرعون عليه بقولهم: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتَنَا رَبَّنَا أَفَرغَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾^(٤)، و ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾^(٥).

(١) سورة الأعراف: الآيتان ١٢٣، ١٢٤.

(٢) أبو السعود: التفسير، جـ ٣، ص ٣٦١.

(٣) سورة الشعراء: الآيتان ٥٠، ٥١.

(٤) سورة الأعراف: الآيتان ١٢٥، ١٢٦.

(٥) سورة طه: الآيتان ٧٢، ٧٣.

والظاهر من سياقات قصّتهم في القرآن الكريم أنّ فرعون صلبهم وعذبهم، حتّى قال ابن عبّاس رضي الله عنه: "كانوا أوّل النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة"^(١)، وفي نصّ القرآن على دعوة السحرة المؤمنين بأن يتوفّاهم ربّهم مسلمين قطع لدعوى من ينسبهم ونبيّهم موسى إلى اليهود.

❏ إيذاء فرعون لأتباع موسى:

لم يحتمل الملاء من قوم فرعون تحرّك موسى وقومه للدّعوة إلى الله، وانتصار الإيمان على الطّغيان، فقاموا يحرّضون فرعون عليهم، ويخوّفونه فقدان الهيبة والسّلطان، معتبرين الدّعوة إلى وحدانيّة الله إفساداً في الأرض؛ لأنّها ستحرّر النّاس من ظلمهم وجبروتهم، وتفتح العيون على النّور الذي يخشاه أولئك الفاسقون، فأسرع فرعون لإجابتهم بمنطق الطّغاة المستكبرين^(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْهَيْكَةَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾^(٣).

وكان الوزير هامان وصاحب المال قارون أشدّ أعوان فرعون على موسى وأتباعه، وقد خصّهما الله بالذكر، وقرنهما مع فرعون؛ لعظيم مكانهما وخطرهما فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(٤).

(١) ابن كثير: التفسير، جـ ٣، ص ١٥٩.

(٢) محمد سيد طنطاوي: القصّة في القرآن الكريم، جـ ١، ص ٤٠٣.

(٣) سورة الأعراف: الآيتان ١٢٧.

(٤) سورة غافر: الآيات ٢٣، ٢٥.

وقد عاد فرعون يقتل غلمان بني إسرائيل بعد بعثة موسى ﷺ لإهانتهم وإذلالهم وتقليل عددهم؛ لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها، ويصلون على القبط بسببها^(١).

لم يجد قوم موسى المستضعفون أمام الظلم والإيذاء الواقع عليهم إلا أن يستجدوا بنبي الله موسى، فكانت نصيحته لهم: «اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»^(٢)، ولكنهم أساءوا الأدب مع نبيهم، وجاء ردّهم دالاً على سفههم، «قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِدْوُكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»^(٣).

وكانت امرأة فرعون ممن آمن بدعوة موسى ﷺ فأذاها فرعون وعذبها عذاباً شديداً لترجع إلى الكفر، لكنها استعانت بالله، وضربت أروع المثل في الصبر على الإيذاء في ذات الله^(٤)، حتى ضربها الله مثلاً للمؤمنين^(٥): «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»^(٦)، فأجاب الله دعاءها وجعلها من خيرة نساء العالمين، كما

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص٢٥٩، ٢٦٠.

(٢) سورة الأعراف: من الآية ١٢٨.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٢٩.

(٤) ابن أبي شيبه: المصنف، ج٧، ص١٢٠، البيهقي: شعب الإيمان، تحقيق/ محمد السعيد

بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، ج٢، ص٢٤٤.

(٥) ابن القيم: الأمثال في القرآن الكريم، تحقيق/ إبراهيم محمد، مكتبة الصحابة، طنطا، مصر،

الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، ص٥٦.

(٦) سورة التحريم: الآية ١١.

صحَّ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ" (١).

وكانت ماشطة ابنة فرعون وأولادها ممن عذب في ذات الله حتى قذفهم فرعون في النار، ولكنهم لم يتخلوا عن الإيمان، فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: "لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ فِيهَا، أَتَتْ عَلِيَّ رَائِحَةُ طَيِّبَةٍ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا. قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تَمْشُطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ سَقَطَتِ الْمِذْرَى مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللَّهِ. فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكَ اللَّهُ. قَالَتْ: أَخْبِرْهُ بِذَلِكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. فَأَخْبَرَتْهُ. فَدَعَاَهَا، فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ، وَإِنَّ لَكَ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نَحَاسٍ فَأَحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلَادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: وَمَا حَاجَتُكَ؟ قَالَتْ: أَحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَتَدْفِنَنَا. قَالَ: ذَلِكَ لَكَ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ، فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا، فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَى أَنْ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضِعٍ، كَانَتْهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، فَقَالَ: يَا أُمُّهُ، اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ" (٢).

(١) الترمذي: السنن، وقال: "حسن صحيح"، (كتاب المناقب، باب فضل خديجة)، جـ ٥، ص ٧٠٣، ح ٣٨٧٨، أحمد بن حنبل: المسند، جـ ١٩، ص ٣٨٣، ح ١٢٣٩١. وصحح المحققون إسناده على شرط الشيخين.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٥، ص ٣٠، ٣١، ح ٢٨٢١، وحسنه محققو المسند، وصحح الحاكم إسناده، وأقره الذهبي. المستدرک، جـ ٣، ص ٩٩، ح ٣٨٨٥. وعلق عليه ابن كثير فقال: "إسناده لا بأس به، ولم يخرجوه". التفسير، جـ ٣، ص ١٦.

❏ محاولة فرعون قتل موسى عليه السلام:

لم يكتف فرعون بما صبه على أتباع موسى من إيذاء وتعذيب، وإنما عزم على البطش بنبي الله موسى عليه السلام وقتله، زاعماً أنه يضل الناس، ويغير رسومهم وعاداتهم^(١)، فنازعه بعض الملأ في ذلك، وخوفوه من رب موسى، وبما أجراه على يديه من معجزات، فأظهر الفرعون اللعين أنه لا يبالي بدعاء موسى لربه، ولا يخاف من ذلك إن قتله^(٢)، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾^(٣)، ويرى بعض المفسرين^(٤) أن فرعون لم يعزم على قتل موسى، وأنه كان يخاف أن يعاجل بالهلاك إن هم بذلك، فكان قوله هذا تمويهاً على قومه وإيهاماً أنهم هم الكافون له عن قتله؛ ولكن استجارة موسى بربه من فرعون ﴿إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾^(٥)، تبعد هذا الاحتمال.

وكان من بين حاشية فرعون رجل مؤمن يكتنم إيمانه، فلما رأى عزم فرعون على قتل موسى غضب الله ﷻ ووقف يجاهد فرعون، ويتلطف في رده بكلام جمع فيه بين الترغيب والترهيب^(٦)، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ"^(٧).

(١) ابن كثير: التفسير، جـ ٤، ص ٧٧.

(٢) ابن جزي: التسهيل لعلوم التنزيل، جـ ٤، ص ٤.

(٣) سورة غافر: الآية ٢٦.

(٤) أبو السعود: التفسير، جـ ٧، ص ٢٧٣.

(٥) سورة غافر: من الآية ٢٧.

(٦) ابن كثير: التفسير، جـ ٤، ص ٧٨.

(٧) أبو داود: السنن، (كتاب الملاحم: باب الأمر والنهي)، جـ ٤، ص ١٢٤، ح ٤٣٤٤، أحمد بن

حنبل: المسند، جـ ٣٦، ص ٥٤١، ح ٢٢٢٠٧. وحسنه محققو المسند لغيره.

وقد نصح مؤمن آل فرعون قومه، وناقشهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وذكرهم بعاقبة المكذبين من السابقين، ورغبهم في الجنة التي تكون جزاء للإيمان بالله واتباع رسله، ولكنهم بادلوه دعوة بدعوة، دعاهم إلى الله والجنة، فدعوه إلى فرعون والنار، فبئس منهم وفوض أمره إلى الله، فنجاه الله ﷻ وكان من جملة الأسباب التي كف الله بها الأذى عن نبيه موسى ﷺ.

وقد ساق لنا القرآن العظيم موقف ذلك الرجل المؤمن فقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصَرُّنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾^(١).

ومما قاله الرجل المؤمن في دعوة قومه أيضاً: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ

(١) سورة غافر: الآيات ٢٨ - ٣٤.

هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا
مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ
حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ *
تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى
الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا
فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ *
فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ *
فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ^(١).

وهذا الموقف من هذا الرجل المؤمن من أعلى مراتب هذا المقام؛
فإن فرعون لا أشدَّ جوراً منه، وهذا الكلام لا عدل منه؛ لأنَّ فيه عصمة
نبي^(٢)، لكن فرعون لم ينتفع بشيء من تلك النصائح، وتمادى في كفره
وجحوده، وأصرَّ على طغيانه وعناده، وبالغ في إنكار ربِّ العالمين،
وظفق يكرّر ادعاء الإلهية لنفسه^(٣)، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ
مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(٤)، وعاد لترويج الشبه على قومه؛ ليدفعهم عن تصديق
حجج موسى ﷺ وليشغلهم عن التفكير في خالقه وخالقهم^(٥)، فأصدر
أوامره لوزيره ومدبر مملكته: ﴿أَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِّي
صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٦)، ﴿يَا

(١) سورة غافر: الآيات ٣٨ - ٤٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٦٠.

(٣) ابن كثير: التفسير، ج ٣، ص ٣٩١.

(٤) سورة القصص: من الآية ٣٨.

(٥) الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٤، ص ٢١٥.

(٦) سورة القصص: من الآية ٣٨.

هَامَانُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى
إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنْ
السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ^(١)، وكان قوم فرعون عند حسن
ظنه، فأقروا على ادعاء الإلهية؛ لقلّة عقولهم وسخافة أذهانهم^(٢).

❏ ابتلاء الله ﷻ لآل فرعون:

لَمَّا تَمَادَى فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ فِي تَكْذِيبِ مُوسَى وَإِذْءَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ
ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَيْشَهُمْ، فَأَخَذَهُمْ «بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَذَكَّرُونَ»^(٣)، إِلَّا أَنَّ الْقَحْطَ الَّذِي أَصَابَهُمْ، وَالثَّمَارَ الَّتِي تَنَاقَصَ إِنْتاجُهَا مِنْ
زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ لَمْ تَرْقُقْ قُلُوبَهُمْ، بَلْ تَمَرَّدُوا، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ
وَعِنَادِهِمْ^(٤)، «فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ»^(٥)، وَبَلَغَ بِهِمُ الْعِنَادُ غَايَتَهُ، حَتَّى جَزَمُوا بِأَنْ مَا يُصِيبُهُمْ إِنَّمَا هُوَ
مِنْ سِحْرِ مُوسَى ﷺ وَاسْتَوَتْ عِنْدَهُمُ الْحَالَاتُ، سِوَاءِ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ الْآيَاتُ
أَمْ لَمْ تَنْزَلْ^(٦)، «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ»^(٧)، وَسَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ

(١) سورة غافر: الآيتان ٣٦، ٣٧.

(٢) ابن كثير: التفسير، ج ٣، ص ٣٩١.

(٣) سورة الأعراف: من الآية ١٣٠.

(٤) الرازي: التفسير الكبير، ج ١٤، ص ١٧٥، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٦٤.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٣١.

(٦) السعدي: التفسير، ص ٣٠١.

(٧) سورة الأعراف: الآية ١٣٢.

الآليم»^(١)، ولذلك لم تؤثر فيهم الإنذارات، ولا تتابع الآيات^(٢)، «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ»^(٣)، ولم يزددهم ذلك إلا سخرية واستهزاء بنبيهم، «فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ»^(٤).

📖 نجاة بني إسرائيل وهلاك فرعون:

عندما أنكر فرعون وقومه كل الآيات التي جاءهم بها موسى عليه السلام وخافت القلة المؤمنة أن يردّهم فرعون إلى الكفر، لم يكن أمامهم إلا

(١) سورة يونس: الآيتان ٩٦، ٩٧.

(٢) يتفق المفسرون على أن الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم من الآيات التسع التي ذكرت في سورة الإسراء، ويختلفون في الأربع الباقية بين اليد والعصا واللسان الذي انحلت عقده، والبحر، والحجر، والطمس على أموالهم، والسنين، ونقص الثمرات، ونبق الجبل، وآيات الأوامر والنواهي في التوراة. ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج٣، ص٤٨٨. لكن توجيه الآيات التسع إلى فرعون وملئه كما في سورة النمل يحصر هذه الآيات فيما وقع على أرض مصر، لا ما وقع في التيه.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٣٣.

(٤) سورة الزخرف: الآيات ٤٧ - ٥٤.

الاستغاثة بالله تعالى لينجّيهم من العذاب المهين، فتضرّعوا إلى الله ﷻ وقدموا طلب النّجاة لدينهم على طلب النّجاة لأبدانهم^(١).

وقد ذكر القرآن ذلك المشهد في قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُمُ أَنَّ يَفْتَنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٌ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٢)، فأجاب الله -تعالى- دعاءهم، وبين لموسى وهارون كيفية خلاصهم، وأمرهم بالإكثار من الصّلاة، وبشرهم بالنّصر القريب^(٣)، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعُلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤)، فاتّخذ الأخوان النّبيان لقومهما بيوتًا متميّزة فيما بينهم عن بيوت القبط، ليعرف بعضهم بيوت بعض، وليكونوا على أهبة الاستعداد للرحيل إذا أمروا به^(٥).

ولمّا دعا موسى ﷺ ربّه: ﴿أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾^(٦)، جاءه أمر الله على التعقيب، ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ﴾^(٧)، فسار بهم موسى ﷺ في الليل، وتوجّهوا شطر بلاد الشّام، فلمّا علم فرعون

(١) الرازي: التفسير الكبير، جـ ١٧، ص ١١٨.

(٢) سورة يونس: الآيات ٨٣ - ٨٦.

(٣) ابن كثير: التفسير، جـ ٢، ص ٤٣٠.

(٤) سورة يونس: من الآية ٨٧.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ٢٦٩.

(٦) سورة الدخان: من الآية ٢٢.

(٧) سورة الدخان: الآية ٢٣.

بذهابهم، حنق عليهم كلّ الحنق، واشتدّ غضبه عليهم، وأسرع خلفهم بملئه وجنوده؛ ليلحقهم ويمحقهم.

ولمّا وصل بنو إسرائيل إلى ساحل البحر^(١)، أبصروا سواد فرعون وجنوده، فأيقنوا أنهم هالكون، بالغرق أو مقتولون، ولعبت بهم الظنون، وأقبلوا على موسى يلومون، وهم يصرخون ويقولون: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾^(٢)، وكلّما اقترب منهم فرعون وجنوده تفاقم الأمر عليهم، حتّى زاغت أبصارهم، وبلغت الحناجر قلوبهم، ولكنّ الثقة في نصر الله لم تتخلّف عن النّبّي الكريم، فأوحى الله إليه: ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾^(٣).

انحدر بنو إسرائيل في البحر مسرعين مستبشرين، وما كادوا يخرجون منه حتّى قدم أوّل جيش فرعون على الشاطئ الآخر، فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه، فأمره من يقول للشّيء كن فيكون: ﴿وَاتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾^(٤)، وكان الأجل الذي أنظر إليه الظّالم فرعون قد أتى، وحلّت عقوبته بمقولته

(١) المشهور عند جمهرة المؤرخين أن البحر الذي فلقه الله لموسى هو خليج السويس من البحر الأحمر، لكن هناك فريق آخر من الباحثين يرون أن البحر المقصود هو بحيرة المنزلة، أو جزء منها، على اعتبار أن عبارة "يَمّ سوف" الواردة في التوراة ترجمت خطأ بالبحر الأحمر، والصحيح بحيرة البوص أو القصب، وهو نبات يكثر وجوده في بحيرة المنزلة، وأنّ مدينة "بي رمسيس" التي خرج منها بنو إسرائيل هي مدينة "قنتير" القريبة من البحيرة. محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل (الجزء الأول) التاريخ منذ عصر إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام، ص ٢٥٥، ٢٥٦.

(٢) سورة الشعراء: من الآية ٦١.

(٣) سورة الشعراء: من الآية ٦٣.

(٤) سورة الدخان: الآية ٢٤.

الأولى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(١)، ومقولته الآخرة: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(٢)، وذلك قوله: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾^(٣).

وصل فرعون وجنوده إلى الشاطئ المقابل لبني إسرائيل، فهاله ذلك المنظر العظيم، وظنَّ أنَّ الطريق المفلوق سيظلُّ على حاله حتَّى يعبر منه بجنوده، فاقترح فيه ليشفي غيظه من موسى وأصحابه، فلمَّا توسَّط البحر بجموعه، انطبق عليهم كما كان، فلم ينج منهم إنسان^(٤)، وصاح فرعون للعين: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٥)، فجاءه الردُّ من ربِّه الأعلى وربِّ العالمين: ﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَنَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾^(٦).

وكان هلاك فرعون في اليوم العاشر من المحرم، وذلك أنَّ رسول الله ﷺ لما قدم المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء فسألهم، فقالوا: "هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوهُ"^(٧).

(١) سورة القصص: من الآية ٣٨.

(٢) سورة النازعات: من الآية ٢٤.

(٣) سورة النازعات: الآية ٢٥.

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٦١، ص٧٦، ٧٧، ابن كثير: التفسير، ج٣، ص٣٣٦، ابن

كثير: البداية والنهاية، ج١، ص٢٧٠ - ٢٧٢.

(٥) سورة يونس: الآية ٩٠.

(٦) سورة يونس: الآيتان ٩١، ٩٢.

(٧) البخاري: الصحيح، (كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾، ج٤، ص١٧٤، ح٤٤٦٠.

وقد صحت الروايات^(١) عن النبي ﷺ "أَنَّ جبريلَ كَانَ يَدُسُّ فِي فَمِ فرعونَ الطَّيْنِ مَخَافَةً أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فِيرَحِمُهُ رَبُّهُ"^(٢)، ولم يكن جبريل يفعل ذلك كارهاً لإيمان فرعون، بل فعل ما فعل بأمر الله تعالى، وغضباً له^(٣).

والعبرة التي نأخذها مما سبق من هذه القصة، أن نوقن بأن قدرة الله لا حدود لها، وهي تملي للظالم حتى إذا أخذته لم تفلته، ففي اللحظة التي يتصور الشرّ أنّه قد تمكّن من رقبة الخير، وأنّه في الطريق للإجهاد عليه، ليقضي بذلك على دعوة الإسلام، وأنّه قد اتخذ التدابير والحيلة لتنفيذ مخططه، تتدخل يد الله ﷻ لحسم الأمر لصالح جند الحق^(٤)، ولا يمكن لأحد أننذ أن يتوقع شيئاً عن الجند الذي يرسله الله على أعدائه، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٥).

❏ تمكين بني إسرائيل في الأرض:

لا شك أنّ وعد الله لا يخلف، وقد وعد بني إسرائيل بالتمكين في الأرض بقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُكِنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي

(١) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرك، ج١، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج٤، ص ٤٥، ح ٣١٥٤، ابن حبان: الصحيح، ج١٤، ص ٩٨، ح ٦٢١٥. وصحح الأرنؤوط إسناده على شرط الشيخين.

(٣) المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ، ج٤، ص ٤٩٩، المباركفوري: تحفة الأحوذى، تحقيق/ عبد الوهاب عبد اللطيف، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٩٦٣م، ج٨، ص ٥٢٧.

(٤) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم، ص ١١٩.

(٥) سورة المدثر: من الآية ٣١.

فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ»^(١)، كما أن سنة الله في المجرمين والظالمين لا تتبدل، «وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ»^(٢)، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُقْلَتِهِ»^(٣)، ثم قرأ: «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ»^(٤).

وقد جمع الله بين هلاك الكافرين وتمكين المؤمنين في غير ما موضع من القرآن العظيم، فقال تعالى: «كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ»^(٥).

وقال ﷺ: «فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ»^(٦).

وقال أيضاً: «فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ

(١) سورة القصص: الآيتان ٥، ٦.

(٢) سورة محمد: من الآية ٣٨.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب التفسير، باب قوله: (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ))، جـ ٤، ص ١٧٢٦، ح ٤٤٠٩، مسلم: الصحيح: (كتاب البر والصلة والآداب، باب

تحريم الظلم)، جـ ٤، ص ١٩٩٧، ح ٢٥٨٣.

(٤) سورة هود: الآية ١٠٢.

(٥) سورة الدخان: الآيات ٢٥ - ٣٢.

(٦) سورة الشعراء: الآيات ٥٧ - ٥٩.

الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ^(١).

والله درّ الحافظ ابن كثير، وهو المؤرخ الكبير، والناقد البصير، حيث يقول: "ما تعرّضت الدول للدين إلا سلبوا ملكهم، وذّلوا بعد عزّهم، وكذا وقع لآل فرعون؛ ما زالوا في شكّ وريب، ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به، حتّى أخرجهم الله ممّا كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور، والنّعمة والحبور، ثمّ حولوا إلى البحر مهانين، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السّافلين"^(٢)، واستولى بنو إسرائيل على البلاد المصريّة، والحواصل الفرعونيّة، والممالك القبطيّة^(٣).

وأما ما ذكره المؤرخ ابن عبد الحكم المصريّ (ت: ٢٥٧هـ) من تسلّط نساء مصر على رجالها منذ هلاك فرعون ورجاله بسبب أنّ نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهنّ من العامّة فكانت لهنّ السّطوة عليهم، واستمرت هذه سنّة نساء مصر إلى القرن الثالث الهجري^(٤)، فلا يدلّ عليه دليل صحيح، بل هو من الظنّ الذي هو أكذب الحديث، والفقيه المالكي ابن وهب (ت: ١٩٧هـ) الذي نقل عنه ابن عبد الحكم استمرار هذا التّحول الاجتماعيّ إلى أيّامه، إنّ صحّ القول عنه، فهو لم يجب ربوع مصر، ولا يبنى هذا الحكم الخطير على بعض الحالات الفرديّة.

(١) سورة الأعراف: الآيتان ١٣٦، ١٣٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص ٢٦٠، ٢٦١.

(٣) ابن كثير: التفسير، ج٤، ص ١٤٢.

(٤) فتوح مصر وأخبارها، ص ٨٩، ٩٠.

❏ كفران بني إسرائيل بنعمة التمكين لهم:

لقد كان من الواجب على بني إسرائيل أن يشكروا الله تعالى على النعم التي منّ بها عليهم، فهو الذي أهلك عدوهم، وأورثهم أرضهم وديارهم، ومكّن لهم في الأرض، وفضلهم على العالمين، ووعدهم بمزيد النعم على لسان نبيهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(١)، ولكن أكثر الإسرائيليين لم يشكروا ربهم، ولم يقبلوا نصائح نبيهم، بل عمدوا إلى مخالفة أمره، وتناولوا عليه، بل منهم من أشرك بالله عز وجل^(٢).

❏ طلب بني إسرائيل عبادة الأصنام:

لقد كان من العجيب أن ينسى بنو إسرائيل ربهم الذي نجاهم من فرعون وجنوده، في المكان الذي حدثت فيه تلك المعجزة العجيبة، ويطلبون من نبيهم أصناماً يعبدونها من دون الله، ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

(١) سورة إبراهيم: الآيات ٦ - ٨.

(٢) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، ج ١، ص ٤٣٨، جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى، ص ١٥١.

(٣) سورة الأعراف: الآيات ١٣٨ - ١٤٠.

ولا شك أنّ هذا الموقف من بني إسرائيل يدلّ على نهاية جهلهم، وغباء عقولهم، واعوجاج طبيعتهم، وسوء أدبهم مع ربّهم ونبّيهم، غير أنّ هذا القول لم يصدر من كلّ بني إسرائيل، وإنّما قاله بعضهم؛ لأنّه كان مع موسى عليه السلام السّبعون المختارون، وكان فيهم من يرتفع عن مثل هذا السّؤال الباطل^(١)، ولا يخفى أنّ الذّلّ والهوان الذي تعرّض له الإسرائيليّون في مصر قد أفسد أولئك المشتاقين للأصنام، وجعلهم يقلّدون أسيادهم في وتنيّتهم شأن المغلوب في تقليد الغالب.

وكم من مفتون من بين المسلمين بالغرب في هذه العصور التي ضعف فيها المسلمون يقاتل على نقل الانحلال والإلحاد إلى بلاده، ولا يطالب بالاستفادة من صناعاتهم المتقدّمة.

❏ نكول بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة:

لَمَّا تَوَجَّهَ مُوسَى عليه السلام بقومه إلى بيت المقدس وجدوا فيها قوماً جبّارين، فأمرهم موسى عليه السلام بالدّخول عليهم ومقاتلتهم، وإجلّتهم عن بيت المقدس؛ لأنّ الله كتبه لهم، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم، ولكنهم عصوا أمر نبّيهم، وآثروا الذلّة مع الرّاحة على العزّة مع الجهاد، فسلب الله عليهم الخوف، وألقاهم في التّيه أربعين سنة جزاء عصيانهم وجبنهم^(٢)، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا

(١) الرازي: التفسير الكبير، جـ ١٤، ص ١٨٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ٢٧٧.

قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانْكَبْ عَلَيْهِمَا وَغَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ^(١).

وقد نسج جهال بني إسرائيل قصصاً خيالية في صفة الجبارين من طول قاماتهم وضخامة أجسادهم، ليبرروا للناس عذر أسلافهم في نكوصهم على أعقابهم، وتركهم لأمر نبيهم، وعصيانهم لربهم، وقد انتقلت تلك الخرافات والأساطير إلى المصادر الإسلامية^(٢)، وكلها آثار باطلة لا يصحّ منها قليل ولا كثير^(٣).

ويظهر من مساق آية التّيه ومفهومها أنّ حكمة ذلك التّيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذّلّ والقهر والانقياد للفراغة وتخلّقوا بهم، حتّى نشأ في ذلك التّيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يسام بالمذلة^(٤)، ولم يبق من الجيل السّابق إلا يوشع بن نون وكالب بن يوفنا^(٥).

(١) سورة المائدة: الآيات ٢٠ - ٢٦.

(٢) الطبري: التفسير، ج٦، ص١٧٤، ابن الجوزي: زاد المسير، ج٢، ص٣٢٥، المنتظم: ج١، ص٣٥١، السيوطي: الدر المنثور، ج٣، ص٤٨.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص٢٧٨.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق/ علي عبد الواحد وافي، مكتبة الأسرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦م، ج٢، ص٤٩٨.

(٥) ابن كثير: التفسير، ج٢، ص٤١.

﴿ نعم الله على بني إسرائيل في التيه: ﴾

لم يكن الحكم بالتَّيه على بني إسرائيل تعذيباً لهم بالحرِّ والجوع والعطش، وإنما توالَّت نعم الله عليهم بلا تعب منهم ولا مشقة، فلمَّا اشتدَّ عليهم حرُّ الشَّمس، ساق الله لهم الغمام يظللهم به، ولمَّا أجهدهم العطش، استسقى لهم نبيهم، ففجَّر الله لهم من الحجر اثنتي عشرة عينا^(١)، لكلِّ سبط منهم عين يشربون منها، ولمَّا نفد زادهم وجاعوا، أنزل الله عليهم مَنَّا من السَّماء يجدونه خلال بيوتهم كلَّ صباح، فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلى مثله من الغد، فيصنعون منه مثل الخبز في غاية البياض والحلاوة، فإذا كان من آخر النَّهار، غشيهم طير السَّلوى، فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه، حسب كفايتهم لعشائهم^(٢).

وقد أشار القرآن الكريم إلى النِّعم التي ساقها لبني إسرائيل في تيههم بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٣).

ولكنَّ بني إسرائيل لم يراعوا هذه النِّعم حقَّ رعايتها، ولا قاموا بشكرها وحقَّ عبادتها، وسرعان ما ضجر كثير منهم وتبرَّموا منها،

(١) هي العيون المعروفة بعيون موسى عليه السلام والتي تقع في شبه جزيرة سيناء على بعد ٣٠ كم تقريباً على الشاطئ الشرقي لقناة السويس.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٨١، ٢٨٢.

(٣) سورة الأعراف: الآيتان ١٥٩، ١٦٠.

وسألوا نبيّهم أن يستبدلها لهم بما هو دونها ممّا تتبته الأرض ﴿مَنْ بَقَلْهَا
وَقَتَّائِهَا وَفُومَهَا وَعَدْسِهَا وَبَصَلْهَا﴾^(١)، فضرب الله عليهم الذلّة والصغار،
وغضب عليهم^(٢)، مجازاة لهم من جنس عملهم؛ بسبب قلّة صبرهم،
واحتقارهم لأوامر الله ونعمه^(٣).

❏ نزول التوراة:

يرى أكثر المفسرين^(٤) أن الله ﷻ وعد بني إسرائيل أن ينزل على
نبيّهم كتاباً بعد نجاتهم من فرعون - فيه كلّ ما يحتاجون إليه من خيري
الدنيا والآخرة، وهو المشار إليه بقوله تعالى على لسان نبيّه موسى: ﴿يَا
قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾^(٥).

فلما هلك فرعون طالب بنو إسرائيل نبيّهم موسى بالكتاب، فحدّد
الله له ميقاتاً لذلك الأمر العظيم، فاستخلف موسى أخاه هارون على قومه،
وصعد جبل طور سيناء، فأمره الله بصيام ثلاثين يوماً، وهو شهر ذي
القعدة، فلما أتمّ الثلاثين يوماً أمره الله أن يزيد عليها عشرة أيّام من ذي
الحجّة، فأنزل الله عليه التوراة في تلك العشر، وكلمّه فيها^(٦)، وذلك قوله
تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ

(١) سورة البقرة: من الآية ٦١.

(٢) ابن كثير: التفسير، ج١، ص١٠٢.

(٣) السعدي: التفسير، ص٥٣.

(٤) البغوي: التفسير، ج٣، ص٢٢٧، القرطبي: التفسير، ج١١، ص٢٣٤، أبو حيان: البحر

المحيط، ج٦، ص٢٤٩، البيضاوي: التفسير، ج٤، ص٦٥.

(٥) سورة طه: من الآية ٨٦.

(٦) الزمخشري: الكشاف، ج٢، ص١٤٢، الرازي: التفسير الكبير، ج٣، ص٦٩، ٧٠، محمد

سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، ج١، ص٤٩٠.

أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ^(١).

ولمّا تَمَّتْ الأربعون يوماً كَلَّمَ اللهُ موسى ﷺ وخاطبه من غير واسطة، فطمع موسى في النظر إليه، فأخبره ربّه أنّه لا يطيق ذلك، وحدث ما قصّه الله في كتابه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرْنِي أُنظُرُ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ^(٢)﴾.

وقد أعلن موسى توبته عمّا وقع؛ لإقدامه على سؤال ربّه بغير إذن^(٣)، وتيقّنه بأنّه لا يطيق الرؤية^(٤)، وللعلماء كلام طويل في جواز رؤية الله تعالى وامتناعها، لا مكان له في هذا المقام.

ولمّا منع الله نبيّه موسى من رؤيته بعدما كان متشوّقاً إليها، ذكره بالنعم التي أعطاهما له؛ تسليّة له عمّا أصابه، فقال: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ^(٥)﴾، وكان من أعظم النعم التي أوتيها ألواح التّوراة، التي كتب الله فيها لموسى وقومه كلّ شيء يحتاجون إليه، ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

(٣) البيضاوي: التفسير، جـ ٣، ص ٥٨، محمد سيد طنطاوي: القصّة في القرآن الكريم، جـ ١، ص ٤٩٠.

(٤) ابن جزي: التسهيل لعلوم التنزيل، جـ ٢، ص ٤٤.

(٥) سورة الأعراف: من الآية ١٤٤.

من كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعَظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ
بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ^(١).

وقد أنزل الله التّوراة شاملة للعقيدة والشريعة، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ
فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّاتِيُّونَ
وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا
النَّاسَ وَاخْشَوْنَا وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِنَا ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ^(٢).

ولكنّ التّوراة التي أنزلها الله على موسى ﷺ أحرقت كلّها على
يد الملك البابليّ "بُخْتَنَصَّر" عندما غزا أورشليم سنة ٥٨٦ ق.م، وأمّا
التّوراة التي بين أيدي اليهود اليوم فهي من وضع لجنة من كهّان المنفى
برئاسة عزرا بن سرايا بن حلقيا، الذي عاد إلى أورشليم سنة ٤٥٨ ق.م،
وعمل في خدمة حاكمها الفارسي^(٣).

❏ عبادة بني إسرائيل للعجل:

لم تكن أنفس غالبية بني إسرائيل قويّة الإيمان بالله، وإنما كانوا
نوي جهالة لم يحصلوا من التّقافة على ما يحمون به عقيدتهم من
الزيغ^(٤)، وقد ألفوا المصريّين سنين عدداً وهم يعبدون العجول
والأبقار^(٥)، فلمّا ذهب موسى ﷺ لميقات ربّه فوق جبل الطّور صنع لهم

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٥.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٣) حمدي عبده سلامة موسى: رؤية جديدة في تاريخ بني إسرائيل واليهود والعبرانيين ص ٩٦.

(٤) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ص ٢٩٨.

(٥) أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن والسنة، ص ١٦٦، ١٦٧.

موسى السامريّ جسد عجلٍ من الحليّ الذي احتالت نساء بني إسرائيل لأخذه من المصريّات، وطلب السامريّ منهم عبادة العجل فاتّبعه الأكثرون، ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلُمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾^(١)، فأعلم الله نبيّه موسى بافتتان قومه من بعده، ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾^(٢).

ولم يسمع هؤلاء لنداءات نبيّهم هارون عليه السلام ونصحه لهم، بل خالفوه وحاربوه، وكادوا أن يقتلوه، وادّعوا أنّ موسى نسي إلهه عندهم، وراح يطلبه عند الطّور، ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾^(٣). ولما رجع موسى من الميقات غضب على قومه وعلى أخيه هارون ظناً منه أنّه لم يعذر في دعوتهم ونصحهم، فلما تبين له أمره، كفّ عنه ورحمه، ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٤).

(١) سورة المائدة: الآية ١٤٨.

(٢) سورة طه: الآية ٨٥.

(٣) سورة طه: من الآية ٨٨، وقوله "فنسي" يحتمل أن يكون من كلام الله أو من كلام بني إسرائيل، فعلى أنّه من كلام الله فالمراد به أنّ السامري ترك ما كان عليه من الإسلام، وإن كان من كلامهم فهو ما أثبتناه. ابن جزي: التسهيل لعلوم التنزيل، جـ ٣، ص ١٧، ابن كثير: التفسير، جـ ٣، ص ١٦٣.

(٤) سورة الأعراف: الآيتان ١٥٠، ١٥١.

وأما السامري الذي استغوى بني إسرائيل وأضلهم، فلما استجوبه نبي الله موسى ﷺ اعترف بفعلته، ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي^(١)، وقد عجل الله له بعض عقابه في الدنيا بمفارقة قومه طوال حياته^(٢)، ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾^(٣).

وأما بنو إسرائيل فقد أقرّوا بخطئهم، ولجئوا لربهم، وندموا على ما فعلوا، ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٤)، ولكن الله ﷻ لم يقبل توبتهم إلا بقتلهم أنفسهم، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٥)، فقتل الثابتون على الإسلام عبدة العجل الظالمين^(٦).

وتختلف أقوال المفسرين في حقيقة العجل الذي عبده بنو إسرائيل في غياب موسى ﷺ فقيل: كان عجلاً من ذهب صاغه لهم السامري من

(١) سورة طه: الآيتان ٩٥، ٩٦.

(٢) البغوي: التفسير، جـ ٣، ص ٢٣٠، أبو السعود: التفسير، جـ ٦، ص ٣٩.

(٣) سورة طه: الآية ٩٧.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٤٩.

(٥) سورة البقرة: الآية ٥٤.

(٦) البغوي: التفسير، جـ ١، ص ٧٣، المحلي والسيوطي: تفسير الجلالين، ص ١٢، الشنقيطي:

أضواء البيان، جـ ١، ص ٣٩.

حليّ المصريّات. وقيل: إنّ الذهب صار عجلًا جسدًا ذا لحم ودم له خوار. وقال بعضهم: إنّ كان صائغًا وقد برده بطريقة خاصّة تجعل للريح إذا مرّت من دبره وخرجت من فمه صوت البقر^(١).

وقد رجّح الشيخ الشعراويّ الرأْي الثالث؛ لدلالة اللغة والسّياق عليه، لأنّ الجسد هو الجسم الذي لا رُوح فيه، وقوله: **(لَهُ خُوارٌ)** يدلّ على أنّ جسد العجل لم تكن فيه الرُوح التي تعطيه الخوار، أو الصّوت الذي يصدره البقر؛ فكأن السّامريّ حينما صنع العجل صنعه من الذهب ليكون برّاقًا، وأحدث به فتحات يدخل منها الهواء ويخرج، ليحدث صوتًا مثل الخوار^(٢)، وهذا الكلام أقرب للمعقول، ولكنّ بني إسرائيل كانت فيهم أعاجيب! فالله أعلم أيّ ذلك كان، والذي يجب علينا الإيمان به أنّهم اتّخذوا العجل المذكور إلهاً من دون الله على ما ورد في كتاب الله.

وفي هذه القصّة تسلية للنبيّ ﷺ ممّا كان يشاهد من مشركي العرب واليهود والنّصارى بالخلاف عليه، ليصبر عليهم كما صبر موسى عليه السلام في هذه الواقعة، فإنّهم بعد أن خلّصهم الله من فرعون، وأراهم المعجزات العجيبة من أوّل ظهور موسى إلى ذلك الوقت، اغتروا بتلك الشّبهة الركيكة، ثمّ إنّ موسى عليه السلام صبر على ذلك، فلأنّ يصبر محمد ﷺ على أذية قومه كان ذلك أولى^(٣).

ومن العجيب أن التّوراة المحرّفة التي بأيدي أهل الكتاب تفتري على نبيّ الله هارون بأنّه هو الذي صنع العجل، وقدّم له القرابين^(٤)!

(١) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ص ٢٦٢.

(٢) قصص الأنبياء، ج ٤، ص ١٩٦٧، ١٩٦٨.

(٣) الرازي: التفسير الكبير، ج ٣، ص ٧٦.

(٤) سفر الخروج، إصحاح ٣٢، الفقرات ١ - ٦.

📖 طلب بني إسرائيل رؤية الله ﷻ:

لَمَّا فاء بنو إسرائيل إلى رشدهم، وطلبوا إلى موسى أن يتوبوا من عبادة العجل، اختار موسى سبعين رجلاً من خيارهم، وأخذهم إلى جبل الطّور في الميقات الذي وقّته الله له؛ ليعتذروا لقومهم عند ربّهم، فلمّا حضر السّبعون في الموعد المحدّد، تجرّعوا على ربّهم، وسألوا رؤيته عياناً، وأسأوا الأدب مع نبيّهم، فعاقبهم الله بالصّعق والهلاك، لتكذيبهم لنبيّهم، وعدم امتثالهم لطاعته، فحزن موسى عليهم؛ لأنّهم خيار أصحابه، ولا يستطيع الرّجوع إلى قومه دونهم، ولم يزل يتضرّع لربّه ويتنبّل إليه، ويعتذر عن المجترئين على الله تعالى حتّى أجاب الله سؤاله، وأحياهم من بعد موتهم، وغفر لهم جرمهم^(١). ويقول الله تعالى في هذا الموقف: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾^(٢)، ويقول أيضاً: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٣).

📖 رفض بني إسرائيل تنفيذ أوامر التّوراة:

لَمَّا جاء موسى قومه بالألواح فيها التّوراة أمرهم أن يقبلوها ويعملوا بأحكامها بقوة وعزم، فامتنعوا من الالتزام بأحكام التّوراة، وظهر

(١) البغوي: التفسير، ج١، ص٧٤، ج١، ص١٠٦، ابن كثير: التفسير، ج١، ص٩٤، ٩٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٥.

(٣) سورة البقرة: الآيتان ٥٥، ٥٦.

منهم إباء عما جاءهم به موسى ﷺ فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه غمامة، فالتزموا، وأمروا بالسجود فسجدوا خوفاً من سقوط الجبل عليهم^(١)، فلما رفع تولوا على أعقابهم^(٢).

وقد ذكر القرآن صنيعهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣)، وقوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٤)، وقوله أيضاً: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾^(٥).

وفاة هارون عليه السلام:

تُروى في خبر وفاة هارون عليه السلام آثار عن جماعة من أصحاب النبي ﷺ، ومفادها أن موسى وهارون صعدا الجبل وهما في التيه، فمات هارون، فاتهمت بنو إسرائيل موسى عليه السلام بقتله، وآذوا نبيهم في ذلك أشد الأذى زاعمين أنه قتله حسداً؛ لحب بني إسرائيل له، فدعا موسى عليه السلام ربه، فأمر الملائكة فحملوه ومروا به على مجالس بني إسرائيل حتى علموا بموته وصدقوا موسى^(٦)، وإن صحت هذه الآثار عن الصحابة رضي الله عنهم فليس لها مورد إلا عن أهل الكتاب.

(١) البغوي: التفسير، جـ ١، ص ٨٠، ابن كثير: التفسير، جـ ١، ص ٢٩٣، ٥٧٤.

(٢) الرازي: التفسير الكبير، جـ ٣، ص ١٠١.

(٣) سورة البقرة: الآيتان ٦٣، ٦٤.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٧١.

(٥) سورة البقرة: الآية ٩٣.

(٦) رواه المقدسي عن ابن عباس بإسناد حسن. الأحاديث المختارة، تحقيق/ عبد الملك عبد الله دهيش، دار النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، جـ ٢، ص ٢٣٢.

❏ إيذاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام:

أشار القرآن الكريم إلى أن بني إسرائيل قد آذوا نبي الله موسى عليه السلام، إلا أن القرآن الكريم أجمل الإيذاء ولم يفصله كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾^(١).

وقد روى الإمام البخاري^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيًّا سَتِيرًا لَا يَرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءٌ مِنْهُ، فَآذَاهُ مِنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسْتَرُ إِلَّا مِنْ عَيْنِ بَجْلِدِهِ، إِمَّا بَرَصٌ، وَإِمَّا أُدْرَةٌ"^(٣)، وَإِمَّا آفَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرٌ، ثَوْبِي حَجَرٌ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَأَبْرَاهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الْحَجَرُ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبَسَهُ، وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا"، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾^(٤).

ولمّا كان تقييد الحديث بهذه الآية من كلام أبي هريرة رضي الله عنه فقد ذكر المفسرون في إيذاء موسى عليه السلام أقوالاً أخرى، كاتهام بني إسرائيل له بقتل

(١) سورة الأحزاب: الآية ٦٩.

(٢) الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى)، جـ ٣، ص ١٢٤٩، ح ٣٢٢٣.

(٣) أدرة: نفخة في الخصية. ابن منظور: لسان العرب، جـ ٤، ص ١٥.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٦٩.

هارون، ورميهم له بالسحر والجنون والكذب بعدما رأوا الآيات، واستتجار قارون بغياً لتقذفه بنفسها^(١)، والصواب أن لا يحمل الإيذاء على شيء من هذه الأقوال^(٢)؛ لأن القرآن لم يحدد نوع الإيذاء وإنما أراد الله تحذير الذين آمنوا من كل ما يؤذي النبي ﷺ، وقد ضرب بني إسرائيل مثلاً للالتواء والانحراف في مواضع كثيرة من القرآن^(٣).

وكان النبي ﷺ يترحم على موسى عليه السلام عندما يسمع إيذاء من أحد أصحابه، ويقول: "يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبِرْ"^(٤).

❏ حجّ موسى عليه السلام إلى البيت العتيق:

لقد وردت معلومات حجّ موسى عليه السلام في صحيح الإمام مسلم، فعن ابن عباس رضي الله عنه "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِوَادِي الْأَزْرَقِ فَقَالَ: أَيُّ وَادٍ هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا وَادِي الْأَزْرَقِ، قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عليه السلام هَابِطاً مِنَ الثَّنِيَّةِ وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللَّهِ بِالتَّلْبِيَةِ..."^(٥).

❏ وفاة موسى عليه السلام:

توفي نبي الله موسى قبل أن تنتهي سنوات التيه^(٦)، ويؤكد هذا ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: "أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى

(١) الطبري: التفسير، جـ ٢٢، ص ٥١-٥٢.

(٢) المصدر السابق، جـ ٢٢، ص ٥٣.

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ ٥، ص ٢٨٨٥.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة الطائف)، جـ ٤، ص ١٥٧٦، ح ٤٠٨٢،

مسلم: الصحيح، (كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفات لقلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه)، جـ ٢، ص ٧٣٩، ح ١٠٦٢.

(٥) الصحيح، (كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات)، جـ ١، ص ١٥٢، ح ١٦٦.

(٦) ابن كثير: التفسير، جـ ٢، ص ٤٣٢.

عليه السلام فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، فرد الله عليه عينه، وقال: ارجع فقل له: يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطت به يده بكل شعرة سنة، قال أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن، فسأل الله أن يذنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: "قلو كنت ثم لأريكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر" (١).

وقد تعرض هذا الحديث للنقد الشديد قديماً وحديثاً، فأكرته بعض الطوائف الضالة قديماً، كما أنكره في عصرنا كثير من العلمانيين والعقلانيين، بزعم أن في متنه غموضاً، وأنه لا ينسجم مع العقل (٢)، وقد أجاب العلماء على المعترضين بما لا يدع مجالاً للشك في صحة هذا الحديث (٣)، ويكفي أن الحديث مما اتفق عليه البخاري ومسلم، وهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى، ويكفي أن ابن حبان قد ترجم لهذا الحديث بقوله: ذكر خبر شنع به على منتحلي سنن المصطفى ﷺ من حرم التوفيق لإدراك معناه (٤).

ثم إن التوراة تذكر أن موسى وهارون ماتا بسبب خيانتهمما للرب (٥)، وهو ما يجعل الرواية الإسلامية بعيدة عن التأثير بأهل الكتاب.

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب وفاة موسى عليه السلام)، جـ ٣، ص ١٢٥٠، ح ٣٢٢٦،

مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب فضائل موسى عليه السلام)، جـ ٤، ص ١٨٤٢، ح ٢٣٧٢.

(٢) محمد سيد شحاته: موقف الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي من السنة النبوية، عرض ونقد، رسالة دكتوراه، كلية أصول الدين بأسبوط، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، ص ٤٤٩ - ٤٥٠.

(٣) محمد محمود أحمد بكّار: من قضايا السنة، بحث منشور بمجلة كلية أصول الدين بأسبوط، العدد الرابع، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ١٩٤ وما بعدها.

(٤) المرجع السابق، ص ٢١٤.

(٥) سفر التثنية، إصحاح ٣٢، الفقرات ٤٨ - ٥٠، محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل (الجزء

الأول) التاريخ منذ عصر إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام، ص ٣١١.

قصة موسى والخضر عليهما السلام

يرى بعض أهل العلم أنّ موسى صاحب الخضر هو موسى بن ميثا بن يوسف بن يعقوب، الذي نبئ قبل موسى بن عمران^(١)، وهذا قول باطل قد ردّه السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم، والصحيح الذي لا شك فيه أنّ صاحب الخضر هو موسى بن عمران النبي المرسل إلى فرعون^(٢).

ويختلف العلماء في نبوة الخضر، فيرى أكثر أهل العلم أنّه كان نبياً، ويرى آخرون أنّه كان عبداً صالحاً، والصحيح أنّه نبيٌّ؛ لأنّ القرآن يشهد بذلك، وبواطن أفعاله لا تكون إلا بوحي^(٣).

ويروي بعض العلماء أنّ الخضر لا يزال حيّاً، ويروون في ذلك أحاديث مرفوعة وآثاراً عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولم يصح من ذلك شيء كما بيّنه أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه: "عجالة المنتظر" في شرح حالة الخضر^(٤).

ولقد قصّ الله علينا خبر موسى عليه السلام مع الخضر في القرآن الكريم، وفصلته السّنة النبوية؛ فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أنّه سمع أبي بن كعب رضي الله عنه يقول: "قام موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: أنّ عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: أيُّ ربّ كيف لي به؟ ف قيل له: احمل حوتاً في مكنل، فحيث تقفد الحوت فهو

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم فيكل العلم إلى الله)، ج١، ص٥٧، ح١٢١، الحاكم: المستدرک، ج٣، ص١٧٥، ح٤١٤٤.

(٢) الشوكاني: فتح القدير، ج٣، ص٢٩٧.

(٣) القرطبي: التفسير، ج١١، ص١٦.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم، ج١، ص٣٦٣، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص٣٣٤.

ثُمَّ، فَاَنْطَلَقَ وَاَنْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ، وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونَ، فَحَمَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حُوتًا فِي مِكَتَلٍ، وَاَنْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ، فَرَقَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفَتَاهُ، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكَتَلِ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمِكَتَلِ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ جَرِيَةَ الْمَاءِ حَتَّى كَانَ مِثْلَ الطَّاقِ^(١)، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَاَنْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَى أَنْ يُخْبِرَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ لِفَتَاهُ أَتَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾^(٢)، وَلَمْ يَنْصَبْ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ، ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾^(٣)، يَقْصَانِ آثَارَهُمَا حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ، فَرَأَى رَجُلًا مُسَجًى عَلَيْهِ بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَنَّى بَارِضِكَ السَّلَامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكُهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ، ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾^(٤)، قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾^(٥)، قَالَ: نَعَمْ، فَاَنْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَى يَمْشِيَانِ

(١) الطاق: الكوة، أو ما عقد من الأبنية، أو القَبْو الذي يدخل منه. ابن منظور: لسان العرب، جـ ١٠، ص ٢٣٢، ابن حجر: فتح الباري، جـ ١، ص ١٥١.

(٢) سورة الكهف: من الآية ٦٢.

(٣) سورة الكهف: الآيتان ٦٣، ٦٤.

(٤) سورة الكهف: الآيات ٦٦ - ٦٩.

(٥) سورة الكهف: من الآية ٧٠.

عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمَاهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا
 الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَحِ السَّفِينَةِ
 فَنَزَعَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ
 فَخَرَقْتَهَا، ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ
 أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا *
 قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا﴾^(١)، ثُمَّ خَرَجَا
 مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذَا غُلَامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَّامِ،
 فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَأَقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ مُوسَى: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً
 بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ
 صَبْرًا﴾^(٢)، قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى، ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا
 فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ
 اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ
 فَأَقَامَهُ﴾^(٣)، يَقُولُ مَائِلٌ، قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَأَقَامَهُ، قَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ
 أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعِمُونَا، لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا، ﴿قَالَ هَذَا
 فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَابِقُكَ بِتَأْوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(٤)، قَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبْرًا حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا
 مِنْ أَخْبَارِهِمَا، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا، قَالَ:
 وَجَاءَ عُصْفُورٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ ثُمَّ نَقَرَ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ لَهُ
 الْخَضِرُ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا

(١) سورة الكهف: الآيات ٧١-٧٣.

(٢) سورة الكهف: الآيتان ٧٤، ٧٥.

(٣) سورة الكهف: الآيتان ٧٦، ٧٧.

(٤) سورة الكهف: الآية ٧٨.

الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَضَبًا، وَكَانَ يَقْرَأُ: وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا^(١).

﴿عبر وعظات من قصة موسى والخضر﴾

تكثر العبر والعظات والفوائد التي تؤخذ من خبر موسى عليه السلام مع الخضر، ومنها^(٢):

١ - أهميّة الاستزادة من طلب العلم، وتحمل المشقة لأجله، فإنّ موسى عليه السلام إنّما رغب في لقاء الخضر وتحمل المشقة في مسيره إليه؛ ليتعلّم منه ما لا يعرفه، وليتلقّى منه بعض ما عنده، ولم تمنعه من ذلك النبوة والرسالة، ولا صحائف التوراة التي أنزلت عليه.

٢ - أنّ تحصيل العلم يحتاج إلى لقاء العلماء والرحلة إليهم، وقد اقتدى الصحابة والسلف الصالح بنبيّ الله موسى عليه السلام، فكان أحدهم يسافر من المدينة إلى الشام أو إلى مصر لطلب حديث واحد، ولذا عنون الإمام البخاريّ لباب في صحيحه بقوله: "بَابُ الْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ"، وقال في حديث معلق: "وَرَحَلَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَيْسٍ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ"^(٣)، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "وَلَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنِّي أَعْلَمُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّي لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ"^(٤)، وقال التابعي الشهير سعيد بن المسيّب: "إِنْ كُنْتُ لَأَسِيرُ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِي فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ"^(٥).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى)، جـ ٣، ص ١٢٤٦، ح ٣٢٢٠، مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب فضائل الخضر)، جـ ٤، ص ١٨٤٧.
(٢) ينظر د. عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ص ٣٩٤-٤٠٢.
(٣) صحيح البخاري، (كتاب العلم)، جـ ١، ص ٤١، ح ٣٢٢٠.
(٤) مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب فضائل ابن مسعود)، جـ ٤، ص ١٩١٢، ح ٢٤٦٢.
(٥) الخطيب البغدادي: الرحلة في طلب الحديث، تحقيق/ نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ، ص ١٢٧.

٣ - أن التواضع ضروريٌ لتحقيق العلم؛ لأنه يحمل صاحبه على الإقبال على العالم والتلقي منه، والاستماع إليه، وطلب التعلم منه صراحة، وقد رأينا تواضع موسى عليه السلام في طلبه العلم من الخضر، ورغبته في مصاحبته، وإظهار عزمه على عدم عصيانهِ فيما يوجهه إليه ويأمره به، ولذا قال غير واحد من السلف: "لَا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ مُسْتَحْيٍ وَلَا مُسْتَكْبِرٌ"^(١)؛ لأنَّ الكبر يمنع صاحبه من طلب العلم، ويظنُّ المتكبر أنَّ سؤال الناس منقصة في حقِّه فيفوته لذلك الشيء الكثير، كما أنَّ الحياء الذي يمنع صاحبه عن تعلُّم ما ينفعه مذموم، ولذا قالت عائشة رضي الله عنها: "نِعَمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ، لَمْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهُنَّ فِي الدِّينِ"^(٢).

٤ - العمل بالمصلحة الرَّاجحة وارتكاب أخفَّ الضررين عند تعارض مفسدتين، وذلك كما فعل الخضر بالسَّقِينَة، فقد قام بخرقها لتخليصها من استيلاء الملك الظَّالم الذي كان يأخذ السَّقَن السَّليمة.

٥ - أنَّ صلاح الآباء ينفع الأولاد، و "أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْفَظُ الصَّالِحَ فِي نَفْسِهِ وَفِي وَلَدِهِ وَإِنْ بَعَدُوا عَنْهُ"^(٣)، وقد قام الخضر ببناء الجدار للغلامين اليتيمين ببركة أبيهما الصَّالح.

(١) نقله البخاري عن مجاهد. الصحيح، (كتاب العلم، باب الحياء في العلم)، ج١، ص٦٠، وعزاه الباجي للحسن البصري. التعديل والتجريح، مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٣٢هـ، ج٧، ص٢١٣.

(٢) مسلم: الصحيح، (كتاب الحيض)، ج١، ص٢٦١، ح٣٣٢.

(٣) القرطبي: التفسير، ج١١، ص٣٨، ٣٩.

يوشع بن نون عليه السلام

ذكر يوشع بن نون عليه السلام في القرآن غير مصرّح باسمه في قصّة موسى والخضر، فهو الفتى المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾^(١)، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾^(٢)، كما ثبت ذكره في الصحيحين^(٣)، وهو متّفق على نبوّته عند أهل الكتاب^(٤).

وأما ما روي من أنّ النبوة حولت من موسى إلى يوشع بن نون في آخر عمر موسى، فكان موسى يلقي يوشع فيسأله عما أحدث الله من الأوامر والنّواهي، حتّى قال له: يا كليم الله إنّني كنت لا أسألك عما يوحى الله إليك حتّى تخبرني أنت ابتداء من تلقاء نفسك، فكره موسى الحياة وأحبّ الموت^(٥)، فهو غير صحيح؛ لأنّ موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحي والتّشريع والكلام من الله، وإليه في جميع أحواله، حتّى توفاه الله ﷻ، ولم يزل معزّراً مكرّماً مدلّلاً وجيهاً عند الله، كما مرّ في الحديث الصّحيح من قصّة فتنه عين ملك الموت، كما أنّ التّوراة التي بين يدي أهل الكتاب تنصّ على أنّ الوحي لم يزل ينزل على موسى في كلّ حين يحتاجون إليه إلى آخر مدّة موسى^(٦).

(١) سورة الكهف: الآية ٦٠.

(٢) سورة الكهف: الآية ٦٢.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام)، ج٣، ص١٢٤٦، ح٣٢٢٠، مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام)، ج٤، ص١٨٤٧، ١٨٤٨، ح٢٣٨٠.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص٣١٩.

(٥) الحاكم: المستدرک، ج٣، ص١٨٣.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص٣١٩، ٣٢٠.

❏ دخول بني إسرائيل الأرض المقدسة:

لقد سبق أن الله حرّم الأرض المقدّسة على بني إسرائيل، وشرّدهم في التّيه أربعين سنة؛ لنكولهم عن قتال الجّبارين، وعصيانهم لأمر نبيّهم، وسوء أدبهم مع ربّهم، ومات هارون، ثمّ موسى عليه السلام وبنو إسرائيل يتيهون في الأرض.

وكان دخول بني إسرائيل الأرض المقدّسة مع نبيّهم يوشع بن نون في آخر ساعة من يوم الجمعة؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: "غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتَّبِعْنِي رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِي بِهَا وَلَمَّا بَيْنَ، وَلَا آخِرُ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا وَلَمَّا يَرْفَعُ سَقْفَهَا، وَلَا آخِرُ قَدْ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خِلْفَاتٍ^(١) وَهُوَ مُنْتَظِرٌ وَلِادَهَا، قَالَ: فَغَزَا فَأَدْنَى لِلْقَرْيَةِ حِينَ صَلَاةِ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: أَنْتِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ شَيْئًا، فَحَبَسَتْ عَلَيْهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ"^(٢).

وهذا النّبيّ المذكور في قصّة الشّمس هو يوشع بن نون عليه السلام بدليل ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قال: "إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لِيَالِي سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ"^(٣).

(١) الخلفات: الحوامل من النوق. ابن منظور: لسان العرب، ج٩، ص٩٥.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ أحلت لكم الغنائم)، ج٣، ص١١٣٦، ح٢٩٥٦، مسلم: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة)، ج٣، ص١٣٦٦، ح١٧٤٧. واللفظ لمسلم.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج١٤، ص٦٥، ح٨٣١٥، وقد صحح ابن كثير إسناده هذا الحديث على شرط البخاري. البداية والنهاية، ج٦، ص٢٨٢، كما صححه ابن حجر. فتح الباري، ج٦، ص٢٢١. ووافقهما محققو المسند.

وقد اختلف العلماء في حبس الشمس المذكور في الحديث، فقيل: ردت على أدرجها، وقيل: وقفت ولم ترد، وقيل أبطى بحركتها، وكل ذلك من معجزات النبوة^(١).

❏ تبديل بني إسرائيل لكلام ربهم وعصيانهم أوامره:

لم تكن طبيعة الدّاخلين للأرض المقدّسة مغايرة تماماً لطبيعة أصحاب موسى ﷺ في العناد وترك الانقياد، فعندما أمرهم الله أن يتواضعوا شكراً له على الفتح الذي منحهم في تلك البلاد المقدّسة، وأن يدخلوا باب المدينة سجّداً، بدّلوا كلام الله، ولم يمتثلوا الصّفة التي أرادها الله منهم^(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(٣).

ولقد ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا الْبَابَ يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِمِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ»^(٤).

(١) النووي: شرح صحيح مسلم، ج٦، ص٢٩٦.

(٢) ابن كثير: التفسير، ج١، ص٩٩، ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج٢، ١٣٢.

(٣) سورة البقرة: الآيتان ٥٨، ٥٩.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب التفسير، باب وقولوا حطة)، ج٤، ص١٦٩٦، ح٤٣٦٥، مسلم: الصحيح، (كتاب التفسير)، ج٤، ص٢٣١٢، ح٣٠١٥.

وهذا الكلام الذي قالوه مهمل لا معنى له، وغرضهم فيه مخالفة ما أمروا به من الكلام المستلزم للاستغفار وطلب حطة العقوبة عنهم^(١)، كما أنّهم خالفوا الفعل الذي أمروا به، فإنّهم أمروا بالسجود عند انتهائهم شكراً لله تعالى، فبطلوا السجود بالزّحف^(٢)، وهذا غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وخروجهم عن طاعته^(٣).

(١) البدر العيني: عمدة القارئ، ج ١٥، ص ٣٠١.

(٢) ابن حجر: فتح الباري، ج ٨، ص ٣٠٤.

(٣) ابن كثير: التفسير، ج ١، ص ٨٦.

داود عليه السلام

هو نبيّ كريم وملك عظيم جمع الله له بين الملك والنّبوة^(١)، وينتهي نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل^(٢).

أحوال بني إسرائيل عند مولد داود:

لم يكد يوشع بن نون يفارق الحياة حتّى تفرقت وحدة بني إسرائيل ودخلوا في عصر من الفوضى استمرّ قرابة قرن ونصف فيما يعرف بعصر القضاة، وينتهي هذا العصر بقيام الملكية الإسرائيليّة على يد "شاؤول بن قيس"، المعروف في القرآن الكريم باسم طالوت^(٣).

ولمّا كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلّما هلك نبيّ خلفه نبيّ^(٤)، فإنّ بني إسرائيل لما أصابهم الضّعف والوهن عهدئذ، وقهرهم ملك كافر يقال له جالوت، وأخرجهم من ديارهم، وسبى أبناءهم، فلمّا أنهكتهم الحروب، وساء حالهم، طلب الوجهاء والأشراف من نبيّهم أن ينصبّ لهم ملكاً يقاتلون عدوّهم تحت طاعته، فبصرّهم نبيّهم بعاقبة أمرهم إن خالفوا قولهم وجبنوا عن قتال أعدائهم عند فرض القتال عليهم، فأكدوا له عزمهم، وإصرارهم، لكنّ نبيّهم كان أخبر بهم، فلمّا كتب القتال عليهم، زال عزم أكثرهم، وبرز جبنهم وخورهم، فتولّوا على أدبارهم،

(١) محمد سيد طنطاوي: القصّة في القرآن الكريم، جـ ٢، ص ٢٩.

(٢) الحاكم: المستدرک، جـ ١، ص ١٨٨، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٢، ص ٩.

(٣) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل منذ دخولهم فلسطين وحتى الشتات الروماني، دار المعرفة الجامعية، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، جـ ٢، ص ١١٧.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل)، جـ ٣، ص ١٢٧٣،

ح ٣٢٦٨، مسلم: الصحيح، (كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء بببيعة الخلفاء الأول فالأول)،

جـ ٣، ص ١٤٧١، ح ١٨٤٢.

فظلموا أنفسهم، ولم يف لنبيهم إلا قليل منهم، التزموا أمر ربهم، ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائهم، فعصمهم الله وثبتهم، وقوى قلوبهم^(١)، وقال تعالى في شأنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٢).

ولم تكن القوة التي استجابت لنداء الجهاد خالية من رواسب الجاهلية ومقاييسها؛ فعندما بعث الله لهم طالوت ملكاً عليهم، اعترضوا على إمارته عليهم، فبين لهم نبيهم المقاييس الصحيحة لاختيار القادة والملوك، وذكر لهم أن أسباب الملك متوفرة فيه، وأن فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، فزال ما في قلوبهم من ريب وشبهة، ثم ذكر لهم نبيهم آية حسية يشاهدونها، وهي إتيان التابوت الذي فقده زماناً طويلاً، ليسكنوا إليه، وتطمئن به قلوبهم^(٣).

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ

(١) البغوي: التفسير، جـ ١، ص ٢٢٦، ٢٢٧، ابن كثير: التفسير، جـ ١، ص ٣٠١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٦.

(٣) ابن كثير: التفسير، جـ ١، ص ٣٠٢، السعدي: التفسير، ص ١٠٨، سيد أحمد الكيلاني: في

موكب النبيين، جـ ٢، ص ٥٦٦، ٥٦٧.

أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ^(١).

وبالرغم من كل الآيات الحسية والمعنوية فلم يفلح في التدريب على الجندية والإذعان للأوامر العسكرية إلا قليل من الفئة القليلة التي خرجت مع طالوت، وكان عددهم كعدة أصحاب محمد ﷺ يوم بدر، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: "كنا نتحدث أن أصحاب بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، بعدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه إلا مؤمن"^(٢).

وكان جالوت الذي ذكر في القرآن ملكاً على الفلسطينيين، وكان قومه قد انتصروا على الإسرائيليين في معركة "أفيق" منذ نصف قرن وجرّدوهم من السلاح، وفرضوا عليهم الضرائب، وضيّقوا عليهم الخناق، فلما أصبح طالوت ملكاً على الإسرائيليين قادهم لحرب جالوت وجنوده، فلما اصطف الفريقان نادى جالوت هل من مبارز فأحجم الإسرائيليون عن الخروج لمبارزته طويلاً، حتى خرج إليه "داود" وهو غلام فضربه حتى قتله، فانهزم الفلسطينيون، وهربوا من المعركة، فلحق بهم الإسرائيليون وفتكوا بهم^(٣).

وكان داود يتمتع بقوة بدنية عظيمة بالرغم من حداثة سنّه، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾^(٤)، والأيد القوة.

(١) سورة البقرة: الآيتان ٢٤٧، ٢٤٨.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب عدة أصحاب بدر)، ج٤، ص١٤٥٧، ح٣٧٤٢.

(٣) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل منذ دخولهم فلسطين وحتى الشتات الروماني، ج٢، ص١٦٥.

(٤) سورة ص: من الآية ١٧.

وقد قصّ علينا القرآن الكريم بعض أحداث تلك المعركة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامنا وَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١).

وقد نسج الرواة حول كيفية تعرّف طالوت على داوود وقتل داوود لجالوت بعض الروايات الموضوعية^(٢)، والخرافات المكذوبة التي ليس لها سند من نصّ قرآني، ولا حديث نبويّ صحيح^(٣).

وفي قتل داوود للطاغية جالوت عبرة يجب أن يستحضرها المؤمنون ويذكروا الناس بها، وهي أنّ الطّاعة الذين يرهبون الناس هم في الحقيقة ضعاف يغلبهم الفتية الصّغار حيث يشاء الله أن يغلبهم^(٤).

📖 النعم التي أعطاها الله لداوود:

لقد اختار الله داوود لنبوته وانتخبه لرسالته بعد قتله لجالوت كما قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا

(١) سورة البقرة: الآيات ٢٤٩ - ٢٥١.

(٢) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرك، ج ١، ص ٢٣٤.

(٣) آمال ربيع: الإسرائيليات في تفسير الطبري، ص ١٢٦.

(٤) عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن، ج ١، ص ٤٠٤.

يَشَاءُ»، وفي هذا تنبيهٌ على أَنَّ العبدَ قَطُّ لا ينتهي إلى حالةٍ يستغني عن التَّعَلُّمِ، سواءً كان نبيًّا أو لم يكن، ولهذا السَّبَبِ قال لَنبيِّه مُحَمَّدٌ ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(١).

وقد أنزل الله الزُّبُورَ على نبيِّه داوود كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زُبُورًا﴾^(٢)، وجعله خليفةً في الأرض ليحكم بين النَّاسِ بِالْحَقِّ، ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(٣)، فأَنصف داوود النَّاسَ بعضهم من بعض، وقضى بينهم بِالْفَضْلِ الذي علَّمه الله له^(٤).

وقد نصَّ القرآن الكريم على ما أَنعم الله به على عبده ورسوله داوود ممَّا آتاه من الفضل المبين، وما جمع له من النُّبُوَّةِ وَالْمَلِكِ الْمُتَمَكِّنِ، والجنود ذوي العَدَدِ والعُدَدِ، وما أعطاه ومنحه من الصَّوْتِ الْعَظِيمِ، الذي كان إذا سَبَّحَ به تَسَبَّحَ معه الجبال الرَّاسِيَاتِ، الصَّمَمُ الشَّامَخَاتِ، وتقف له الطَّيُورُ السَّارِحَاتِ، والغاياتِ، والرَّائِحَاتِ، وتجاوبه بأنواع اللغات^(٥)، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ

(١) الرازي: التفسير الكبير، ج٦، ص٥١٧.

(٢) سورة النساء: من الآية ١٦٣.

(٣) سورة ص: الآية ٢٦.

(٤) الحاكم: المستدرک، ج٣، ص١٩٠.

(٥) ابن كثير: التفسير، ج٣، ص٥٢٧.

(٦) سورة سبأ: الآيتان ١٠، ١١.

وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لْتَحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ»^(١)، وقال أيضاً: «وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابِ»^(٢).

وقد أعطي داوود من حسن الصوت بقراءة الزبور ما لم يعطه أحد من العالمين، ولما استمع النبي ﷺ لقراءة أبي موسى الأشعري ليلة قال له: "لو رأيته رأيتي وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داوود"^(٣).

وقد كان نبينا ﷺ أحسن الناس صوتاً بقراءة القرآن، وفي هذا يقول البراء ابن عازب رضي الله عنه: "سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ وَالتِّينَ وَالزَّيْتُونَ فِي الْعِشَاءِ، وَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْهُ أَوْ قِرَاءَةً"^(٤).

عمل نبي الله داوود عليه السلام:

لقد كان نبي الله داوود يتكسب لنفسه وعياله، ولا يأكل إلا من عمل يده، يدل على ذلك ما رواه المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ"^(٥).

(١) سورة الأنبياء: الآيتان ٧٩، ٨٠.

(٢) سورة ص: الآيات ١٧ - ٢٠.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن)، ج ٤، ص ١٩٢٥، ح ٤٧٦١، مسلم: الصحيح، (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن)، ج ١، ص ٥٤٦، ح ٧٩٣.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب صفة الصلاة، باب القراءة في العشاء)، ج ١، ص ٢٦٦.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب البيوع، باب كسب الرجل بيده)، ج ٢، ص ٧٣٠، ح ١٩٦٦.

ولا نرجم بالغيب لو قلنا بأن نبي الله داوود عليه السلام قد اشتغل في صباه برعي الغنم، لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرعاهما على قراريط لأهل مكة"^(١)، كما يتبين من السنة النبوية أن داوود كان صاحب دواب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "خفف على داوود عليه السلام القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يده"^(٢).

وكان من فضل الله تعالى على داوود أن ألان له الحديد، فكان يشكله كيف يشاء، ويصنع منه دروعاً يتقي بها لباسها من ضربات الأعداء، وغير ذلك من الأسلحة المعروفة على عهده؛ لأن اللبس عند العرب يراد به السلاح كله، درعاً كان، أو جوشناً، أو سيفاً، أو رمحاً^(٣).

❏ تعرض تاريخ داوود عليه السلام للتشويه:

لقد تعرض تاريخ النبي الكريم والملك العظيم للتشويه على يد بعض المؤرخين^(٤)، والمفسرين^(٥)، والمحدثين^(٦)، فذكروا أنه كان له تسع تسع وتسعون امرأة، فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها وهو قائم

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الإجارة، باب رعي الغنم)، جـ ٢، ص ٧٨٩، ح ٢١٤٣.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾)، جـ ٣، ص ١٢٥٦، ح ٣٢٣٥.

(٣) الشوكاني: فتح القدير، جـ ٣، ص ٤١٩.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ١، ص ٢٨٣، ٢٨٤.

(٥) البغوي: التفسير، جـ ٤، ص ٥٢، الثعلبي: التفسير، جـ ٨، ص ١٨٥، ١٨٦، السيوطي: الدر المنثور، جـ ٩، ص ١٥٩، ١٦٠.

(٦) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٦، ص ٣٤٢، ٣٤٣، الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ١٨٩.

يصلّي، فإذا هي من أجمل الناس خلقاً، فحانت منها التفاتة فأبصرته، فألقت شعرها فاستترت به، فزاده ذلك فيها رغبة، فسأل عنها، فوجدها متزوجة من أحد جنوده أو قواده الذي يدعى "أوريا"، وأنه غائب في الغزو والجهاد، فلم يزل يبعثه للغزو بغرض الخلاص منه! حتى قتل في المرة الثالثة، فتزوج امرأته، فلما دخل عليها لم يلبث إلا يسيراً حتى بعث الله عليه ملكين في صورة إنسيين يعلمانه بالذنب العظيم الذي وقع فيه.

ويربط رواية الأخبار هذه القصة العجيبة بقول الله ﷻ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَاهُ فَاستَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾^(١)، ويتبعون ذلك بأنه سجد أربعين يوماً ندماً على خطيئته، حتى يبست جبهته، ويزعمون أن المرأة هي أم سليمان عليه السلام.

ولا شك أن هذه المرويّات هزء وافتراء^(٢)، لا أصل له عند المحقّقين^(٣)، تنتزّه ساحة الأنبياء عنه، فإذا سمعه الجاهل هانت عنده

(١) سورة ص: الآيات ٢١-٢٥.

(٢) الببضاوي: التفسير، ج-٥، ص٤٣.

(٣) أبو حيان: البحر المحيط، ج-٧، ص٣٧٨، ابن العربي: أحكام القرآن، ج-٤، ص١٦٣-١٦٤.

١٦٣٥، الألوسي: روح المعاني، ج-٢٢، ص٢٧.

المعاصي^(١)، ولم ينصّ القرآن العظيم على شيء من ذلك، ولا ورد به حديث صحيح^(٢).

وقد نبّه الحافظ ابن كثير على أنّ أكثر ما يذكره المفسّرون من السلف والخلف في نبأ الخصم الذين تسوّروا على داود مأخوذ من الإسرائيليات المكنوبة، وقد ترك إيراده في تاريخه قصداً، اكتفاءً واقتصاراً على مجرد تلاوة القصّة من القرآن العظيم^(٣).

والم تأمل في القصّة التي وردت في القرآن الكريم يجد أنّ الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصّة بالصفات العشرة المذكورة^(٤)، ووصفه أيضاً بصفات كثيرة بعد هذه القصّة^(٥)، وكلّ هذه الصفات التي وردت في مدحه تتنافى مع ارتكابه عليه السلام للمنكر والعمل القبيح، فنبت أنّ القصّة التي ذكروها فاسدة باطلة^(٦).

والعجب من الإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري الذي انطلت عليه تلك الخرافة، فاستدركها على الصّحّاحين؛ وإنّ العجب ليزداد من الإمام الحافظ النّاقد البصير الذّهبيّ، وهو من هو خبرةً وعلماً بالروايات

(١) ابن الجوزي: القصاص والمذكرين، تحقيق/ محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، الطبعة

الثانية، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ص ١٦١

(٢) القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم تحقيق/ طه عبد الرعوف سعد، مكتبة

الصفاء، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ج ٢، ص ١٢٨، ١٢٩.

(٣) البداية والنهاية ج ٢، ص ١٣.

(٤) يشير إلى قوله تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَصَلَ الْخَطَابُ﴾، سورة ص:

الآيات ١٧-٢٠

(٥) يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ الْحِسَابِ﴾، سورة ص: الآيات ٢٥،

٢٦.

(٦) الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٦، ص ١٨٩.

الصَّحِيحة والضعيفة، كيف يسكت على مثل هذه الروايات، بل كيف يوافق الحاكم في بعضها^(١)!!

وهذه الآثار التي نقلتها المصادر الإسلامية مع بعض الاختلافات اليسيرة وردت في سفر صموئيل الثاني^(٢)، لكنّ كتاب السّفر يتّهمون داود عليه السلام بالزّنا صراحة، ويجعلونه يتخلّص من زوجها بعد حملها^(٣).

والذي يدلّ عليه القرآن أنّ الله ﷻ عاتب داود عليه السلام؛ لأنّه سمع قول المتظلم من الخصمين، ورأى فيه مخائل الضّعف والهزيمة، فحمل أمره على أنّه مظلومٌ، واستعجل إصدار الحكم له قبل يسأل خصمه، ولكنه أدرك تقصيره في الحكم، وعلم أنّ الله ﷻ قد امتحنه بذلك، وأنّه خلاه ونفسه آنئذ، فاستغفر ربّه وخرّ راکعاً؛ شكراً لله على أن عصمه بأن اقتصر على تظليم المشكوك، ولم يزدّه على ذلك شيئاً من انتهار أو ضرب أو غيرهما، فغفر الله له، ثمّ عاتبه على صنيعه، وأمره أن يحكم بالحقّ، ولا يتّبّع الهوى^(٤)، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(٥)، فبان بما قصّه الله -تعالى- من هذه الموعظة التي

(١) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرک، ج١، ص ٢٤٠.

(٢) آمال ربيع: الإسرائيليات في تفسير الطبري، ص ١٢٧.

(٣) الإمام القرطبي: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام،

تحقيق/ أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة، ١٣٩٨هـ، ص ١٩٩.

(٤) القرطبي: التفسير، ج ١٥، ص ١٧٨.

(٥) سورة ص: الآية ٢٦.

توخّاه بها بعد المغفرة، أنّ خطيئته إنّما كانت التقصير في الحكم، والمبادرة إلى تظليم من لم يثبت عنده ظلمه^(١).

▣ عبادة داوود عليه السلام:

لقد وردت في السنّة النبويّة روايات عن عبادة داوود عليه السلام إجمالاً وتفصيلاً، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ كان إذا ذكر داوود وحدث عنه قال: "كَانَ أَعْبَدَ الْبَشَرِ"^(٢)، أي في زمانه، وعلى تقدير الإطلاق لا محذور فيه؛ إذ لا يلزم من الأعبديّة الأعلميّة، فضلاً عن الأفضليّة، وقيل: هو أكثرهم شكراً، لقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾^(٣).

وقد نصح النبيّ ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه بأن ينتهج منهج نبيّ الله داوود عليه السلام في العبادة، وفي ذلك يقول: "كنت أصوم الدهر وأقرأ القرآن كلّ ليلة، قال: فإمّا ذكرتُ للنبيّ ﷺ وإمّا أرسلَ إليّ، فأتيتُهُ، فقال لي: ألم أخبر أنّك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كلّ ليلة؟ فقلت: بلى يا نبيّ الله ولم أريد بذلك إلا الخير، قال: فإنّ بحسبك أن تصوم من كلّ شهر ثلاثة أيّام، قلت: يا نبيّ الله إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فإنّ لزوّجك عليك حقاً، ولزوّرك^(٤) عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً، قال: فصم صوم داوود نبيّ الله ﷺ فإنّه كان أعبد الناس، قلت يا نبيّ الله، وما صوم داوود؟ قال: كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، قال: وأقرأ القرآن في كلّ

(١) القرطبي: التفسير، جـ ١٥، ص ١٧٨.

(٢) الترمذي: السنن، وقال: "حسن صحيح"، (كتاب الدعوات، باب ذكر نبي الله داوود عليه السلام)، جـ ٥، ص ٥٢٢، ح ٣٤٩٠.

(٣) ملا علي القاري: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، جـ ٥، ص ٤٠٨.

(٤) الزّور: الزّائر والضيّف. ابن منظور: لسان العرب، جـ ٤، ص ٣٣٦.

شهر، قلت يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فأقرأه في كل عشرين، قلت: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فأقرأه في كل عشر، قلت يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فأقرأه في كل سبع، ولا تزد على ذلك، فإن لزوجك عليك حقًا، ولزورك عليك حقًا، ولجسدك عليك حقًا، قال: فشددت فشدد عليّ، قال: وقال لي النبي ﷺ إنك لا تدري لعلك يطول بك عمر، قال: فصيرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ^(١).

وقد حدث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: "أحب الصيام إلى الله صيام داوود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داوود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه"^(٢)، وفي ذلك دلالة على قوته في العبادة، لما في كل من الصيام والقيام المذكورين من ترك راحة^(٣).

مقدار عمر داود عليه السلام ووفاته:

اتفق العلماء على أن داود عليه السلام عاش مائة سنة، وعمدتهم في ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أن آدم سأل ربه عن عمر داود، قال: ستين سنة، قال: أي رب زدّه من عمري أربعين سنة، فلما قضي عمر آدم جاءه ملك الموت فقال: أو لم يبق من عمري أربعون

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن)، ج٤، ص١٩٢٦، ح٤٧٦٥، مسلم: الصحيح، (كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر)، ج٢، ص٨١٣.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود)، ج٣، ص١٢٥٧، ح٣٢٣٨، مسلم: الصحيح، (كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر)، ج٢، ص٨١٦، ح١١٥٩.

(٣) الألوسي: روح المعاني، ج٢٣، ص١٧٤.

سَنَةً؟ قَالَ: أَوْ لَمْ تُعْطِهَا ابْنُكَ دَاوُودُ؟ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنُسِيَ آدَمُ فَنُسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِيءُ آدَمَ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ^(١).

وأما خبر وفاته فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "كَانَ دَاوُودُ النَّبِيُّ فِيهِ غَيْرَةٌ شَدِيدَةٌ، وَكَانَ إِذَا خَرَجَ أَغْلَقَتِ الْأَبْوَابُ، فَلَمْ يَدْخُلْ عَلَى أَهْلِهِ أَحَدٌ حَتَّى يَرْجِعَ، فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ وَغَلَقَتِ الدَّارُ، فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ تَطْلُعُ إِلَى الدَّارِ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ، فَقَالَتْ لِمَنْ فِي الْبَيْتِ: مَنْ أَيْنَ دَخَلَ هَذَا الرَّجُلُ الدَّارَ وَالدَّارُ مُغْلَقَةٌ؟ وَاللَّهِ لَتَفْضَحُنَّ بِدَاوُودَ، فَجَاءَ دَاوُودُ فَإِذَا الرَّجُلُ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ، فَقَالَ لَهُ دَاوُودُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا الَّذِي لَا أَهَابُ الْمُلُوكَ، وَلَا يَمْتَنِعُ مِنِّي شَيْءٌ، فَقَالَ دَاوُودُ: أَنْتَ وَاللَّهِ مَلِكُ الْمَوْتِ، فَمَرَحَبًا بِأَمْرِ اللَّهِ، فَرَمَلَ دَاوُودُ مَكَانَهُ، حَيْثُ قُبِضَتْ رُوحُهُ حَتَّى فَرَغَ مِنْ شَأْنِهِ، وَطَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ لِلطَّيْرِ: أَظِلِّي عَلَى دَاوُودَ، فَأَظَلَّتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ حَتَّى أَظْلَمَتْ عَلَيْهِمَا الْأَرْضُ، فَقَالَ لَهَا سُلَيْمَانُ: اقْبِضِي جَنَاحًا جَنَاحًا، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يُرِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَيْفَ فَعَلَتْ الطَّيْرُ، وَقَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ الْمَضْرَحِيَّةُ^(٢).

ولا يزال لداوود عليه السلام ذكر مع ولده النبي الملك سليمان عليه السلام.

(١) الترمذي: السنن، وقال: "حديث حسن صحيح"، (كتاب التفسير، باب ومن سورة الأعراف)،

ج ٥ ص ٢٦٧، ح ٣٠٧٦.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج ٢، ص ٤١٩، وقال الهيثمي: "رواه أحمد، وفيه المطلب بن

عبدالله بن حنطب، وتقه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح". مجمع الزوائد،

ج ٨، ص ٢٠٧، وقال ابن كثير: "انفرد بإخراجه الإمام أحمد، وإسناده جيد قوي رجاله

ثقات". البداية والنهاية، ج ٢، ص ١٧. والمضرحية: جمع مضرحي، وهو الصقر الطويل

الجناح. الخليل: العين، ج ٣، ص ١٠٤.

سليمان عليه السلام

هو نبيّ بني إسرائيل وملكهم العظيم الذي ورث أباه داوود في نبوته وملكه، كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾^(١)، وليس المراد بذلك وراثة المال؛ لأنّ الأنبياء لا يورثون درهماً ولا ديناراً؛ لقول النبيّ ﷺ: "نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ"^(٢)، وقوله: "لَا نُورَثُ مَا تَرَكَنَا صَدَقَةً"^(٣).

علم سليمان عليه السلام وفطنته:

لقد أعطى الله سليمان الحكمة والعلم الغزير منذ حداثة سنّه، فكان يحسن القضاء بين الناس منذ صغره، ويتبين ذلك النبوغ والذكاء في أقضيته التي ذكر لنا طرف منها في القرآن الكريم والسنة النبوية. يقول الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَمٌّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾^(٤).

تذكر المصادر أنّ حرثاً دخلت فيه غم قوم ليلاً، فأكلت منه، وأفسدته، فلما عرضت القضية على داوود، قضى بالغنم لصاحب الحرث، فقال سليمان عليه السلام: غير هذا أرفق بالفريقين، تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى أرباب

(١) سورة النمل: من الآية ١٦.

(٢) الربيع بن حبيب: الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع، تحقيق/ محمد إدريس، وعاشور يوسف حبيب، دار الحكمة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ص ٢٦١.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الخمس، باب فرض الخمس)، ج ٣، ص ١١٢٦، ح ٢٩٢٦، مسلم: الصحيح، (كتاب الجهاد، باب حكم الفيء)، ج ٣، ص ١٣٧٨، ح ١٧٥٧.

(٤) سورة الأنبياء: الآيتان ٧٨، ٧٩.

الغنم يقومون بإصلاحه حتى يعود كهيئته يوم أفسد، ثم يترادّان، فأمضى داوود حكم سليمان^(١).

وهذا لا يدلّ على خطأ داوود عليه السلام في الحكم؛ بل إنّ قضاءه عليه السلام كان صواباً لأمرين، أحدهما: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾^(٢)، إذ هو يفيد أنّ قضاء داوود كان عن حكم وعن علم، وأنّ قضاء يتّصف صاحبه بهاتين الصّفتين يكون صواباً، والآخر: ذكر ما سخر له من المخلوقات في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لَتَحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾^(٣)، فهو يشعر بأنّ الله تعالى قد سخر له هذه الأشياء، لأنّه جدير بذلك، حيث يحكم بالحقّ ويقضي بالعدل ما وسعه ذلك، وأنّ قضاء سليمان عليه السلام هو الأصوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾^(٤).

وأما حكم هذه المسألة في الشريعة المحمّدية والملة الإسلامية فقد ثبت في السنّة النبويّة "أنّ ناقةً للبراء بن عازب عليه السلام دخلت حائط رجل فأفسدت عليه، فقصي رسول الله ﷺ على أهل الأموال حفظها بالنهار، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل"^(٥)، وقد ذهب جمهور العلماء إلى العمل بما تضمّنه هذا الحديث^(٦).

(١) الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ١٩١، ح ٤١٩٠، البيهقي: السنن الكبرى، (كتاب آداب القاضي)، جـ ١٠، ص ١١٨، الزمخشري: الكشاف، جـ ٣، ص ١٢٩.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٧٩.

(٣) سورة الأنبياء: الآيتان ٧٩، ٨٠.

(٤) محمد أبو النور الحديدي: عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، مطبعة الأمانة، مصر، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ٣٧٣.

(٥) أبو داوود: السنن، (كتاب الإجارة، باب المواشي تفسد زرع قوم)، جـ ٣، ص ٢٩٨، أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٣٩، ص ١٠٢، ح ٢٣٦٩٧. وقال المحققون: "مرسل صحيح".

(٦) الشوكاني: فتح القدير، جـ ٣، ص ٤١٨.

ومما يدلّ على حكمة سليمان وحسن قضائه وتدبيره ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: "بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا جَاءَ الذَّنْبُ فَذَهَبَ بِابْنٍ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ هَذِهِ لَصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكَ أَنْتِ، وَقَالَتْ الأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكَ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: أَتُنُونِي بِالسَّكِينِ أَشُقُّهُ بَيْنَكُمَا، فَقَالَتِ الصَّغْرَى: لَا، يَرْحَمَكَ اللهُ، هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَى بِهِ لِلصَّغْرَى" (١).

وهذه الحادثة تدلّ على أسلوب بارع في معرفة الحق، واستخراجه بطريق الحيلة، لأنّ الكبرى لما كانت أقوى حجة من الصغرى قضى لها داود ﷺ بالولد، ولكنّ سليمان ﷺ سلك في الحكم مسلكاً بديعاً يبيّن الحجة الصادقة من غيرها، وذلك باختبار عاطفة الأمّ وحنانها (٢).

ولا شكّ أنّ قضاء داود كان صواباً؛ لما روته أمّ سلمة عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ" (٣).

❏ ملك سليمان العظيم:

كان مقرّ حكم سليمان ﷺ في الأرض التي بارك الله فيها للعالمين (٤)، وقد سأل ربّه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الفرائض، باب إذا ادّعت المرأة ابناً)، جـ ٦، ص ٢٤٨٥، ح ٦٣٨٧، مسلم: الصحيح، (كتاب الأفضية، باب بيان اختلاف المجتهدين)، جـ ٣، ص ١٣٤٤، ح ١٧٢٠.

(٢) محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء، ص ٢٨٤.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم)، جـ ٦، ص ٢٦٢٢، ح ٦٧٤٨، مسلم: الصحيح، (كتاب الأفضية، باب الحكم بالظاهر واللعن بالحجة)، جـ ٣، ص ١٣٣٧، ح ١٧١٣.

(٤) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم، ص ١٩٥.

لِي وَهَبَ لِي مَلَكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ»^(١)، فأجاب الله دعوته، ومكّن له في الأرض، وسخر له الجن والإنس والطير والريّح^(٢)، قال تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾^(٤)، وقال ﷻ: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوًّا شَهْرًا وَرَوَاحًا شَهْرًا وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ﴾^(٥).

كما علّم الله نبيّه سليمان منطق الطير، وسائر لغات الحيوانات، فكان يحادثها وتحادثه، ويفهم عنها ما لا يفهمه سائر الناس، كما حكى لنا القرآن الكريم محاورته للهدد، وفهمه للغة النمل.

(١) سورة ص: الآية ٣٥.

(٢) الحاكم: المستدرک، ج٣، ص١٩١، ح٤١٩٢.

(٣) سورة ص: الآيات ٣٦-٣٨.

(٤) سورة الأنبياء: الآيتان ٨١، ٨٢.

(٥) سورة سبأ: الآيتان ١٢، ١٣، والقطر: هو النحاس، والمحاريب: هي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في البيت وصدرة، وقيل هي المساجد، أو بناء دون القصور، والجواب: جمع جابية، وهي الحوض الذي يجبي فيه الماء. ابن كثير: التفسير، ج٣، ص٥٢٩.

وقد حمد سليمان ربّه على النعم التي خولّه إياها، كما فعل أبوه داوود، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنَطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾^(١)، فأدام الله عليه ملكه في الدنيا، وبشره بجنة عالية في الآخرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾^(٢).

وقد ظنّ بعض رواة الأخبار أنّ الملك العظيم الذي أعطاه الله تعالى لسليمان يتمثّل في اتّساع الرقعة التي حكمها ووصل إليها نفوذه؛ ولذلك حشروه في الرواية الأسطورية التي تقول: "لَمْ يَمْلِكِ الْأَرْضَ كُلَّهَا إِلَّا أَرْبَعَةٌ: مُسْلِمَانٍ وَكَافِرَانِ، فَأَمَّا الْمُسْلِمَانِ: فَسُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُودَ، وَدَاوُ الْقُرْنَيْنِ، وَأَمَّا الْكَافِرَانِ: فَبَخْتَنْصَرٌ، وَالَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ"^(٣).

ولا يعرف منبع هذه الرواية العربية، خاصة وأنّ التّوراة لا تتجاوز بحدود مملكة سليمان دولة فلسطين، بل تحصرها في أقصى اتّساع لها وفي أزهى عهودها بين "دان وبئر سبع"، وهي حدود لا تشمل فلسطين كلّها^(٤)، ويفهم من قصّة ملكة سبأ أنّ نفوذ سليمان امتدّ من بلاد الشام حتّى جنوب شبه الجزيرة العربية.

(١) سورة النمل: الآيتان ١٥، ١٦.

(٢) سورة ص: الآيتان ٣٩، ٤٠.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٣٤٦، ابن قتيبة: المعارف، ص٣٢، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص١٤٣، والتفسير، ج٣، ص٢٥، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج١٧، ص٣٣٦، ابن الجوزي: المنتظم، ج١، ص١٧١، السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج٢، ص٢٥.

(٤) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم، (٢) في بلاد العرب، ص١٨.

وقد نبهنا نبينا ﷺ بأن ملك سليمان العظيم لم يكن باتساع الرقعة وامتداد النفوذ، وإنما كان بما سخره الله له من الريح والطير والجن والإنس، وذلك عندما قال لأصحابه: "إِنَّ عَفْرِيَّتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ، فَأُمَكِّنِي اللهُ مِنْهُ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْتَظِرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾^(١)، فَردَدْتُهُ خَاسِرًا"^(٢).

وقد فقه الإمام البخاري في التَّبْوِيب لهذا الحديث في كتاب التفسير فقال: "باب قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٣)، وهذا يتفق مع إجماع المؤرخين على أَنَّ المملكة التي ورثها سليمان عن أبيه داود كانت أكبر بكثير من تلك التي ورثها سليمان لمن جاءوا بعده من ملوك بيت يهوذا وإسرائيل^(٤).

ولا يصحّ ما رُوِيَ عن طول حكم سليمان، وأنه استمرّ سبعمئة سنة وستّة أشهر، لأنّه ما جاوز هو ولا أبوه المائة سنة^(٥).

(١) سورة ص: من الآية ٣٥.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الصلاة، باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد)، ج١، ص ١٧٦، ح ٤٤٩، مسلم: الصحيح، (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه وجواز العمل القليل في الصلاة)، ج١، ص ٣٨٤، ح ٥٤١.

(٣) الصحيح، ج٤، ص ١٨٠٩.

(٤) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل منذ دخولهم فلسطين وحتى الشتات الروماني، ج٢، ص ١١٧.

(٥) الذهبي: تلخيص المستدرک، ج٣، ص ١٩١.

وأما ما رُوي من تفصيلات حول البساط الذي كان يركبه سليمان عليه السلام وتحمله الريح بما فيه من الدور المبنية والأمتعة والخيول والجمال والرجال، وغير ذلك من الحيوانات والطيور، وما ذكر عن إتيان الريح بأخبار الخلائق، وكلامهم^(١)، فلا يصحّ منه شيء^(٢)، ويؤيد ذلك الشوكاني حيث يقول: "قد أطال المفسّرون في ذكر مقدار جند سليمان، وبالعكس كثير منهم مبالغة تستبعد العقول ولا تصحّ من جهة النقل، ولو صحّت لكان في القدرة الربّانية ما هو أعظم من ذلك وأكثر"^(٣)، غير أننا لا نجزم بالظنّ الذي هو أكذب الحديث.

والذي يجب أن نؤمن به هو ما تفيد الآيات الكريمة من أنّ سليمان عليه السلام كانت تسخر له الرياح تجري بأمره كلّما شاء الله وتحمله، غدوها مسيرة شهر، ورواحها مسيرة شهر، وما عدا ذلك من تفصيلات حول البساط الذي كان يركبه سليمان وتحمله الجنّ، إلى غيره من الروايات، فلا يعنينا الخوض فيه^(٤).

❏ خبر الصافنات الجياد:

يقول الله تعالى في قصّة سليمان: (إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّافَّاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوْهَا عَلَيَّ فُطْفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ)^(٥).

(١) ابن أبي شيبة: المصنف، ج٦، ص٣٣٦، ح٣١٨٥٣، الحاكم: المستدرک، ج٣، ص١٥، ١٦، ح٣٥٧٧، ص١٩٢، ح٤١٩٣.

(٢) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرک، ج١، ص٢٤٧، ٢٤٨.

(٣) فتح القدير، ج٤، ص١٣٠.

(٤) محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء، ص٢٥٤.

(٥) سورة ص: الآيات ٣١-٣٣.

يذكر بعض المفسرين^(١) أن حبّ سليمان للخيل ألهاه عن الصلّاة حتّى توارت الشّمس بالحجاب، فلمّا تنبّه لذلك اغتاض من الخيل، وأمر بردها عليه، وأخذ يعقرها بسيفه.

وقد ضعّف الإمام الطّبريّ هذا القول، ومال لقول ابن عبّاس الذي حمل الآية على المسح الحقيقيّ لأعراف الخيل وعراقبيها حبّاً لها، لا أنّه قتلها، ودلّل الطّبريّ على هذا القول بأنّ سليمان لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة، ويهلك مالا من ماله بغير سبب، سوى أنّه اشتغل عن صلّاته بالنّظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنّظر إليها^(٢)، لكنّ ابن كثير تعبّه، ورجّح الرّأي الأوّل فقال: "وهذا الذي رجّحه ابن جرير فيه نظر؛ لأنّه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيّما إذا كان غضباً لله تعالى بسبب أنّه اشتغل بها حتّى خرج وقت صلاة العصر، ولهذا لمّا خرج عنها الله تعالى عوضه الله ﷻ ما هو خير منها وهو الرّيح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب"^(٣).

وكلام ابن كثير من قبيل الظّنّ والتّخمين؛ لأنّه لم يصلنا في الآية تفسير عن رسول الله ﷺ، وليس لنا أن نترك ظاهر القرآن من غير دليل، وعلى أيّ من القولين فإنّ سليمان ﷺ لم يأت بأفعال تخلّ بمقام النّبوة، أو تخالف عصمة الأنبياء.

(١) البغوي: التفسير، جـ٤، ص ٦١، السيوطي: الدر المنثور، جـ٧، ص ١٧٨، أبو السعود:

التفسير، جـ٧، ص ٢٢٦.

(٢) الطبري: التفسير، جـ٢٣، ص ١٥٦.

(٣) ابن كثير: التفسير، جـ٤، ص ٣٥.

❏ فتنة سليمان عليه السلام:

لقد نصّ القرآن العظيم على فتنة سليمان عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾^(١)، ولكنه أجمل ذكرها، كما أنّ السّنة النبويّة لم تنصّ على ذكرها صراحة، ولذلك أطلق الرّواة لخيالهم العنان، فذكروا قصصاً غريبة لا يؤيّدنها نقل، ولا يقبلها عقل، من أشنعها قول ابن عبّاس رضي الله عنه: "كَانَ لِسُلَيْمَانَ جَارِيَةٌ يُقَالُ لَهَا: جَرَادَةُ، وَكَانَ بَيْنَ بَعْضِ أَهْلِهَا وَبَيْنَ قَوْمِهِ خُصُومَةٌ، فَقَضَى بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ إِلَّا أَنَّهُ وَدَّ أَنْ الْحَقَّ لِأَهْلِهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّهُ سَيُصِيبُكَ بَلَاءٌ، وَكَانَ لَا يَدْرِي يَأْتِيهِ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ مِنَ الْأَرْضِ"^(٢)، فعاقبه الله بزوال ملكه، إذ احتال الشّيطان فأخذ خاتمه الذي كان به ملكه، فجلس على كرسيّه يأمر وينهى في الجنّ والإنس والطّير والريّح، ويأتي حريم سليمان، في الوقت الذي كان سليمان يدور فيه على البيوت يتكفّف النّاس، وأخيراً طار الشّيطان، وقذف الخاتم في البحر، فابتلّعه سمكة، فوقع في يد سليمان، وأخرج منها الخاتم، فعاد إليه ملكه، ووقع ساجداً لله عز وجل^(٣).

ولا ريب أنّ مثل هذه الخرافات التي سطرّها الإخباريون من تشبه الشّيطان بسليمان، وتسلّطه على ملكه، وتصرفه في أمّته بالجور في

(١) سورة ص: الآية ٣٤.

(٢) الحاكم: المستدرک علی الصحیحین، ج ٣، ص ٤١، ح ٣٦٧٤، وصحح الحاكم هذا الأثر لابن عبّاس، وقال: "على شرط الشيخين"، وأقره الذهبي.

(٣) النسائي: الكبرى، (كتاب التفسير، باب سورة البقرة، قوله تعالى: (وما كفر سليمان))، ج ٦، ص ٢٨٧، ح ١٠٩٩٣، الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٦، ص ١٨١، ابن كثير: التفسير، ج ٤، ص ٤٤، ٤٥.

حكمه لا يصح منها شيء^(١)، بل نقطع بكذبها؛ لأنّ الله ﷻ لا يهتك ستر رسوله ﷺ هذا الهتك^(٢)، وهذه الأخبار لا يحلّ نقلها (بالتسليم والتصديق)، وإنّما هي من وضع اليهود والزنادقة، ولم يبين الله الفتنة ما هي، ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان^(٣).

ولئن صحّ إسناد الأثر إلى ابن عباس رضي الله عنهما؛ فإنّه إنّما تلقّاه من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه السلام، فالظاهر أنّهم يكذبون عليه، وقد رويت هذه القصة مطوّلة عن جماعة من السلف، وكلّها متلقاة من قصص أهل الكتاب^(٤).

وقد صرح ابن عباس رضي الله عنهما بأنّه تلقّى تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾^(٥)، من كعب الأخبار^(٦)، ومعلوم أنّ كعباً يرويه عن كتب اليهود، وهي لا يوثق بها، ثمّ إنّ أمر خاتم سليمان عليه السلام في غاية الشهرة بين الخواص والعوام، ويستبعد جداً أن يكون الله تعالى قد ربط ما أعطى نبيّه من الملك بذلك الخاتم! وعندي أنّه لو كان في ذلك الخاتم السرّ الذي يقولون؛ لذكره الله تعالى في كتابه^(٧).

ومن أحسن ما قيل في تفسير فتنة سليمان ما حكاه النّبّي ﷺ عن سليمان أنّه قال: "لَأُطَوِّفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ

(١) القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، ج٢، ص١٣٢.

(٢) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٤، ص٤١، ٤٢.

(٣) أبو حيان: البحر المحيط، ج٧، ص٣٩٧.

(٤) ابن كثير: التفسير، ج٤، ص٤٦.

(٥) سورة ص: الآية ٣٤.

(٦) السيوطي: الدر المنثور، ج٧، ص١٨٠.

(٧) الألوسي: روح المعاني، ج١٢، ص١٩١.

يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَأَيُّمَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ^(١).

والشقّ هو الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان حين عرض عليه، وهو عقوبته ومحنّته^(٢).

❏ بناء سليمان لبيت المقدس:

لقد ثبت بناء سليمان لبيت المقدس بصحيح السنّة النبويّة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "لَمَّا فَرَّغَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُودَ مِنْ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سَأَلَ اللَّهَ ثَلَاثًا، حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ، وَمُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَلَّا يَأْتِيَ هَذَا الْمَسْجِدَ أَحَدٌ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِيهِ إِلَّا خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "أَمَّا اثْنَتَانِ فَقَدْ أُعْطِيَهُمَا، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ أُعْطِيَ الثَّلَاثَةَ"^(٣).

ولم يكن بناء سليمان هذا بداية وضع للمسجد الأقصى، ولكنه كان تجديدًا له^(٤)، وذلك لأنّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ "أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد)، جـ ٣، ص ١٠٣٨،

ح ٢٦٦٤، مسلم: الصحيح، (كتاب الأيمان، باب الاستثناء)، جـ ٣، ص ١٢٧٦، ح ١٦٥٤.

(٢) القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، جـ ٢، ص ١٣٢.

(٣) النسائي: السنن الصغرى، (كتاب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة في بيت المقدس)، تحقيق/

تحقيق/ عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية،

١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، جـ ١، ص ٢٥٦، أحمد بن حنبل: المسند، جـ ١١، ص ٢١٩، ٢٢٠،

ح ٦٦٤٤. وقال محققو المسند: "إسناده صحيح، رجاله ثقات".

(٤) القرطبي: التفسير، جـ ٤، ص ١٣٨، ابن حجر: فتح الباري، جـ ٦، ص ٤٠٩.

في الأرض أول؟ قال: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قال: قلت ثم أي؟ قال: الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى، قلت: كم كان بينهما؟ قال: أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ بَعْدَ صَلَاتِهِ، فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ" (١).

ويقرر ابن تيمية أن "المسجد الأقصى كان من عهد إبراهيم عليه السلام لكن سليمان عليه السلام بناه بناء عظيمًا" (٢)، فلما فرغ سليمان من بناء المسجد الأقصى في بيت المقدس بنى قصره الملكي الكبير في الهضبة الغربية على المنطقة الصخرية التي تدعى "جبل الموريا" (٣).

سليمان عليه السلام ومملكة سبأ:

لقد تحدّث القرآن الكريم عن تلك العلاقة التي قامت بين مملكة سليمان عليه السلام في بلاد الشام، ومملكة سبأ التي تحكمها "بليقيس" ببلاد اليمن، وكيف نقل الهدهد إلى سليمان خبر تلك الملكة وقومها الصابئين، الذين يسجدون للشمس من دون الله، فأرسل سليمان كتاباً مع الهدهد إلى الملكة يدعوها إلى الإسلام والاستسلام، فجمعت قومها وقرأت عليهم الكتاب، ثم أرسلت إلى سليمان بهدية عظيمة تسبر بها غوره، ففوجئ أعوانها ورسلها بما أذهلهم من ملك سليمان العظيم، وتضاءلت هداياهم العجيبة أمام ما رأوه عنده من الجاه والسلطان والمدنية والحضارة وعظم الشأن، ولما حضرت الملكة ورأت أن سليمان قد نقل عرشها بالعلم الذي وصلت إليه مملكته عجبت عجباً شديداً، وعرفت قدرها الحقيقي، وأدركت جلال الحق وروعته، فأسلمت لله رب العالمين (٤).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب "يزفون" النسلان في المشي)، جـ ٣، ص ١٢٣١، ح ٣١٨٦، مسلم: الصحيح، (كتاب المساجد ومواضع الصلاة)، جـ ١، ص ٣٧٠، ح ٥٢٠.

(٢) مجموع الفتاوى، جـ ٢٧، ص ٣٥١.

(٣) أخبار الأيام الثاني، إصحاح ٣، الفقرة ١.

(٤) محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء، ص ٢٥٧.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ
أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ
سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ
لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا
لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ
أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ
مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ
سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ
* قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ
* قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسَ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا
تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا
أَذَلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ
الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ
مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بَجُنُودٍ لَا قِبَلَ
لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ * قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ
يَأْتِيَنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجَنِّ أَنَا آتِيكَ
بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ
مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ
قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ

لنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(١).

❏ وفاة سليمان عليه السلام:

لقد أخبرنا الله ﷻ عن كيفية موت سليمان في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانَُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾^(٢).
وتروي المصادر^(٣) حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس بأن سليمان عليه السلام لما أحسَّ بالموت سأل الله تعالى أن يعمي على الجنَّ موته حتى يعلم الإنس أن الجنَّ لا تعلم الغيب، فمكث سنة متكئاً على عصاه لم يعلم أحد بموته حتى أكلت الأرضة^(٤) عصاه فخرَّ على الأرض. ولكن ابن كثير استنكر رفعه إلى النبي ﷺ ورجَّح كونه موقوفاً على ابن عباس^(٥).

(١) سورة النمل، الآيات ٢٠ - ٤٤.

(٢) سورة سبأ: الآية ١٤.

(٣) الطبري: التفسير، جـ ٢٢، ص ٧٤، تاريخ الأمم والملوك، جـ ١، ص ٢٩٥، الطبراني: المعجم الكبير، جـ ١١، ص ٤٥١، المقدسي: الأحاديث المختارة، جـ ١٠، ص ٢٩١، الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ٣١، ابن عساکر: تاريخ دمشق، جـ ٢٢، ص ٢٩٥، السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جـ ٦، ص ٦٨٣.

(٤) الأرضة: دودة شبه النملة تأكل الخشب والنبات. ابن منظور: لسان العرب، جـ ٧، ص ١١٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم، جـ ٣، ص ٤٩٣.

وقد انتقد الشيخ عبد الوهاب النجار^(١) الروايات الواردة في موت سليمان عليه السلام، وحكم عليها بالغرابة والنكارة، مستبعداً أن يُهمل سليمان من خدمه وحشمه وعبيده، وهو نبي كريم وملك عظيم، ويترك بلا أكل ولا شرب ولا تغيير ملابس ولا نظر في شيء من مصالحه ومصالح ملكه طوال عام بأكمله^(٢).

وإن صحَّ أنه أمر أهله ألا يخبروا الجن بموته^(٣)، فلا غرابة في بقائه مدة طويلة متكئاً على عصاه لما يريده الله من الخير للناس.

❏ كذب الشياطين على سليمان وعلى الناس:

يتصل هذا الموضوع بقصة سليمان عليه السلام لأن الشياطين نسبوا السحر إلى عهده، وهم يعلمون أنه بريء منه، وأن الله تعالى سخرهم له^(٤)، ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٥).

وكانت الشياطين في ذلك الزمن السحيق يسترقون السمع من السماء، ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها إلى كهنة اليهود وأخبارهم، وقد حدث ابن عباس عليه السلام عن ذلك فقال: "بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(١) قصص الأنبياء، ص ٣٩٩، ٤٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٠٤ - ٤٠٧.

(٣) القرطبي: التفسير، ج ١٤، ص ٢٧٨.

(٤) سيد أحمد الكيلاني: في موكب النبيين، ج ٢، ص ٦٢٩، ٦٣٠.

(٥) سورة سبأ: الآيتان ١٢، ١٣.

"مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ لِمِثْلِ هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رَأَيْتُمُوهُ؟" قَالُوا: كُنَّا نَقُولُ: يَمُوتُ عَظِيمٌ، أَوْ يُولَدُ عَظِيمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "فَإِنَّهُ لَا يَرُمِي بِهِ لَمَوْتٍ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ رَبَّنَا ﷻ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ لَهُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ، ثُمَّ سَأَلَ أَهْلُ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ أَهْلَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالَ: فَيُخْبِرُونَهُمْ، ثُمَّ يَسْتَخْبِرُ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبْرُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَتَخْتَطِفُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَيُرْمُونَ، فَيَقْذِفُونَهُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يُحَرِّفُونَهُ وَيَزِيدُونَ" (١).

وفي رواية لأبي هريرة ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "قَرَبَمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرَبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدِّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ" (٢).

وقد دونَ أحرار اليهود وكهانهم كلام الشياطين في كتب يقرؤونها ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام، حتى قالوا هذا علم سليمان، وما تمَّ لسليمان ملكه إلا بهذا العلم، وبه يسخر الإنس والجن والريح التي تجري بأمره، وهذا من افتراءات اليهود على الأنبياء، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ (٣).

(١) مسلم: الصحيح، (كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان)، جـ ٤، ص ١٧٥٠، ح ٢٢٢٩، الترمذي: السنن، وقال: "حسن صحيح"، واللفظ للترمذي، (كتاب التفسير، باب سورة سبأ)، جـ ٥، ص ٣٦٢، ح ٣٢٢٤.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (حتى إذا فرَّع عن قلوبهم))، جـ ٤، ص ١٨٠٤، ح ٤٥٢٢، ابن حبان الصحيح، جـ ١، ص ٢٢٢، ٢٢٣، ح ٣٦.

(٣) محمد محمد أبو شهبة: الإسرائيليات والموضوعات، ص ١٦٥.

وثبت موقوفا عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «كَانَ آصِفُ كَاتِبِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عليه السلام، وَكَانَ يَعْلَمُ الْأَسْمَ الْأَعْظَمَ، وَكَانَ يَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ يَأْمُرُهُ بِهِ سُلَيْمَانُ عليه السلام وَيَدْفِنُهُ تَحْتَ كُرْسِيِّهِ، فَلَمَّا مَاتَ سُلَيْمَانُ أَخْرَجَتْهُ الشَّيَاطِينُ، فَكَتَبُوا بَيْنَ كُلِّ سَطْرٍ مِنْ سِحْرِ وَكَذِبٍ وَكُفْرٍ، فَقَالُوا: هَذَا الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ سُلَيْمَانُ بِهَا، فَأَكْفَرَهُ جُهَالُ النَّاسِ وَسَفَهَاؤُهُمْ وَسَبُّوهُ، وَوَقَفَ عُلَمَاؤُهُمْ، فَلَمْ يَزَلْ جُهَالُهُمْ يَسُبُّونَهُ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا﴾^(١).

عبر وعظات:

الناظر في قصة سليمان عليه السلام يجد فيها كثيرا من العبر والعظات التي تفيد العامة والخاصة، ومنها^(٢):

١- أن العلم من أجل النعم التي ينعم الله بها على عباده، ومن يؤتاه فقد أوتي خيرا كثيرا، وينبغي لصاحب العلم أن يحمد الله على ذلك، وأن يطلب منه المزيد، وأن يتواضع لله تعالى، كما فعل سليمان عليه السلام عند إحضار عرش ملكة سبأ بالعلم في طرفة عين.

٢- ينبغي على الدعاة إلى الله أن يهتموا بالعلم أكثر من غيرهم؛ لأنه ينبغي أن تكون دعوتهم للناس إلى دين الله على بصيرة بمعاني الإسلام والتفقه فيها، وألا يقصروا في طلب العلم النافع شرعيا كان أم دنيويا.

٣- ضرورة اهتمام حكام المسلمين بالنظام والتنظيم وتقوية الجيوش واستعراضهم لها حتى يهابهم العدو، وذلك كما كان يحشر سليمان جنوده.

(١) سورة البقرة: من الآية ١٠٢. والأثر رواه النسائي في السنن الكبرى، ج ١٠، ص ١٣.

ح ١٠٩٩٤. والأثر صحيح موقوف على ابن عباس. ابن حجر: فتح الباري، ج ١٠، ص ٢٢٣.

(٢) عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ص ٤١٩ - ٤٤٨.

٤- نتعلّم من صنيع النملة تقديم المصلحة العامّة على المصلحة الخاصّة، وأن يحبّ المرء لأخيه ما يحبّه لنفسه؛ وذلك لأنّه كان بإمكان النملة أن تنجو بنفسها، وتختفي في مكان أمين، ولكنها لم تفعل ذلك، بل حرصت على نجاتهم ودفع الشرّ عنهم، ويتّضح هذا الأمر أكثر من مطالعة سيرة النبي ﷺ مع أصحابه، وخاصّة في غزوتي أحد وحنين.

٥- ينبغي على الحاكم -أو من يقوم مقامه- أن يتفقّد أحوال رعيّته؛ حتّى يقف على أمورهم، ويعالج المشاكل التي تنتابهم، وذلك كما كان يتفقّد سليمان عليه السلام رعيّته، وعليه أن يأخذ الأمور بالحزم مع العدل، كما هو ظاهر في موقف سليمان من الهدهد الذي غاب عن مكانه زمنا يسيرا.

٦- أنّ الدّعوة إلى الله تكون بكل وسيلة مشروعة: بالمشافهة، وبالكتابة، وإرسال الرّسل إلى من يراد تبليغهم، وعلى المسلمين أن يستفيدوا من وسائل الاتصال الحديثة، وبكلّ الوسائل الممكنة لهم في تعريف النّاس بالإسلام.

إلياس عليه السلام

يتفق أكثر العلماء على أن إلياس من أنبياء بني إسرائيل، ومن ولد هارون أخي موسى عليه السلام^(١)، ويعرف في كتب الإسرائيليين باسم "إيليا"^(٢)، والعرب تلحق به النون فنقول إلياس وإلياسين، كما تقول إسماعيل وإسماعين^(٣).

كان قوم إلياس يعبدون صنماً يقال له "بعل" سميت به مدينة بعلبك الشامية، فبعث الله إلياس إلى قومه ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فدعاهم إلى أفراد الله وحده بالعبادة، وأنكر عليهم عبادة الأصنام، ولكنهم كذبوه وخالفوا أمره، فلم يعجل الله لهم العذاب في الدنيا، وإنما أخر حسابهم إلى يوم القيامة^(٤).

والمقطوع بصحته في قصة إلياس عليه السلام هو ما ذكره القرآن الكريم عنه في سورة الصافات في قوله تعالى: (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِيْلَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)^(٥).

(١) الرازي: التفسير الكبير، جـ ٢٦، ص ١٤٠.

(٢) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، جـ ٢، ص ١١٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ٣٣٩.

(٤) ابن كثير: التفسير، جـ ٤، ص ٢١، محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، جـ ٢، ص ١١٥.

(٥) الصافات: الآيات ١٢٣ - ١٣٢.

وأما ما يُروى من اجتماع إلياس والخضر في كلّ عام في شهر رمضان ببيت المقدس وأنهما يحجان كلّ سنة، ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل، فلا يصحّ منه شيء^(١).
وقد انتقد الحافظ الذهبيّ صحيح الحاكم لخبر لقاء إلياس بالنبيّ ﷺ وقال: "بل موضوع قبح الله من وضعه، وما كنت أحسبُ ولا أجوزُ أنّ الجهل يبلغ بالحاكم إلى أن يصحّ مثل هذا"^(٢)، "أما استحيّ الحاكم من الله! يصحّ مثل هذا؟"^(٣).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١، ص ٣٣٧.

(٢) تلخيص المستدرک، جـ ٣، ص ٢١٧.

(٣) الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، جـ ٧، ص ٢٦٤.

اليَسَع عليه السلام

يُورِّخُ بنو إسرائيل لحياة اليسع ونبوّته بعد إلياس عليه السلام، ولا يوجد في القرآن الكريم ولا في السنّة النبويّة شيء عن نسب اليسع وتاريخه.

وليس لدينا معلومات صحيحة عن اليسع عليه السلام إلا ما ذكر عنه في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾^(١)، وقال أيضاً: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ ائْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

فقد ذكره الله ﷻ في هذين الموضعين مع النبيين الأخيار، الذين فضّلهم على العالمين، واجتباهم للنّبوة، وأمر النبي ﷺ أن يقتدي بهداهم، وكلّ هذا يدلّ على نبوّته^(٣).

(١) سورة ص: الآية ٤٨.

(٢) سورة الأنعام: الآيات ٨٦ - ٩٠.

(٣) عبد العزيز الدردير موسى: التفسير الموضوعي للآيات القرآنية المتعلقة بوجوب الإيمان

بالأنبياء والرسل، ص ٢١٣.

زكريّا ويحيى عليهما السلام

لقد ورد ذكر نبيّ الله زكريّا وولده يحيى في القرآن الكريم وصحيح السنّة النبويّة، وهما من أنبياء بني إسرائيل على وجه القطع؛ لأنّهما من ذريّة سليمان بن داود الذي يتّصل نسبه إلى إسرائيل بن إسحاق عليه السلام ^(١).

ويدلّ سياق القرآن على أنّ زكريّا وولده الذي مات في حياته كانا قريبي العهد بعيسى بن مريم؛ لأنّ زكريّا هو الذي تولّى كفالة مريم ^(٢). وكان يحيى وعيسى ابني خالة ^(٣)، وقيل: كان زكريّا وعمران متزوجين بأختين، فكانت أمّ يحيى عند زكريّا، وأمّ مريم عند عمران، فهلك عمران وأمّ مريم حامل بمريم وهى جنين في بطنها ^(٤)، وعلى هذا القول يكون يحيى ابن خالة مريم أمّ عيسى ^(٥).

❏ صناعة زكريّا عليه السلام

لقد ذكر النّبىّ ﷺ صناعة زكريّا فقال: "كَانَ زَكَرِيَّا نَجَّارًا" ^(٦)، وفي هذا فضيلة لزكريّا عليه السلام فإنّه كان صانعاً يأكل من كسبه، ومن عمل يده، وأنّ النّجارة صفة فاضلة، ولا تسقط المروءة ^(٧).

(١) محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء، ص ٣٠٦.

(٢) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، ج ٢، ص ٨٢.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج)، ج ٣، ص ١٤١٠، ح ٣٦٧٤.

(٤) الحاكم: المستدرک، ج ٣، ص ١٩٤.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٥٤، الشنقيطي: أضواء البيان، ج ٣، ص ٣٦٧.

(٦) مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب من فضائل زكريّا عليه السلام)، ج ٤، ص ١٨٤٧،

ح ٢٣٩٧.

(٧) النووي: شرح النووي على صحيح مسلم، ج ١٥، ص ١٣٥.

❏ مولد يحيى بن زكريا:

لقد ظلت امرأة زكريا عاقراً لا تلد حتى أسنت وأصبح زوجها شيخاً كبيراً، فلما كفل مريم، ورأى أن الله يرزقها بغير حساب، أخذ يلح على ربه، ويطلب منه الذرية الطيبة، فاستجاب الله دعاءه، ووهب له يحيى، وجعله نبياً، وقد قص علينا القرآن ذلك الخبر في غير ما موضع، فقال تعالى بعد ذكر مريم: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١)، وقال تعالى: (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)^(٢).

وقد أمر الله ﷻ نبيه أن يقص على الناس خبر زكريا وما كان من أمره، حين وهبه الله ولداً على الكبر، حتى لا ييأس أحد من فضل الله، ولا يقنط من رحمته، فقال تعالى: ﴿ذَكَرْ رَحْمَةَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ

(١) سورة آل عمران: الآيات ٣٧ - ٣٩.

(٢) سورة مريم: الآيتان ٨٩، ٩٠.

شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا^(١).

وقد حملت الآيات السبب الذي من أجله دعا زكريا ربه بالولد الصالح، وهو خوفه من فعل عصبته "الموالي" وجورهم من بعده؛ وكانوا على سائر الأقوال شرار بني إسرائيل، فخاف أن لا يحسنوا خلافته في أمته، فسأل ولداً يرثه في العلم والنبوة والهداية لبني إسرائيل^(٢).

وأما الروايات التي تقول بأن زكريا سأل الولد ليرثه ماله، فهي "مرسلات لا تعارض الصحاح"^(٣)، والنبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى هذا الحد، ويأنف من وراثة عصابته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم، ثم إن زكريا لم يكن ذا مال، بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالا، ولا سيما الأنبياء - عليهم السلام - فإنهم كانوا أزهّد شيء في الدنيا^(٤)، وقد سبق أن رسول الله ﷺ قال: "لَا نُورَثُ مَا تَرَكَنَا صَدَقَةً"^(٥).

(١) سورة مريم: الآيات ٢ - ٧.

(٢) القرطبي: التفسير، ج ١١، ص ٧٨، محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، ج ٢، ص ٨٥، ٨٦.

(٣) ابن كثير: التفسير، ج ٣، ص ١٠٦.

(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠٥.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب الخمس، باب فرض الخمس)، ج ٣، ص ١١٢٦، ح ٢٩٢٦، مسلم: الصحيح، (كتاب الجهاد، باب حكم الفيء)، ج ٣، ص ١٣٧٨، ح ١٧٥٧.

ولمّا أجاب الله دعاء زكريّا عليه السلام وبشّره بيحيى فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أنّ امرأته كانت عاقراً لم تلد من أوّل عمرها مع كبرها، وطلب علامة ودليلاً على وجود ما وعده الله، لتستقرّ نفسه ويطمئنّ قلبه^(١)، فختم على لسانه ثلاثة أيّام ولياليهنّ لم يتكلّم فيها إلا رمزاً، وهو صحيح^(٢)، وقد حكى الله لنا ذلك: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلَّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلَّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(٤).

وأما من زعم أنّ زكريّا سأل الآية لأنّ الشيطان شكّكه في البشارة^(٥)، فقلوه ظاهر البطلان^(٦)، ولو جاز ذلك لاشتبه كلام الله ووحيه ووحيه بكلام الشيطان، وبالتالي ترتفع النّقة بأخبار الوحي فيما يتعلّق

(١) ابن كثير: التفسير، جـ ٣، ص ١٠٦، ١٠٧.

(٢) الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ١٩٣.

(٣) سورة آل عمران: الآيتان ٤٠، ٤١.

(٤) سورة مريم: الآيات ٨ - ١١.

(٥) الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ١٩٣.

(٦) رشيد رضا: تفسير المنار، جـ ٣، ص ٢٤٥.

بالأمور الدينية والدنيوية، وقد صرح القرآن بأن الذي بشر زكريا بولادة يحيى عليه السلام هم الملائكة^(١).

❏ إصلاح زوج زكريا عليه السلام:

لقد نصّ القرآن الكريم على أنّ الله أصلح لزكريا وزوجه، ولكنّ المفسرين اختلفوا في تأويل ذلك، فمنهم من قال: أصلحها للولادة بأنّ أزال عنها المانع بالعادة، ومنهم من قال: جعلها مصلحة في الدين، فإنّ صلاحها في الدين من أكبر أعوانه في الدعوة إلى الله^(٢)، ولا مانع من إرادة الأمرين جميعاً، وذلك بأن يصلح الله ذاتها فتكون ولوداً بعد أن كانت عاقراً، ويصلحها في دينها فتكون عوناً لزوجها في دعوة^(٣).

وأما القول بأنّ الله أصلحها في أخلاقها، لأنّها كانت تؤذي زوجها بطول لسانها^(٤)، فهو يعارض قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾^(٥).

❏ تسمية يحيى عليه السلام:

نصّ القرآن بأنّ الله تعالى هو الذي سمّى يحيى بهذا الاسم في قوله ﷻ: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾^(٦)، وفي هذا تشريف له له وتعظيم^(٧).

(١) الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ، ج١، ص٣٤٥.

(٢) الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج٢٢، ص٢١٧.

(٣) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرک، ج١، ص٢٦١.

(٤) الحاكم: المستدرک، ج٢، ص٤٩٠، ح٣٤٩٦.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.

(٦) سورة مريم: الآية ٧.

(٧) الشوكاني: فتح القدير، ج٣، ص٣٢٣.

❏ وصف القرآن ليحيى وثناؤه عليه:

لقد منح الله ﷻ عبده يحيى صفاتٍ فاضلةً، وأثنى عليه ثناءً عاطراً، فأعطاه النبوة في صباه، ووصفه بالتَّحَنُّنَ والبرِّ والتَّقْوَى، والصَّلَاحَ والاستقامة، قال تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾^(١)، وجعله سيِّداً حصوراً بعيداً عن مقارفة الشهوات والمنكرات، قال تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحْصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢).

وأما وصف يحيى عليه السلام بالعنة كما روي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "كُلُّ بَنِي آدَمَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ ذَنْبٌ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا"، ثُمَّ دَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ عُودًا صَغِيرًا، ثُمَّ قَالَ: "وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا لِلرِّجَالِ إِلَّا مِثْلُ هَذَا الْعُودِ لِذَلِكَ سَمَّاهُ اللَّهُ ﴿سَيِّدًا وَحْصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾"^(٣)، فلم يصحَّ سنده إلى عمرو بن العاص^(٤).

وقد أنكر حذاق المفسرين وصف نبي الله يحيى عليه السلام بالعنة وعدم القدرة على النكاح؛ لأنها نقيصة وعيب لا يليق بالأنبياء -عليهم السلام- والفضل في وجود الشهوة، ثم قمعها إمّا بمجاهدة، كعيسى عليه السلام أو بكفاية من الله تعالى كيحيى عليه السلام، ثم هي في حق من قدر عليها وملكها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربّه درجة عليا، وهي درجة نبيّنا ﷺ الذي لم

(١) سورة مريم: الآيات ١٢-١٤.

(٢) سورة آل عمران: من الآية ٣٩.

(٣) الحاكم: المستدرک، ج٢، ص٤٨١، ح٣٤٦١.

(٤) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرک، ج١، ص٢٦٦.

تشغله كثرة أزواجه عن عبادة ربّه، بل زاده ذلك عبادة لتحسينهنّ، وقيامه بحقوقهنّ، واكتسابه لهنّ، وهدايته إياهنّ^(١).

لذا اختار المحققون أنّ الحصور هو الذي لا يأتي النساء لا للعجز، بل للعفة والزهد، وذلك لأنّ الحصور هو الذي يكثر حصر النفس ومنعها^(٢)، ويؤيد هذا القول ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال: "مَا مِنْ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا قَدْ أَخْطَأَ، أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ، لَيْسَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا"^(٣).

ومن تمام ثناء الله ﷻ على يحيى أن سلّم عليه في يوم مولده ويوم وفاته ويوم بعثه، بقوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾^(٤)؛ لأنّ هذه الأوقات الثلاثة أشدّ ما تكون على الإنسان، فإنّه ينتقل في كلّ منها من عالم إلى عالم آخر، فيفقد الأوّل بعد ما كان ألفه وعرفه، ويصير إلى الآخر، ولا يدري ما بين يديه^(٥).

❏ دعوة يحيى عليه السلام:

كان يحيى عليه السلام ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾^(٦)، والمراد بكلمة الله هو هو عيسى عليه السلام عند جمهور العلماء، لأنّه كان يسمّى بذلك، وقد صدّقه يحيى، وآمن بأنّه رسول الله، وكلمته ألّقاها إلى مريم، وروح منه، وقيل: كان يحيى مصدّقاً بكلام الله، لأنّ الكلمة تطلق ويراد منها الكلام^(٧).

(١) القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، ج١، ص٦٥، ٦٦.

(٢) الرازي: التفسير الكبير، ج٨، ص٣٩.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف، ج٦، ص٣٤٦، ح٣١٩٠٩، أحمد بن حنبل: المسند، ج٤، ص٤٢٥، ح٢٦٨٩، وجود الذهبى إسناد. تلخيص المستدرک، ج٣، ص١٩٤، ح٤٢٠١، وصححه الألباني بطرقه وشواهده. السلسلة الصحيحة، ج٦، ص١٢٠٦، ح٢٩٨٤.

(٤) سورة مريم: الآية ١٥.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٥٠.

(٦) سورة آل عمران: من الآية ٣٩.

(٧) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، ج٢، ص٩٦.

وقد قصّ علينا رسول الله ﷺ من دعوة يحيى عليه السلام ما يدلّ على تصديقه بكلام الله وبرسوله عيسى بن مريم، فقال: "إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَكَأَدَ أَنْ يُبْطِئَ، فَقَالَ لَهُ عَيْسَى: إِنَّكَ قَدْ أَمَرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَمَا أَنْ تَبْلُغَهُنَّ، وَإِمَّا أَنْ أُبْلِغَهُنَّ. فَقَالَ: يَا أَخِي، إِنِّي أَخْشَى أَنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذِّبَ أَوْ يُخَسَفَ بِي". قَالَ: "فَجَمَعَ يَحْيَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدُ، فَقَعَدَ عَلَى الشَّرَفِ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ. أَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، فَإِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ مِثْلَ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالصِ مَالِهِ بَوْرَقٍ أَوْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ، وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيْكُمُ سِرَّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ، وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، فَاعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لَوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا. وَأْمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ كَمِثْلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكِ فِي عَصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمِسْكِ، وَإِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللَّهِ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ. وَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ، فَإِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ كَمِثْلِ رَجُلٍ أَسْرَهُ الْعَدُوُّ، فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ. وَأْمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﷻ كَثِيرًا، وَإِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ كَمِثْلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ، فَأَتَى حَصِينًا حَصِينًا، فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ" (١).

(١) الترمذي: السنن، وقال: "حديث حسن صحيح غريب"، (كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل

الصلاة والصيام والصدقة، ج ٥، ص ١٤٨، أحمد بن حنبل: المسند، ج ٢٨، ص ٤٠٤،

ح ١٧١٧٠. وصححه محققو المسند.

وقد بان من هذا الحديث أن يحيى دعا قومه إلى توحيد الله كسائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وأنه أمرهم بالصلاة والصيام والصدقة وذكر الله تعالى، وهو ما اتفقت عليه شرائع الأنبياء كلها، ولم يكن يحيى يدعو إلى يهودية ولا نصرانية، ولم يكن من المشركين.

❏ مقتل يحيى بن زكريا:

يُروى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "بُعِثَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- فِي اثْنَيْ عَشَرَ مِنَ الْخَوَارِجِ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ، فَكَانُوا فِيمَا يُعَلِّمُونَهُمْ أَنْ يَنْهَوْهُمْ عَنْ نِكَاحِ ابْنَةِ الْأَخْتِ (١)، وَكَانَ لِمَلِكِهِمْ ابْنَةٌ أُخْتُ تَعْجَبُهُ وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، وَكَانَ لَهَا كُلَّ يَوْمٍ حَاجَةٌ يَقْضِيهَا، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ أُمُّهَا أَنَّهُمْ نَهَوْا عَنْ نِكَاحِ ابْنَةِ الْأَخْتِ قَالَتْ لَهَا: إِذَا دَخَلْتَ عَلَى الْمَلِكِ فَقَالَ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ فَقُولِي لَهُ: حَاجَتِي أَنْ تَذْبَحَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ فَسَأَلَهَا حَاجَتَهَا قَالَتْ: حَاجَتِي أَنْ تَذْبَحَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا فَقَالَ: سَلِينِي سِوَى هَذَا، قَالَتْ: مَا أَسْأَلُكَ إِلَّا هَذَا، فَلَمَّا أَبَتْ عَلَيْهِ دَعَا بِطِسْتٍ، وَدَعَا بِهِ، فَذَبَحَهُ، فَبَدَرَتْ قَطْرَةٌ مِنْ دَمِهِ عَلَى الْأَرْضِ فَلَمْ تَزَلْ تَغْلِي حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ بُخْتَنَصَرَ عَلَيْهِمْ، فَأَلْقَى فِي نَفْسِهِ أَنْ يَقْتُلَ عَلَى ذَلِكَ الدَّمِ مِنْهُمْ حَتَّى يَسْكُنَ، فَقَتَلَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ سَبْعِينَ أَلْفًا (٢).

وهذه التفاصيل توجد في "مدراش إixa"، حيث الذبيح زكريا كاهن الرب، ذبحه قومه، وكان دمه على الأرض يفور ويغلي، ولم يهدأ هذا

(١) وفي رواية الحاكم "ابنة الأخ". المستدرک، ج٣، ص ١٩٤.

(٢) ابن أبي الدنيا: من عاش بعد الموت، تحقيق/ محمد حسام بيضون، مؤسسة الكتب الثقافية،

بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ص ٤٠، ح ٤٤، ٤٥، الحاكم: المستدرک، ج٣،

ص ١٩٤، ح ٤٢٠٣، وصحح الحاكم إسناده، وأقره الذهبي.

الدّم حتّى ذبح "تبوزردان" من بني إسرائيل ثمانين ألفاً^(١)، والواضح من مقارنة الأثر بالمصدر الإسرائيليّ، أنّ سيناريو الأحداث واحد، وإن اختلفت أسماء الشخصيات^(٢).

وليتأمل القارئ ما جاء في هذا الأثر من قتل بختنصر في يوم واحد، وبضرب واحد وبيت واحد سبعين ألفاً؛ فلا شكّ أنّ هذا من مبالغات بني إسرائيل التي اعتادوا أن يظهروا فيها مدى الظلم والقهر الذي وقع عليهم حتّى يستحذوا على عطف الأمم والشعوب.

وبعيدا عن المبالغات الإسرائيليّة فلا مانع من قبول الخبر الذي يجعل مقتل يحيى بن زكريا بسبب امرأة، وقد صحّ عن أسماء بنت أبي بكر الصديق أنّها قالت لعبد الله بن عمر رضي الله عنه عندما عزّاها وصبرها على مقتل ولدها عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: "وَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ الصَّبْرِ وَقَدْ أَهْدَيْ رَأْسُ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا إِلَى بَغْيٍ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ"^(٣).

وأما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنّه قال: "أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُحَمَّدٍ صلّى الله عليه وآله: إِنِّي قَتَلْتُ بِيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا سَبْعِينَ أَلْفًا، وَإِنِّي قَاتِلُ بَابِنِ ابْنَتِكَ سَبْعِينَ أَلْفًا وَسَبْعِينَ أَلْفًا"^(٤)، فهو منكر سنداً وممتناً^(٥)، وتتبعث منه الروائح الشيعيّة.

(١) آمال ربيع: الإسرائيليات في تفسير الطبري، ص ١١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٩.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف، ج ٦، ص ٢٠٢، ح ٣٠٦٧٤.

(٤) الحاكم: المستدرک، ج ٢، ص ٤٠٧، ح ٣١٩٧، ج ٣، ص ١٩٥، ح ٤٢٠٤.

(٥) الذهبي: تلخيص المستدرک، ج ٢، ص ٤٠٧.

حبيبنا عليه السلام

ولادة مريم:

كان عمران والد مريم أحد علماء بني إسرائيل وإمامهم في صلاتهم، وكانت زوجته -أم مريم- لا تلد، فنذرت إن حملت ذكراً تجعله حبيباً لبیت المقدس، فاستجاب الله دعاءها، ورزقها بمريم^(١)، وكان من أمر ولادتها ما ذكره الله في كتابه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).

ولما وضعت امرأة عمران جنينها تبيّنت أنه أنثى، فقالت كالمعتذرة لربّها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٣)، فتقبل الله مريم وحفظها وولدها من الشيطان الرجيم، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمْسُهُ حِينَ يُوَلَّدُ فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَأُوا إِنَّ شَيْئَكُمْ: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾"^(٤).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٢، ص ٥٧.

(٢) سورة آل عمران: الآيات ٣٣ - ٣٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٣٦.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب التفسير، باب ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾،

جـ ٤، ص ١٦٥٥، ح ٤٢٧٤، مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام)،

جـ ٤، ص ١٨٣٨، ح ٢٣٦٦.

❏ كفالة زكريا لمريم:

تُوَفِّي والد مريم وهي طفلة صغيرة، تحتاج إلى من يرعاها ويتولَّى أمورها، فخرجت بها أمها إلى مسجد بيت المقدس، فسَلَّمَتها إلى العُباد المقيمين فيه، ولَمَّا كانت ابنة إمامهم، فقد اختلفوا فيمن يقوم بكفالتها، لذلك وافقوا على الاقتراع قطعاً للنزاع، كما قال الله لرسوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُونَ أَفْلَاهُمْ أَيُّهُمُ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾^(١).

خرجت القرعة لزكريا عليه السلام فاتخذ لها مكاناً شريفاً من المسجد^(٢)، لا يدخله سواه، فكانت تقوم بما يجب عليها من سدانة البيت، واشتهرت بالأحوال الكريمة والصفات الشريفة، حتَّى كان نبيّ الله زكريا كلَّما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقاً غريباً في غير أوانه^(٣)، قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٤).

ورفع الله مكانة مريم بما أوحاه لها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَايِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(٥)، فقامت تعبد الله ليلاً ونهارها،

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٦.

(٢) يطلق المحراب على الغرفة والمكان العالي، وعلى المكان الشريف المقدم من البيت أو المسجد.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٢، ص ٥٨.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٣٧.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٤٢، ٤٣.

حتى ضرب المثل بعبادتها في بني إسرائيل^(١)، وكانت من أفضل نساء العالمين، كما قال النبي ﷺ: "حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ"^(٢).

❏ ميلاد العبد الرسول عيسى بن مريم العذراء البتول:

لَمَّا كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ^(٣)، فَقَدْ ابْتَلَى اللَّهُ مَرْيَمَ عَلَى قَدَرِ دِينِهَا، ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَايِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسْسَنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤).

وقد تحدّث القرآن الكريم عن اعتزال مريم لأهلها في مكان يلي الناحية الشرقية من بيت المقدس، وحملها بنبي الله عيسى، ومحاورتها لجبريل عليه السلام في السورة التي سميت باسمها، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٥٨.

(٢) الترمذي: السنن، وقال: "هذا حديث صحيح"، (كتاب المناقب، باب فضل خديجة)، ج٥، ص٧٠٣، ح٣٨٧٨، أحمد بن حنبل: المسند، ج١٩، ص٣٨٣، ح١٢٣٩١. وصحح المحققون إسناده على شرط الشيخين.

(٣) البزار: المسند، (البحر الزخار)، تحقيق/ محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ج٣، ص٣٤٩، ح١١٥٠، ابن حبان: الصحيح، ج٧، ص١٨٤، ح٢٩٢١، وحسن الأرنؤوط إسناده.

(٤) سورة آل عمران: الآيات ٤٥ - ٤٧.

لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا^(١).

ولمّا شاع في بني إسرائيل أن مريم حامل، واتّهمها بعض الزنادقة بيوسف النّجار الذي كان يتعبّد معها في المسجد، دخل على أهل بيت زكريّا ما لم يدخل على آل بيت غيرهم، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم بحملها^(٢)، «فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا»^(٣)، وذلك لأنّها لمّا حملت ضاقت به ذرعاً، وعلمت أن كثيراً من النّاس سيكون منهم كلام في حقّها^(٤).

ولمّا حان وقت ولادة مريم اضطرّها الطّلق إلى جذع النّخلة، فتمنّت الموت؛ لأنّها علمت أن النّاس يتهمونها، ولا يصدّقونها، بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها، مع أنّها قد كانت عندهم من العابدات النّاسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه، ومن بيت النّبوة والديانة^(٥)، «فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ»^(٦)، فقالت استحياء من النّاس: «يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا»^(٧).

وفي هذا الوقت العصيب الذي ضاقت فيه الدّنيا على مريم تداركها الله برحمته، فناداها وليدها من تحتها^(٨): «أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٦ - ٢١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٦٦.

(٣) سورة مريم: من الآية ٢٢.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٦٥.

(٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٦.

(٦) سورة مريم: من الآية ٢٣.

(٧) سورة مريم: من الآية ٢٣.

(٨) اختلفت أقوال السلف في المنادي لمريم هل هو جبريل أو عيسى عليه السلام وقد رجح ابن جرير الطبري القول الثاني. التفسير، ج ١٦، ص ٦٨، ٦٩.

سَرِيًّا * وَهَزَيَّ إِلَيْكَ بَجْذَعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي
وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا
فَلَنْ أَكُلَّمُ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا»^(١).

وضعت مريم العذراء البتول طفلها، وهزّت جذع النخلة التي لا
ثمر فيها، فتساقط عليها الرطب الجنيّ الناضج، فأكلت من الرطب
وشربت من النّهر الذي أجراه الله لها في مكان لا نهر فيه، وكان كلّ ذلك
إكراماً من الله تعالى لها على إيمانها وصلاحتها وطاعتها لله ﷻ وعناية
لوليدها "عيسى" عبد الله ورسوله^(٢).

ولا شك أنّ خلق عيسى على هذا الوضع العجيب آية بالغة على
كمال قدرة الله على أنواع الخلق، فإنّه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا
أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر،
وخلق بقيّة الخلق من ذكر وأنثى^(٣).

حملت مريم وليدها الصّغير على يديها وأنتت به إلى قومها فكان
من أمرها وأمر ولدها وقومها ما ذكره الله في كتابه: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا
تَحْمِلُهَا قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ
امْرَأًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ
فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا *
وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا *

(١) سورة مريم: الآيتان ٢٤، ٢٦.

(٢) محمد على الصابوني: النبوة والأنبياء، ص ١٩٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٣٦٨.

وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا^(١).

وهذا الذي نطق به عيسى في المهد هو أبلغ ردّ على افتراء الكاذبين، ومزاعم المفترين، الذين يدّعون أنّ عيسى إلهٌ أو ابنُ إله، والمسيح بريء من هذا الباطل الذي افتروه عليه، ونسبوه إليه، بعد أن فارقهم ورفع الله إليه^(٢).

نَسَبُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَشَأَتُهُ:

لقد نصّ القرآن الكريم على أنّ عيسى عليه السلام ينسب لأُمّه مريم بنت عمران الإسرائيليّة، ولم ينحدر من أصلاب الرّجال، إنّما هو روح الله وكلمته ألّقاها إلى مريم، وقد بيّن الله ﷻ حقيقة أمره، ووجه النّاس إلى القول الصّحيح فيه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣)، وقال تعالى: (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)^(٤).

ولا ريب أنّ الذي خلق آدم من غير أبّ ولا أمّ قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادّعاء البنوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أبّ، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتّفاق أنّ ذلك باطل، فدعواهم في عيسى أشدّ بطلاناً وأظهر فساداً^(٥).

(١) مريم: الآيات ٢٧ - ٣٣.

(٢) محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء، ص ٢٨٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

(٤) سورة مريم: الآيتان ٣٤، ٣٥.

(٥) ابن كثير: التفسير، ج ١، ص ٣٦٨.

وقد نهى الله ﷻ أهل الكتاب عن الغلوّ في عيسى، ومجاوزة الحدّ في حقيقته من النبوة إلى الإلهية، وافتراءهم عليه فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(١).

وقد ولد عيسى بن مريم ببيت لحم قريباً من بيت المقدس، التي كان يحكمها "هيرودوس" بأمر أوغسطس قيصر روما^(٢)، وأمّا تاريخ ميلاد عيسى بن مريم فهو التاريخ الميلاديّ العالميّ الذي اصطلحت الدّول في أرجاء المعمورة على التّاريخ به^(٣).

ولمّا ولد عيسى بلغ هيرودوس عن طريق بعض الكهنة أنّه ولد مولود سيكون له سلطان على جميع اليهود، فأمر بقتل كل طفل يولد في بيت لحم، فأمر يوسف النّجار في منامه بأن يذهب بعيسى وأمه إلى مصر خوفاً من بطش الحاكم، فامتثل الأمر، وانطلق بهما إلى مصر^(٤).

ولا يذكر القرآن الكريم عن حياة عيسى وأمه إلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾^(٥).

(١) سورة النساء: الآية ١٧١.

(٢) إنجيل برنابا، ص ٣، ٤، إنجيل متى، ص ٢.

(٣) محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء، ص ٢٧٤.

(٤) إنجيل برنابا، ص ٦، إنجيل متى، ص ٢.

(٥) سورة المؤمنون: الآية ٥٠. وتختلف أقوال العلماء في تحديد الربوة التي ذكرت في الآية الكريمة، فقبل إنها المكان الذي ولد فيه عيسى بنخلة بيت المقدس، وعن ابن عباس أنّها دمشق، وقيل ذلك بمصر، وهو قول أهل الكتاب، ومن تلقاه عنهم، وقيل هي الرملة.

ولئن كان العلماء قد اختلفوا في تعيين الربوة بين الشام ومصر، فالمرجح أن مصر أولى بالتعيين؛ إذ لا يوجد دليل على أن عيسى وأمه قد أويا إلى دمشق أو الرملة^(١)، كما أن الربا التي هي أرض مرتفعة ذات قرار يستقر عليها ساكنوها، لا توجد إلا بمصر، وذلك حين يرسل الماء، فتكون الربا عليها القرى، ولولا الربا لغرقت القرى^(٢).

ويروى عن وهب بن منبه أن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت المقدس^(٣).

▣ نبوة عيسى بن مريم:

ذكر عيسى بالنبوة في القرآن الكريم منذ أن نطق في المهد وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾^(٤).

ولا يذكر القرآن الكريم شيئاً عن بداية نبوة عيسى عليه السلام ونزول الإنجيل عليه، ولكن الأنجيل تنصّ على أن نبوته كانت على رأس الثلاثين من عمره^(٥)، وحينئذ ظهرت على يديه المعجزات الباهرات، وعلمه الله ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^(٦)، فقام يدعو إلى توحيد

(١) أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن والسنة، ص ٢٠٤.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ج ١، ص ٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٧٧.

(٤) سورة مريم: الآيات ٣٠ - ٣٣.

(٥) محمد على الصابوني: النبوة والأنبياء، ص ١٩٨.

(٦) سورة آل عمران: الآية ٤٨.

توحيد الله تعالى والإيمان به كسائر إخوانه من النبيين والمرسلين^(١)، كما صرح بذلك القرآن العظيم، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٢).

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: "أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد"^(٣). ويحدّد إنجيل متى -الذي يحتلّ المكانة الأولى بين أسفار العهد الجديد- دعوة المسيح في بني إسرائيل^(٤)، فيورد عن المسيح قوله للحواريين: "إلى طريق الوثنيين لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحريّ إلى خراف بني إسرائيل الضالة"^(٥)، وقوله أيضاً: "ولم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة"^(٦)، وهذا يدلّ على أن عالمية المسيحية -التي يدّعيها أتباعها- لا أساس لها، وأنّ عيسى أكّد لمن حوله أنّه تمهيد لرسالة أخرى أوسع وأشمل^(٧).

(١) النووي: شرح النووي على صحيح مسلم، جـ ١٥، ص ١٢٠.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ جـ ٣، ص ١٢٧٠، ح ٣٢٥٩، مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى ﷺ)، جـ ٤، ص ١٨٣٧، ح ٢٣٦٥.

(٤) موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ، ص ٧٩.

(٥) إنجيل متى: إصحاح ١٠، فقرة ٥، ٦.

(٦) إنجيل متى: إصحاح ١٥، فقرة ٢٤.

(٧) محمد الغزالي: صيحة تحذير من دعاة التنصير، دار الصحو، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، ص ٨٥.

وكان بنو إسرائيل قد انحرفوا عن شريعة الله ﷻ، فقام عيسى عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله، ويردّهم إلى الطريق الصحيح، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(١)، ولم يفتأ يبلّغهم أوامر الله تعالى، ويصحّح لهم ما حرفوه وبذلوه في شريعة نبي الله موسى عليه السلام، ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحْلِلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾^(٢)، كما بشرهم ببعثة نبيّنا محمد ﷺ، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(٣).

وقد أيد الله نبيّه عيسى عليه السلام بالمعجزات الباهرات والآيات القاطعات بصدق نبوّته ورسالته، وقد نصّ القرآن الكريم على بعضها، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾^(٤)، وقال على لسان عيسى عليه السلام: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا

(١) سورة مريم: الآية ٣٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٥٠.

(٣) سورة الصف: من الآية ٦.

(٤) سورة المائدة: من الآية ١١٠.

تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ^(١).

وكانت معجزات نبي الله عيسى مناسبة لأهل زمانه، لأنه "بعث في زمن الطبائعية الحكماء، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها، ولا يهتدون إليها، وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالاً من الأعمى والأبرص والمجنوم، ومن به مرض مزمن، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره؟ هذا مما يعلم كل أحد معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله"^(٢).

لكن غالبية بني إسرائيل لم يستجيبوا لدعوة نبيهم، ولم يقبلوا الحجج والبراهين التي أقامها عليهم، بل كذبوه، واستمروا على كفرهم وضلالهم وعنادهم^(٣)، وكان ردهم عليه، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾^(٤).

وقد آمنت طائفة من بني إسرائيل بدعوة عيسى عليه السلام وأسلموا لله رب العالمين، وكانوا لنبيهم أنصاراً وأعواناً، وقد ذكرهم الله ﷻ في غير ما موضع من كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ

(١) سورة آل عمران: من الآية ٤٩.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٨٤.

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٤.

(٤) سورة المائدة: من الآية ١١٠.

(٥) سورة المائدة: من الآية ١١١.

وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ^(١)، وهذا دليل أكيد على أن نبي الله عيسى والحواريين كانوا من المسلمين الموحدين^(٢).

ولو كان الحواريون مخالفين لمعتقد المسلمين لما أمر الله عباده المؤمنين أن يكونوا أنصاراً لله في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى عليه السلام^(٣) بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَّا طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ^(٤)﴾.

❏ مائدة الحواريين:

لقد قصَّ الله علينا خبر المائدة في القرآن الكريم فقال: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ^(٥)﴾.

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٥٢، ٥٣.

(٢) جمال عبد الهادي: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم، ص ٢٧١.

(٣) ابن كثير: التفسير، ج٤، ص ٣٦٣.

(٤) سورة الصف: الآية ١٤.

(٥) سورة المائدة: الآيات ١١٢ - ١١٥.

ويتّضح من سياق الآيات الكريمات أنّ الحواريين لم يطلبوا نزول المائدة لشكّهم في قدرة الله، وإنّما طلبوها لحاجتهم إلى الطّعام، وزيادة الإيمان واليقين، وليشهدوا أمام الذين لم يحضروا نزولها بكمال قدرة الله تعالى، وصدق عيسى بن مريم في نبوّته^(١)، وسؤال الحواريين المائدة شبيه بسؤال إبراهيم ربّه عن كيفة إحياء الموتى^(٢).

وقد اختلف العلماء في نزول المائدة، ولكنّ الجمهور على القول بنزولها، وقد صوّب الإمام الطّبريّ قولهم معللاً ذلك بأنّ الله تعالى أخبر في كتابه عن إجابة نبيّه عيسى عليه السلام حين سأله إنزال المائدة بقوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، وغير جائز أن يقول الله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، ثمّ لا ينزلها؛ لأنّ ذلك من الله تعالى خبر، ولا يكون منه خلاف ما يخبر^(٣).

وقد أقرّ ابن كثير ما صوّبه ابن جرير، اعتماداً على ما دلّت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم^(٤)، وقد أكثر المفسّرون من الكلام على أصناف طعام المائدة، وكيفة نزولها ومكانه، وكيفة استقبالها وكشف غطاءها، والأكل منها، والباقي بعد الأكل، ولم يصل إلينا شيء من ذلك بإسناد صحيح^(٥)، ولا يخلو من غرابة ونكارة^(٦).

والصّواب من القول فيما كان على المائدة، أن يقال: كان عليها مأكول، وجائز أن يكون سمكاً وخبزاً، وجائز أن يكون من ثمر الجنة،

(١) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، جـ ٢، ص ١٨١.

(٢) المرجع السابق، جـ ٢، ص ١٨٥.

(٣) الطّبري: التفسير، جـ ٧، ص ١٣٥.

(٤) ابن كثير: التفسير، جـ ٢، ص ١٢٠.

(٥) محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، جـ ٢، ص ١٨١.

(٦) ابن كثير: التفسير، جـ ٢، ص ١٢٠.

وهذا ممّا لا ينفع العلم به، ولا يضرّ الجهل به، إذا أقرّ تالي الآية بظاهر ما احتمله التّنزيل^(١).

❏ وفاة عيسى عليه السلام ورفعته إلى السماء:

لما كانت دعوة نبيّ الله عيسى فاضحة لكهنة اليهود ومبيّنة لكذبهم وتحريفهم لشريعة موسى عليه السلام فقد جادلوه جدالاً عنيفاً، وآذوه إيذاءً شديداً، ثمّ استقرّ رأيهم على التخلّص منه؛ لئلا يتبعه النّاس، وتضيع مكانة الكهنة بين اليهود، لذلك سعوا عليه عند الوالي الروماني "بيلاطس"، وادّعوا على نبيّ الله عيسى بأنّه يريد أن يجعل نفسه ملكاً على بني إسرائيل، فقرّر أن يقتل عيسى عليه السلام^(٢).

وعلم نبيّ الله عيسى بالتآمر عليه فاختم عن أعين الرّقباء، غير أنّه كان في الحواريين رجل خائن منافق يدعى "يهوذا الإسخريوطي"، فنقّدم اليهود ليدلّهم على مكان عيسى عليه السلام، فرفع الله عيسى إلى السّماء، وألقى شبهه على يهوذا الخائن، فلم يشكّوا بأنّه عيسى، فقبضوا عليه، واقتادوه إلى الحاكم الروماني، وانتهى الأمر بقتله وصلبه^(٣).

ولا تذكر الرواية الإسلاميّة مقتل يهوذا الخائن، بل تجعل المقتول أحد الحواريين المخلصين، فعن ابن عباس عليه السلام أنّه قال: "لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى السَّمَاءِ خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ - وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا - مِنْ عَيْنٍ فِي الْبَيْتِ وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً، فَقَالَ لَهُمْ: أَمَّا إِنْ مِنْكُمْ مَنْ

(١) الطبري: التفسير، ج-٧، ص ١٣٥.

(٢) إنجيل متّى، ص ٤٠ - ٤٢، إنجيل مرقس، ص ٦٨ - ٧٠، إنجيل لوقا، ص ١١٤ - ١١٥، إنجيل يوحنا، ص ١٤٨ - ١٥١.

(٣) إنجيل برنابا، ص ٢٢٧ - ٢٣١.

سَيَكْفُرُ بِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ سَيُلْقِي عَلَيَّ شَبَهِي فَيُقْتَلَ مَكَانِي وَيَكُونُ مَعِيَ فِي دَرَجَتِي؟ فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحَدِهِمْ، فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ عِيسَى: اجْلِسْ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَامَ الشَّابُّ، فَقَالَ عِيسَى: اجْلِسْ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَامَ الشَّابُّ، فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: نَعَمْ أَنْتَ ذَلِكَ، فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبَهُ عِيسَى، وَرَفَعَ عِيسَى عليه السلام مِنْ رَوْزَنَةٍ كَانَتْ فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ، وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ فَأَخَذُوا الشَّبِيهَ فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ صَلَبُوهُ، وَكَفَرَ بِهِ بَعْضُهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ، فَتَفَرَّقُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا اللَّهُ مَا شَاءَ، ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَهَؤُلَاءِ الْيَعْقُوبِيَّةُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا ابْنُ اللَّهِ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ النَّسْطُورِيَّةُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ، فَتَظَاهَرَتِ الْكَافِرَتَانِ عَلَى الْمُسْلِمَةِ فَقَاتَلُوها فَقَتَلُوها، فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿فَأَمِنْتُ طَائِفَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، يَعْنِي الطَّائِفَةَ الَّتِي آمَنَتْ فِي زَمَنِ عِيسَى، ﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾، يَعْنِي الطَّائِفَةَ الَّتِي كَفَرَتْ فِي زَمَنِ عِيسَى، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فِي زَمَانِ عِيسَى ﴿عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ بِإِظْهَارِ مُحَمَّدٍ ﷺ دِينَهُمْ عَلَى دِينِ الْكُفَّارِ ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾^(١).

والقرآن صريح في النصِّ على رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وتكذيب من زعم غير ذلك، يقول الله تعالى: (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ

(١) النسائي: السنن الكبرى، (كتاب التفسير، باب سورة الصف)، ج٦، ص٤٨٩، ح١١٥٩١،

ابن أبي شيبة: المصنف، ج٦، ص٣٣٩، ٣٤٠، ح٣١٨٧٦، وقال ابن كثير: "وهذا إسناد

صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم". البداية والنهاية، ج٢، ص٩٢.

الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا^(١).

ويقول أيضاً: (وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتَوْفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ^(٢)).

وقد اختلف العلماء في موت عيسى عليه السلام قبل رفعه، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾^(٣)، ف قيل على ظاهره، وعلى هذا فإذا نزل إلى الأرض ومضت المدة المقدرة له يموت ثانياً، وقيل قوله: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ أي من الأرض، فعلى هذا لا يموت إلا في آخر الزمان^(٤).

ولقد كانت وفاة عيسى عليه السلام ضربة شديدة لعقيدة التوحيد، ومبدأ انقسام واسع بين أتباعه، فالأكثر علموا أن نبيهم اختاره الله ورفع إلى السماء، أما القلة الغلاة فزعموا أن عيسى قتل مصلوباً، وصوّروا القتل المصلوب على أنه ابن الله الوحيد، قتله أبوه على تلك الصورة الدائمة، ليفتدي به خطايا آدم وبنيه^(٥)، وظلّ الفريقان يختصمون حتى تدخل

(١) سورة النساء: الآيات ١٥٧-١٥٩.

(٢) سورة المائدة: الآيات ٥٤-٥٧.

(٣) سورة آل عمران: من الآية ٥٥.

(٤) ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٤٩٣.

(٥) محمد الغزالي: صيحة تحذير من دعاة التصير، ص٧٣.

الإمبراطور البيزنطي "قسطنطين" وحسم الأمر في مؤتمر "نيقية" عام ٣٢٥م، وقرّر إبادة جميع الأناجيل المكتوبة بالعبريّة، وأصدر قراراً دينياً بمعاقة كل من يحوز إنجيلاً مكتوباً بالعبريّة بالموت^(١)، ونصر القلّة القائلة بالصلب والفداء وبنوّة المسيح لله، وخذل الكثرة التي تقول بنبوّة عيسى، وواجه الموحّدون حرباً ضارية، وصودرت حريّاتهم وكتبهم، ولم تبقى إلا الكتب البعيدة عن عقيدة التّوحيد، حتّى عثر على إنجيل برنابا الذي يمثّل تعاليم النّصرانيّة الأولى^(٢)، وأهمّ ما فيه أنّه لا يقول بألوهيّة المسيح، ولا بنوّته، ولا بالتّثليث، ويقرّر أنّ الذّبيح هو إسماعيل وليس إسحاق، وينصّ على البشارة ببعثة محمّد ﷺ صراحة، ولا يتفق مع الأناجيل الأخرى في القول بصلب المسيح، بل إنه يجهل القائلين بذلك^(٣).

📖 نزول عيسى عليه السلام قرب قيام الساعة:

لقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً^(٤)، ففي الصّحّاحين^(٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنَزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنْ

(١) أحمد طاهر: الأناجيل (دراسة مقارنة)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١٨٤.

(٢) محمد الغزالي: صيحة تحذير من دعاة التنصير، ص ٧٣.

(٣) رعوف شلبي: أضواء على المسيحية، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٥م، ص ٦٥.

(٤) ابن كثير: التفسير، ج ٤، ص ١١٩.

(٥) صحيح البخاري، (كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة)، ج ٣،

ص ١٢٧٢، ح ٣٢٦٤، صحيح مسلم، (كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكماً

بشريعة نبينا محمد ﷺ)، ج ١، ص ١٣٥، ح ١٥٥.

الدُّنْيَا وما فيها. ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَؤُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾^(١).

وَمَنْ يَتَّبِعْ طَرِقَ حَدِيثِ نَزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَجِدُهُ قَدْ رَوَاهُ عَنْهُ ﷺ نَحْوَ أَرْبَعِينَ صَحَابِيًّا، أَسَانِيدَ عَشْرِينَ مِنْهُمْ عَلَى الْأَقْلَى صَحِيحَةٌ، وَبَعْضُهَا لَهُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ طَرِيقٍ وَاحِدٍ صَحِيحٍ فِي الصَّحِيحِينَ، وَالسَّنَنِ، وَالْمَسَانِيدِ، وَالْمَعَاجِمِ، وَغَيْرِهَا مِنْ كُتُبِ السَّنَةِ^(٢)، وَلِذَا فَلَا مَحِيدَ لِمَنْ آمَنَ بِنَبْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ أَنْ يُؤْمِنَ بِنَزُولِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ النَّبِيِّ الْإِسْرَائِيلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعِينِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ^(٣).

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِصِفَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ نَزُولِهِ فَقَالَ: لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَعْرِفُوهُ، رَجُلٌ مَرْبُوعٌ^(٤) إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ^(٥)، كَانَ رَأْسُهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، فَيَقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَيَذُقُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَلَأَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَيَهْلِكُ الْمَسِيحُ الدَّجَالُ، فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يُتَوَقَّى فَيُصَلِّيَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ^(٦).

(١) سورة النساء: الآية ١٥٩.

(٢) الألباني: الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ص ٧٢.

(٣) محمد أنور شاه الكشميري الهندي: التصريح بما تواتر في نزول المسيح، تحقيق/ عبد الفتاح أبو غدة، دار السلام، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ٨٠.

(٤) المربوع: هو بين الطويل والقصير. ابن الأثير: النهاية، ج ٢، ص ١٩٠.

(٥) الثوب الممصّر: المصبوغ بالطين الأحمر أو بحمرة خفيفة. ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ١٧٦.

(٦) أبو داود: السنن، (كتاب الملاحم، باب خروج الدجال)، ج ٤، ص ١١٧، ح ٤٣٢٤، وصحح الحاكم إسناده، وأقره الذهبي، المستدرک، ج ٣، ص ١٩٧، ح ٤٢١٥، وهو كما قالوا.

وفسر ابن عباس رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿وَأِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَأِنَّهُ لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ﴾، بخروج عيسى ابن مريم عليه السلام^(٢).

❏ عقيدة المسلمين في عيسى بن مريم:

يخالف العقيدة الإسلامية من ينسب عيسى بن مريم إلى الإلهية، أو النبوة^(٣)، وقد نهى الله عز وجل أهل الكتاب عن الغلو في عيسى عليه السلام ومجاوزة الحد في حقيقته من النبوة إلى الإلهية، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٤).

وعقيدتنا في عيسى عليه السلام هي ما رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل"^(٥).

(١) سورة النساء: الآية ١٥٩.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج٥، ص٨٦، ح٢٩١٨، وحسن المحققون إسناده.

(٣) محمد سيد طنطاوي: القصّة في القرآن الكريم، ج٢، ص١٩١.

(٤) سورة النساء: الآية ١٧١.

(٥) البخاري: الصحيح، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ...﴾،

...، ج٣، ص١٢٦٧.

محمّد صلّى الله عليه وسلم

هو «رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ»^(١)، وسيّد ولد آدم^(٢)، الذي أرسله ربّه إلى النّاس كافّة، وقال فيه: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»^(٣)، وأخذ له ميثاق النّبیین بقوله: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ»^(٤)، وزكّاه ربّه بقوله: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ»^(٥)، فقال جامعاً الفضائل والمحاسن: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ"^(٦)، أو "مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"^(٧).

وقد أكمل الله ﷺ بنبيّنا محمد ﷺ شرائع الدّين^(٨)، وقال النّبىّ ﷺ متحدّثاً بفضل الله: "إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا

(١) سورة الأحزاب: من الآية ٤٠.

(٢) الترمذي: السنن، وقال: "حسن صحيح"، (كتاب التفسير، باب ومن سورة بنى إسرائيل)، ج٥، ص ٣٠٨، ح ٣١٤٨.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٨١.

(٥) سورة القلم: الآية ٤.

(٦) البخاري: الأدب المفرد، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، (باب حسن الخلق)، ص ١٠٤، ح ٢٧٣، أحمد بن حنبل: المسند، ج٤، ص ٥١٣، ح ٨٩٥٢، وقال محققو المسند: "صحيح، وهذا إسناد قوي".

(٧) البزار: البحر الزخار، ج١، ص ١٢١، ح ٢٧٦، البيهقي: السنن الكبرى، ج١٠، ص ٣٢٣، ص ٣٢٣، ح ٢٠٧٨٢. وقال الهيثمي: "رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح، غير محمد بن رزق الله الكلواذي، وهو ثقة". مجمع الزوائد، ج٨، ص ٥٧٣، ح ١٤١٨٨.

(٨) ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص ٥٥٩.

فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ؟ فَأَنَا اللَّبَنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ^(١).

ولعظيم مكانة نبينا محمد ﷺ عندنا؛ فقد أفردنا له كتابا يتناول جانبا من سيرته الزكّية بعنوان: "التحقيقات العلية في سيرة خير البرية"^(٢).
وصلّ اللهم وسلّم وبارك على سيّدنا محمد النبي الأمي المختار، وعلى آله وأصحابه الأخيار.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

محمد ﷺ

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ)، جـ ٣، ص ١٣٠٠، ح ٣٣٤٢، مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين)، جـ ٤، ص ١٧٩١، ح ٢٢٨٦.

(٢) محمد عبد العال محمد حسن: التحقيقات العلية في سيرة خير البرية، دار الإيمان للمعرفة، القاهرة، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.

(٣) سورة الصّافات: الآيات ١٨٠-١٨٢.

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٨	عصور ما قبل آدم
١٣	عدد الأنبياء والمرسلين
١٦	آدم عليه السلام
٤٢	إدريس عليه السلام
٤٤	نوح عليه السلام
٥٩	هود عليه السلام
٧٠	صالح عليه السلام
٨٢	إبراهيم عليه السلام
١١٩	لوط عليه السلام
١٢٩	إسماعيل عليه السلام
١٣٤	إسحاق عليه السلام
١٣٧	يعقوب عليه السلام
١٤١	يوسف عليه السلام
١٧٢	شعيب عليه السلام
١٨٢	أيوب عليه السلام
١٨٨	ذو الكفل عليه السلام
١٩٠	يونس عليه السلام

الصفحة	الموضوع
١٩٧	موسى وهارون عليهما السلام
٢٥٤	يوشع بن نون عليه السلام
٢٥٨	داود عليه السلام
٢٧١	سليمان عليه السلام
٢٨٩	إلياس عليه السلام
٢٩١	اليسع عليه السلام
٢٩٢	زكريا ويحيى عليهما السلام
٣٠٢	عيسى عليه السلام
٣٢١	محمد صلى الله عليه وسلم
٣٢٣	فهرس الموضوعات